

عيون المعاصرة

إبراهيم الكوفي

من
أساطير
الصحراء

تقديم
توفيق بشار



دار الجنود للنشر - قروطن

إبراهيم الكوفي

من أساطير الصحراء

تقديم
توفيق بكار

دار الجنود - الناشر - تونس

© جميع الحقوق محفوظة لدار الجنوب للنشر - 2006

79 نهج فلسطين - 1002 تونس

الهاتف 71 785 179 (+216) الفاكس 71 848 664 (+216)

e-mail: sud.edition@planet.tn

ISBN 978-9973-844-63-7

صورة الغلاف : خزينة دار الجنوب للنشر - المصور ع. ع. فريخة

«أنا الطرقي..» (*)

أو

منطق العناصر «الكونية»

خارج عن الصف بلا ريب هذا الكاتب، شارد منفرداً وفذاً بلا مرأ فائق. من نوابغنا الذين، وهم عندنا اليوم نُدّر، قد شرّعوا في القصّ شوارع بكرا. إذا أنشؤوا فعلى غير مثال قائم - مهما علا - ما بسوى أنفسهم يتشبهون. هي في التأليف موردتهم أولاً ومصدرهم آخر. وإن استلهموا غيرهم من الأعلام شيئاً - وحبذا ذلك الذي يستلهمون - فالخلق في الأدب من أين يؤتى. سرّ الصنع في ذات المصنوع. فيقتدون ويُبارون بما يضاها، يبدعون بدورهم ولا يعيدون. لا يقلّدون مذهب أحد، هم الذين في مذهبهم يقلّدون. ذوو اقتدار ولهم بأس، أصحاب إقدام واقتحام، مُغامرون غزاة؛ رَوّادُ كشفٍ طلائع، ولهم في الفن فتوحات بهم من بعدهم تُعرف، ولهم عند أهل الدّراية تحسب.

كذلك الكوني. وكذلك - من البدء - أمره في الجم الذي كتب، وجّله في فروع السرد وفائق.

(*) من أغنية تونسية مشهورة «أنا الطرقي وابن الطرقيّة قَطّاع الأجيال والصحراء لي».

فإن تقرأ ما قد سطر لنا منه في صحفه تُبهِتكَ ضروب فيها
من القصص العُجَاب، أحداثه بين حقيقة وسحر، عادي وخارق،
وأبطاله الكائنات سائرها الإنس والجن، والطير والدواب، والزهَر
والشجر، والماء والحجر، والريح والسراب. كلهم حيّ فيه عاقل قائل
فاعل. هي الخليقة بأسرها على ركحه تتحرك، تؤدّي أدوارها
وتحدّث أخبارها لغرض له فيها مرسوم.

فلنلقاه متاً والينا، أول ما نلقاه. يردّد علينا، ويمدّد، أصداء
شئ من موروثنا في هذا الفنّ شعبيّه وفصيحته. ما تحكي الجدّات
للأحفاد في السهر، وما يُحدّث به الرواة حلقات الهواة في رحاب
المدينة العتيقة، نهاراً، وفي أقبية مقاهيها ساعة السمر، وما
تُطالعنا به عيون نصوصنا من تصاريّف الخيال. فيه من كتاب ألف
ليلة وليلة شيّق من المدهشات ومن كتاب كليله ودمنة تعاليمه
الدفينة وراء شخوص البهائم والسباع. فإذا قفّار وأهوال، وسير
وأبطال، أشخاص من الإنسان وأطياف من الجان، وأشباح وأرواح،
وحَيوان ذو لسان، بل ونبات مُبين وجماد منطيق.

وإن يكن، على هذا الوجه، وثيق التّسبب بغرافتنا القديمة،
فإنّه جديد، فنّ من رَجَمها وليد، كمثلها عجيب، أُويزيد، ولا كمثلها
في الدّلالة، أعمق منها معنى. وأبعد، في الأرب، مرمى. فقد عدل
بها عن دورها المأثور إلى غايات له أخرى، نائية. فارقها في
الغرض، وعلا بها في التّظنر علوّاً، ونهَجَ فيها منهجاً، وحَمَلَ منها
رؤيا، فصيّرها للفكر لساناً يَقولها به ما لم يكن من دأبها أن تقول.
لا متعة حكي يُبتغى به لتسلية التّفوس، وإن راق وراع؛ لم يُجعل
ليستهويها بخُلب من ألوان المُحال. فإنّه، على فتنته، لكلام جدّ
المُرام، متّقل باطنه بالعظّات الجسام.

شكل محدث من أدب الحكمة. تخييلي ذهني، وتمثيلي تعليمي(*) إذا شُخص لقن، وإذا جسّد جرّد معنى له هادفاً مسدّداً. قريب القول بعيد الغور، يثني في العبارة بالإشارة، فيزواج ويمازج بين الحسن والفكر، والصورة والرمز. يقابلنا بوجهين، وبلسانين يكلمنا. في حديثه أحاديث، ولدلالته دلالات.

يبادرنا، في كلّ مرّة، بظواهر متنا تعده، وينتهي بنا إلى خاطر له فينا يفجأنا ويزعج، بذان يصفه من المشهود يقصد، أبداً، قصيّا من تأملات العقل قاسياً. والظاهر الداني بيئته. يقصّها علينا أوفى قصّ، لا يترك منها شيئاً، لا المعاش ولا الشعائر ولا الأساطير، كأنّما رائده أن يعرفها إلينا ويحبّب، ويحبّبها إلينا فيقرئنا فيها أمثالاً مروّعة يضربها لمصير الإنسان. في أقصى مفهوم له وأسمى، خالص الكيان من ملاسبات الظروف، عارياً إلا من لبّ لبّته من المعاني، ما هو به في الوجود ما هو. فبيننا نحن مع الأبطال في غمرة الأحداث يخوضونها إذ بنا في شامق مع مرّ من الحقائق يجلوها وعي لوعينا. وراء كلّ ذات مثل يلوح، وفي كلّ فعل فكر يبوح، وروح في كلّ حال بشجواها تتاجي، أو من العباد بشكوى.

صوت الراوي، بديل الكاتب في القصّ، حاضر بملء حسّه في النصّ، قلّما يغيب. ولا من وراء حجاب يخاطبنا إلا لماماً، يُعائش أبطالها - ويدخل - أتى كانوا ولو ضبّا أو ريحاً أو نخلاً أو صخراً. وينسلّ منهم أحياناً فيعلوهم، ومن فوق ينظر إليهم وفيهم، مهتمّ

(*) بالمعنى المذهبي لا المدرسي.

البال والتفس تُصدي وهم في أمرهم يخبطون. لا يعرف في
الوضعين حياداً. يباطنهم فيعاني عناءهم حتى كأنهم قطع قذات
من لحمه الحي، ترف على شاشة الخيال. لا صور من حبر تمتد
خطوطاً على بياض الصفحة: أو، وقد فارقهم، يعاني منهم فيتأفف
أو يتهكم. كم يفعل في سرده ويهتز! يروي الوقائع ويصف النفوس
بإمعان، وفي الخلال يبدي ما يعنّ بخلده، أو يختلج في مُهَجته،
فيفتي في أحوالهم برأي من فقهه، ويقضي بينهم بحكم، لهم
أو عليهم. فيلين ويشتد، أو يهزأ كالمستخف. يألم فيتأس، أو ينقم
فيتشفى، وقد يتهمه ليتعزى كتهمة الشيطان.

صوت عقل أعياء طول النظر في أهل الدنيا، وهم بين
«خروج» و«خروج» من جوف الأم إلى بطن الأرض، من رحم إلى
قبر، من مولد إلى موت، نزولاً في الوجود ورحيلاً عنه بلا عود، إلى
يوم يبعثون؛ وفي الأثناء ضائعون، يبحثون عن خلاص ولا يجدون إلا
سراباً، لا اليقين، أو يرضوا بالمنزلة، ويسلموا بالناموس.

صوت ضمير حائر، متبرّم بالأنام، ولا متفائل، يرثي
لحالهم، ويشهق كالضاحك. والسخر من شيم ذوي الفكر، دواؤهم
من علّة التسأل. يدروون به عن نفوسهم وطأة الهموم إذا اشتدت،
لكي لا يقعوا في اليأس.

إن حدث الكوني عن قومه حدث عن نفسه، ف«هم» «أنا»،
و«أنا» «هم»، والكل «أنت» أيها القارئ. ألسنت من آدم ؟ وهل
قصتهم وقصته إلا قصتك تُروى لك برمز ملقوف في خيال: وتُروى
«لنا»، فإنما «أنت» «نحن» معشر البشر. حيثما كنا في الأرض،
وتحت كلّ سماء.

قصص رهيب مقاده في أكسيته من العجيب. يغرينا بخلبه من الأجواء، وبما في الأحشاء يشجي التنفس ألوانا. لا يحكي لنا، أو قليلاً، إلا أوجاعاً وفواجع، ولا موجع فيه ولا فاجع إلاننا. إيانا يصور في ما دهانا كلما زغنا عن الرشد، أو نقضنا عهداً كان علينا لزاما، فانتهكنا سنن الكون أو استهتا بأحكامه. يؤسنا الأشقى أول همه، وغرضه الأقصى منجاتنا والسلامة.

طموح إذن هذا الأدب. أصيل، نعم، حميم، مشبع بألوان المكان وأهله، طبيعة ومناخا، وعادات ومعتقدات، وأوسع أفقاً من حدود القوم والإقليم؛ لا محلي هو ولا فلكلوري. طرقي التسب، لبيي البلد، عربي اللسان مبينه. وفي عمقه إنساني، وفي أبعد أبعاده، كلقب صاحبه، كوني. يضرب بجذوره في أعماق تربته، والرأس شامخة في الذرى، يُعالي آدابا في الدنيا وآدابا. يُحاورها في البشر ما شأنهم، ما مآتاهم وما المآل، وما الحال بينهما، وما الحكمة. قضايا أمهات خاضت فيها، ويخوض، وقالت فيها أقوالا، ويقول. دعت إليها فأجاب، جواب الند للند، يبادلها فيها الفكر بالفكر، والفن بالفن، كأحق - وأجدى - ما يكون التبادل بين ثقافات الشعوب وآدابها. ولا أدل على ذلك من كثرة الشواهد التي صدر بها أكثر نصوصه القصار، من دين وعلم، وفلسفة وأدب؛ قديماً وحديثاً، وشرقاً وغرباً.

ذاك في أدب الكاتب المذهب، وتلك شحنته من الفكر والأشجان، ولا غاية إلا الإنسان كل الإنسان.

ومن أي باب دخلنا إلى هذا الأدب، إن قصّة قصيرة أو رواية مطوّلة، لا نجد إلا الصحراء ولا شيئاً عداها. فهي مادته الأولى ومناط الفكرة، المهاد وأفق الرؤيا. مسرح أحداثه ومنها

أشخاصه ومعانيه من أساطيرها. عالمه الواحد الأوحد. ولم يزل
يجوس بنا فيها طولا وعرضا، وسفلا وعلا، حتى أغوتنا، فهمتا بها
هياما وتبهنا، بعد الذي همنا فيها وسعنا.

ولم يقصر الكاتب عليها همّه إلا ليعكف فيها على ذاته. فهو
أصيلها وهي مرآته تجلّي له صورته بألوانها، فيتأمل سماته، ثم
يفوص تحت الألوان على معدن الإنسان فيها، فينا.

ف للصحرَاء في أرضنا وسعها من المدى، وفي ثقافتنا آيات،
مهد الشمر، ومهبط الوحي، مبعث الإسلام وحضارته الكبرى التي
بها تخلّقنا على مرّ القرون.

فإنها نجزة لا يتجرأ من جسم البلاد، ولها من نارها ونورها
في تكوين الأهل سيماء؛ وجوه سمر، وعيون تحنّ إلى الضياء،
وسخاء في الطبع، وفي الخيال رؤى كخطف البروق، وأكباد حرّى،
وفي العشق بكاء أو دماء. ملاحم تروى، وقصائد تنشد، ومواويل
تغنى. ركض خيل وغزو وغارات، وحسان وقتية وغرام، الجازية
وفرسانها، من بعد عبلة وعنترها. وليلى ومجنونها، وبثينة وجميلها
و... و... وعروج على الديار، في أشعار الهوى، وذكرى حبيب
ومنزل، وبكاء؛ من بعده «نسيب» وتشبيب، من بعده «رحيل» ومطية،
ووحش وطراد، وصوت صليحة في الأجواء يردّد على المسمع، بيّعته
الحنون «ياسايقين البلىّ قولو لحواء»، إرث لا ينقطع له ذكر في
البال، ولا في النفس وقع.

أقبلت على صحراء الكوني بكل معارفي عن الصحراء، من
نصوص وصور وتجريب، وقد كان لي في بعض شواطئها أيام

الشباب مغامرة، فألقيتها كالتي أفدت من الكتب، وشاهدت على الشاشات، وخبرت عن كتب... وغيرها أخرى، عهيدة جديدة، قريبة بعيدة، تلعب في الذهن، فاتقة، بشتى ألوانها من الإلف و الخلف.

المعالم هي هي، بحر شاسع من الزّمال أمواجه الكتابان، تتور إذا عصفت الرياح فتمور وتدور كألسنة الجان؛ تطمو على وجهه من حين لحين جزر خضر من الواحات كأنها الجتات، فإذا مرفأً رحيم كأنه التميم بعد عذاب النار؛ ومهاد أديمه الحصى كمحنة لصراط، وجبال عاريات صهباء، لا تجري من تحتها أنهار، أودية ولا معين. إلا سيل إذا هطلت الأمطار، ينصب من كلّ حذب عارماً هادراً جارفاً.

هي هي قسوة ولين. شمس وظلّ، حرّ وقرّ، جذب وحصب، عطش يميّت وماء يحيي، سراب وشراب، إلا الأسماء، فأميّهرو وقدرات، ولا دَحُول ولا حَوْمَل، وتاسيلي ولا جبل النريان، وأزجير وآير ولا عالج ولا نعمان، وتنبكتو أغاديس وكانو، ولا أم القرى، ولا الطائف ولا أُنْثَايَة القَرْج (*)

وهو هو الحيوان، جمل وضب. وحيّة وغزلان، إلا أن عصم الجبال من الظباء أودود / وذان، رمز الجدّة الأولى أمغار؛ والحمام حمام. وأقدم الطير سخرك إبيرضن بشير الفردوس.

وهو هو النبات سدر وطلح وأثل ورتم، ولا «سمرة الحي»، والنخل بحل والتمر تمر، وأسحر الزهر ترفاس يفوح بريح الجفان.

(*) ومنها امرجي الشاعر.

والبيوت حيام، والقوم رحل من القبائل أهجار وإيفوغاس وأعمار،
ولا ربيعة ولا مضر، ولا هلال ولا سليم ولا رياح. وأخنوخن للتنادي
ولا يا أخا العرب؛ والفتى بوخا وبأخي وأكنا، ولا قيس ولا عدي ولا تيم؛
والبكر فازيدرت أو تيتيري، ولا زينب ولا هند، ولا الرباب ولا دعد.

ما نحن، مع الكوني، في بادية من بوادي الجزيرة أو الشام،
بالمشرق، بصحراء المقرب الكبرى في جوف قارتنا الإفريقية.
فضاء يصل ويفصل بين شواطئها، شمالا، على البحر، وأدغالها،
جنوبا، تحت خط الاستواء، برّ السمران وبرّ السودان.

هي التي يصوّر الكاتب، ويعيد، في هذه النصوص التي
اخرنا من إنتاجه، عينات تُقرّ بفته الخلاق. أرض النار. كذلك
يراهنا، ويُريها، مصهر حضارات على مرّ الزمان. فيها تمازجت
أقوام، بربر وعرب وزنج، بالحرب وبالسلم، ورحلات العلم
أو التجارة، ملحا بتبر، وأمتعة بعبيد (لشديد الأسف)؛ وتداخلت
أديان إسلام ومجوس وأصنام، ففقيه وكاهن، ودرويش وساحر،
وحكيم وعزّاف؛ وصلوات خمس للرحمان تُقام، وشطّح من وجد
وجذب، ورقص على وتر وصنج من طقوس الأوثان؛ وآية الكرسي
وتمايم ويس وتعاويد وبخور وتعزيم؛ وزعيم وإغليد وتامنوكلات؛
واللسان بين تمايق وضادنا والهواسا.

وطن الطوارق زرق العباءة، سود العمائم، سود اللثام. لا
يُرى منهم، على المهاري، إلا عيون تشعّ تحت أشجار لأحفان.
خلاف البربر الأوائل، والتيفناغ لغتهم، ولها موسيقاها في الأذن،
ومن المعاني دخر، حكماً وأمثالاً. ثقافة في عمر الصحراء، وعمر
الصحراء طويل طويل.

وكم فيها من أساطير، ومن خيوطها جميعاً نسج لكاتب
أسطورة كبرى حبلى بالمعاني، تحكي عابراً أضاع السبيل، ومن
حواله علامات من «سلطان الضياء» قنير فتدل، ومن «سلطان
الظلمات» مغريات تستهوي فتضل، وبين ذاك وهذا يسير بحلو
آمن أو يقدم تزل، فإذا الصحراء كناية عن الدنيا، و«الأزرق» رمز
للإنسان، واحداً على اختلاف الألوان.

ولهذه الأسطورة أول تنطلق منه، وإليه تعود بالذكر في
النصوص مرارا. نواته الأصل.

في البدء كانت «واو». وهي، كحرفها في التحو، للوصل،
تعطف الإنسان على الإنسان، فتصافي بينهما وتؤاخي. وكانت
رياضاً خصبا ومروجا، وأنهارا تحري، وثمارا وأزهارا. اسم آخر
للفردوس يُضم إلى معجمه في الأديان. وأهلها أخيار أبرار، أبرياء
من كل شر، لا يعرفون إثما - ولا تبرا - يمثلون لتعاليم «أنهي»
كتابهم، رُبرت فيه الوصايا، كأنه اللوح المحفوظ، وحل بهم قوم من
الأغراب، فاستطابوا المقام، واستأذنوا في البقاء، فجاوروهم
وصاهروهم على عهد بينهم ألا يقتلوا نفسا، أو يصيدوا أنثى من
الوذان حبى، أو يحتطبوا من شجر لا يزال أخضر. وسرعان ما دب
بينهم الشقاق. من أجل امرأة قتل رجل من الأغراب رجلاً من
الأصلاء - كما قتل قابيل قايين - أخاً يفتك بأخ؟ فانقرط الشمر
ورال النعيم. طارت «واو» إلى غيب المجهول وبقيت ذكراها في المهج
كالحلم، ورفعت الأتهار إلى السماء، فهي الأمطار إذ برلت،
وانقلب الأرض صحراء، وانسحب الأصلاء إلى الخفاء، فهم
الجن، سدنة الناموس، وضاع «أنهي» إلا بُدأ منه كالألغاز مرسومة
على جدران الكهوف. أو منقوشة على صخر ميثوث، وكتب على

الأغراب الشقاء، رحيلاً في الخلاء، وحنيناً أبداً إلى الأصل
المفقود، وهم الإنس.

من هذه الأسطورة الأمّ تثبثق سائر هذه الأقاصيص: في كنّ
نصرٍ منها صورة وفي كلّ صورة منها معنى. إن هي إلا فروع
ترتدّ إلى جذعها، وإن يكن من ثمارها بعض الحلو، فجلبها
حامض، أو مرّ. وكلّها لا محالة درّ من المعّي الإبداع.

وهذا ذوق منها عسى أن أغري بها، كما أغريت، نفوساً لم
تعرف شيئاً من طعمها.

جبل علا كالصّرح، مرقى إلى السماء. وانكشف جوف في
سفحه عن مطمور من القدم لوح من الحجر فيه حروف،
وجمجمة بالية، وقلة على فمها ختم، التواهي والحثم، وشرّ في
السّرّ كامن متربّص. وحذر من القلة العراف، وافتكّها لثام
فكثروها، فإذا تبرّيق كالجنّ خطّاف، فعملت الفؤوس في
الصخر القائم، طمعاً في المزيد، حتى جعلته حضيضاً.

ذهب الطّود، وبقي الذهب يصول، وبقيت المعاول، وهي
اليوم علينا، في المراق، قنابل، تهدّد الحذب والصّوب، إذ أسودّ
الأصفر اللّماع نغطاً، كالزّفت، يسيل.

شيطان المال حبسه الأوائل - عن حكمة - في قمقم ودفنوه
في قاع، وأُفرج عنه فعات. فقد تعلم في هذا العصر واستشري،
يدحو في طريقه كلّ ناتئ. ليوطئ أرضنا لنظامه، ويخضع أهلنا
لأحكامه، أنعاماً تأكل عشباً ولا ترفع رأساً. هيهات.

وقامت في الصحراء شجرة، بين أفتانها عشّ، فيه أفراخ،
وعليه من الحمام أمّ. والخلاء آمن. والهواء طلق. وهل أنس من

حمام ؟ مثل «الألفة والألاف»؛ نجى المشتاق في وحشته رسول
 العشاق إذا بانوا؛ وفي الدنيا رمز السلام. ولاذ بالجذع إثنان من
 الإنس. وفي يد كل منهما سلاح، ولم يكونا من الصيادين، فاطمأنت
 الأم، وراقبتهما في فضول. وبعد حين، عن بعد في المكان، دوى،
 كالقول، مدفع، فتزعزعت الأرجاء، وانتفضت الحمامة ترفرف في
 الهواء هالعة، ثم عادت تحمي صغارها. وصرخ الغول ثانية فقرب
 لدمار. زلزلت الأرض، وثار القبار، وتقسع، فإذا قد مات من
 الاثنين إنسان. ودمدم ثالثة، فانفجرت الأرض من أعماقها،
 واهتزت الشجرة من أصولها، وطار ثاني الإنسان وهوى الحمام،
 وفي برزخ ما لاقاها ولافته. برزخ الفناء.

أبىد البشر والطير والشجر، وفي الجوريج بارود بعد
 الصفاء ولا في المكان إلا جثث، شهداء.

ما أوجزها قصة، وما أبلغها، تدين، ولا تهويل ولا شعارات،
 نار الإيطالي يوم غزا الصحراء وأهل الكوني - إخواننا -، ونار
 لحروب، وكلها عمياء؛ بل ونار الصياد من أبنائها إذا عدا.

شيخ برع في الصيد مذ كان فتى. بيد واحدة، والأخرى قد
 ذهب، وتحته المهري يمدو، يصيب فريسته وهي تطير كالسهم.
 رصد قطعياً وسدد السلاح. فراعته جمال الغزال؛ وديع، لطيف
 الجسم، أبيض، والعين حاملة، وما عيئاً شُبّهت به الجسان، من خير
 ما خلق، ويقتله ؟ ولكن بالخيمة أطفال جياع ولا بد من طعام. أطلق
 النار فلم يخطئ الرمية؛ وفرّ الغزال جريحاً، فاقتفى أثره أياماً
 فلقبه طريحاً ولا يزال حيّاً. ذبحه وعلقه في السرج وهم بالرحوع،
 ولات حين رجوع.

شطاً في المدى، ولم تبق في القرية إلا قطرات، وأبى أن يقتل
«الأشقر» ركضاً يطوي المسافات طياً. وهو أليفه، رباه صغيراً
وعاشره سنين. وثق الماء فأشقاء العطش. ولع بذهته خاطر، أن
يطعن بحر المهري ويتجرع من دمه. ومذ صاحبه عنقه، طيعاً
مستسلماً، لينقذه، ومتع الشيخ ضميره أو استعجله الإغماء، فسقط
منه السكين، وخرّ على الأرض ساكناً. وعاد الجمل إلى المضرب،
فهرّ، ولم يتوقّف، أمام الأبناء، والفرزال يتدلى، ولا على لسرح
إنسان.

أعتبر بوفاء الجمل، أم نأسى لمصير الرجل. وأعيث ما في
أمره أنه قتل من البرية نفساً وما أطعم جياحه.

فصا ص الصحراء من أبنائها إذا أذنبوا، ولا ترحم.

وفجع من قصة الشيخ. وأروع، قصة الفتى في «الفخ»، فخ
على الحقيقة والمجاز، نصبه للوذان بصيده، فانقلب عليه يُصيبه.
كان يتيم الأب، وربته الأم، ولقنته حكم الصحراء، وأن الجن
إخوته. وماتت عنه. فسها عن وصاياها، وفي النعيم، و لعام
خصب. ارتضى فلها. دن في العشب فتاً من أعواد الرثم، فإذا
الفريسة، ولا يعلم، أمه. وكانت من «الخس» بين جنّ وإنس. فرّت،
وهي تدمي، بالآلة، فرأها، لويله، معلقة في الجبل بحبل الشرك بين
صخرتين، فوق هاوية، وكواسر الطير تنقر بطنها، ومنه صغير قد
تدلى قتل أنثى حاملاً. ولم يزل مارداً من أهل الخفاء يوحه في
الليل ضرباً قاسياً، حتى احتفى بجمجمة أمه، تميمة تقيه.
وحامله هانف من الجنّ، أخ له من أمه، فجلى له الجريمة وأدانه.
وتواطأت عليه من ذلك الحين عناصر الصحراء تطارده. جرهه

السيل، وأخذ منه الرّتم التميمة، فدفع بقوة خفية إلى الجبل، وضميره بعد الضرب يعذّبه بأشدّ من آلام الجسم، آلام الروح، وما أشقاها. غصة في الحلق كالخنجر المرشوق يخفق أنفاسه، وتسلق السمح كمن يطلب الهواء، فتعثر وهوى. فاتحلت عمامته، وشئت في صخر بطرف. وبطرف حول عنقه التقت، فتدلّى في الفراغ كأمة الودان.

أقصصة يذكّر بعضها بأسطورة أوديب. إلا أنه قتل أمّه لا أباه. وما فقا عينه، من بعد، فقد عمي من قبل. وعاقبه الناموس على فظيئته شتقاً. هي الجريمة والعقاب. ويلوح في أفق القصّة طيف «راسكلنيكوف» في أشدّ عذابه الروحيّ. ودستويفسكي من أحبّ الكتاب إلى الكوني.

والقصّة من أروع ما كتب الكاتب.

ولا يحبّ من كابر.

كالحجر، رأى في نفسه من الصّلاية ما قد أوهمه بالبقاء، فأل إلى الفناء. سلط عليه سلطان الظلام العناصر، البرد بعد الشمس، والريح بعد الماء. فانتثر هباء.

وكالضّب، وكالودان، وكانا من سادة القوم وغرهما العُجب، فارتكب كلاهما ما تحرّمه التعاليم، ذاك دنس بجسمه الماء. وهذا تعالى يطاول السماء. فأنزل بهما ربّ العُلَى عقاباً، ردهما صغر من حجمهما، مسخاً في صورتَي ضبّ وودان. حرم الأول من الماء، وكتب عليه الخلود، وهو العذاب الأثقي: ونفى الثاني في الجبل بعيداً. وحس لكلّ منهما، إذا عاد فقوي، صيادا مفترسا. فلم يزل الضبّ يقف على حجرة جحره، يصلّي ويسترحم، والودان في الذرى يعتبر ويكمر.

كل قوة إلى الضعف ترجع ؟ هل يتعظ جبار من فراغة هـ
لعصر عتا. فعدا ؟

وهاجر الجمل. يرتع حرًا في الصحراء، خفيف الظهر،
مرفوع لرأس. وعذبه العطش فشكا. وسمعه الماكر الأمرد فقايسه
أن يهبه الصبر على الماء، ويحمل الإنسان، فاستخمت الأحق
العبء. والإنسان «قرين الشيطان». فأدعى فمه بحديد اللجام،
ومشفره بالخطام. وبنار الميسم وركه، وحمله من الأثقال ما ناءت
به عظامه. فتشفع إلى السماء وطلب الإعفاء من حمل هذا الذي
هو في الأرض «أثقل أوزارها».

ومن الإنسان من هو أبطش من الضواري. لا سيما إذا كان
له سلطان، ومن الأمركان، وكنت له كهذا الجمل تبرئ، فيركبك
الذهر، بسرج وخطام.

أجل. لا يحب الكوني المكارم، ولا يحب أيضاً الخانع في
السهل قابعا، لا يشجع فيرتفع. لا كالرتم على حرف الوادي يعجبه.
رأى أن يعلو في الجبل، فسعى في صبر حتى تسلق السفح ووقف، ولم
يرم القمة كمن يتحدى. فانتصب فيه طلاً يفيء إليه السفراء كأنه
صالح في زاويته يؤمّه المتحرم.

علو لا يجاوز حده. والآ صار ضروراً وعتوا. فكان كالرتم.
وحسبك.

ويثنى على من يفارق «القطيع» فرداً حرًا. ولكن، مع
الحرية، أخطار. ومع كل اختيار مغامرة ورهان، فربح وحسران.
يالك من السراب، ففيه هلاك. واحذر السيل، وإن كان خصبا،
فإنه أحيانا خلب كالسراب فاتن.

انقطع السَّيل دهرًا، فجفت الأرض جفًا، وماتت النفوس عطشا. وبكر لم تعرف في عمرها إلاَّ الجذب، وحدثها عنه الجدة وأنَّه لا يعطي خيره إلاَّ أخذ به قريباتًا. فتبتلت تأبى الزَّواح، ونذرت نفسها للسَّيل، فدى. إلى أن طمى الوادي بفيضه. فنزلت فيه. وخففت من ثيابها، تبغي التحاما به كالوصال. فهبَّ لها منه لسان، فالتَّمَّ بخصرها، وعزَّى جسمها. وكالبعل المفتكم أو كالنارد اندفع بها حيث لا يدري أحد.

قديمًا، في أساطير اليونان، هرب بالاحسناء «أروبا» ثور شبق، «دزوز» الزَّناء، ربَّ أربابهم. ففضى منها وطرا، ثمَّ خلاها على شاطئ البحر تتحب.

وهذا سيل كالنَّور مهتاج - أو كالجان - يروح بعذراء بتول.. فإلى أين ؟ إلى سديم الفناء، ضحيَّة تُبكي ؟ أم إلى «واو» المنى، حورية تُنبت. مأتى تحكي القصَّة أم حفلة عرس ؟

أهي مثل العشق الصَّوفي، زهد ووجد، وروح طاهرة كالبر، تذهب لتفنى في ذات الحق ؟ أم صورة أخرى من البطل المأسوي لم ير في الدنيا إلاَّ زيفا، وداراً لا تصلح للمقام، فخاطر بالنفس في مفامرة قصوى، لعلَّه يصيب في ملكوت المطلق «ماء» يرتوي به، بعد الخوى، كيانه ؟

كتب الكوني، وعلى القارئ أن يتأوَّل ما شاء من المعاني.

وكم من شائق إلى «واو»، في هذه القصص ! وكم من ضائع يبحث عنها ! ولا أحد يعرف ما السبيل، لا زعيم القبيلة ولا شيخ الدر أويش، ولا حتى وانتهيط «صاحب الحمامة» إذا جاء. كلَّ يرشد

إلى طريق، ولم يبلغها بالغ لا بعقل ولا بشطح، ولا يخدر من ثمرة
الزّتم، ولا بسحر. مرّ هي في الغيب أبداً، ورامها ذاك البائس، في
«وطن الرؤيا» وابته معه، فأسلمه الأفق للأفق، وأغراء السّراب،
إلى إغواء الترفاس، وقد سبقت إليه الحيّة، فذاق التعيس في
الزهرة سمّها، وذاق ابنه، فبقيا في الخلاء جثّة على جثّة، ولا
فردوس.

وما «واو» ؟ حقيقة أم خيال ؟ كثر فيها بين الناس الأخذ
والردة، فتارة شكّ وتارة يقين. يكذب بها «قصير سمين»، ويصدق
«طويل نحيل»، مبطر ومعدم ؟ شيعان وجوعان ؟ غربيّ وشرقيّ ؟
أما في «صحراء» الدنيا إلا الشقاء والرحيل ؟ أما من هناء ؟
أما من سكينه ؟ بلى، في «إخبار الكائنات» دليل.

ماء على سفح يشقّ الصخر إلى السّهل، يحيي موتاً، ويمدّ
من وجهه للسماء مرآة تتراءى فيه بالنيّرات، الشمس والقمر
وعنقود الثّريا، وعلى الماء رجل اعتزل القوم وعلا إليه ممتكفاً،
ينصت إلى «الأسرار»، ويرصد «الإشارات». ووضع في المجرى
حجراً، فصلّ الحجر يفتي، ولا يبالي أن يأخذ منه الزلال. تجاوزت
الأرض والسماء، فإذا الدنيا سناء. واثتلف الحجر والماء، فإذا مع
التور شدو.

فكن كالماء يروي من عطش، صافياً يردّد الضياء، أو كن
كالماء، وإن دبت، معزفاً يصدي في الأرجاء: أو كالمنفرد في عل
يتأمل اللاء، وتلهم فكره فيحسن بيده عملاً، فتشده الكائنات،
على اللاء، لحن الوجود.

حكمة لمن يفكر.

كدا عناصر الكون - والكوني - إذا نطقت للعاقل.

و... و... وأدب كاتبنا يقرأ، ولا يعاد فيحكى إلا تشويقا.

فأقبل عليه بكلّ عقلك وتدبّر ما يقول فيه ويردّد. وإن لم يقنعك بعض فكره، وأنت حرّ، فافتح بالذي ترضى منه ويرضيك، واعرض له بملء حسّك تجد نفسك كالطريقيّ في الصحراء، فتزّ كيف يتولّد الأفق من الأفق، و«يتماذى الامتداد في الامتداد»، وكيف يغامر القمر محدّرا. والسرابُ مخادعا، و«خروج» الزّتم، في موسمه، ومولد الترفاس؛ وعود الشجر كيف تعذّبه النار، إذ اتّقدت، فيذرف دما، وينزف دما، وتسمع كيف يثنّ الرمل تحت سياط الشمس، وفي ضياء القمر كيف يهزّه الغناء؛ وتضرع النخلة تحنّ إلى النّجاح، ومواويل القبلي، يهدم ويبني، يحيي ويفني. وكيف تشويك الرمضاء، ويبلّلك الندى، متى هبّ عليك من البحري هبوب.

آيات كلّها من فنّ القول هذه الأقاصيص، مهندسة الشكل، لعوب، تغدو بك في الزمان وتؤوب، تؤجل الأحداث أو تستمجل فتؤخر أو تقدّم. وتعلّق، وتشوّق، وتسوّف، وتفاجئ. مقطّعة المشاهد، موقّعة. قصص كالقصائد. ونثر. وإن «برّي»، كالشعر قوّة في الإيحاء، وأسلوب ناصع كأجواء الصحراء، حرّ حميم كشمسها. ساطير فيها صمّ من معاني الفكر صميم.

قال الطيب صالح، في «موسمه»، متحدّثا عن صحرائه «أرض لا تنبت إلاّ الأنبياء... والشعراء». وأنبتت اليوم كتاباً من

خيرة المبدعين، هو في سوداته، و«الكوني» في ليبيا، وفي تونسنا
المسعدى فقيمتنا، وإن كان من أهل القرى في الشمال، ألهمته،
وحسبنا أبا هريرة وقصته. فإن ثلاثهم لمن ألمع وجوه أدبنا
لحديث. وما عرضاً ذكرناهم معاً، فبينهم من وجوه الشبه في ما
كتبوا ما لا يخفى عن نظر الفاحص.

فدونك الآن النصوص يا قارئ.

توفيق بكار

فانسان - باريس

24 ربيع الأول 1427

22 أبريل 2006 إدريا

الجبد

- 1 -

بدأت الرحلة في القماط. تسلى بالسمااء فرأى الأنواء.
رقعة ظلماء موشاة بعيون لامعة، تومئ ولا تتوقف عن مشاكسته
بوميضها الغمض. يغيب في زحمة العيون كل ليلة. ولم يكف
عن أسفاره حتى بلغ «آشيت أهض»⁽¹⁾ دخل بيتاً لم يعد منه
أبداً. لاحقته الأم. أغوته بحيل الساحرات. استبدلت في يده
صرّة الشّيح. أخذت الصرّة القديمة وأحرقتها في موقد النار.
أعدت صرّة جديدة وثبتتها في معصمه الأيمن. ذهبت إلى
السّاحر وجاءت له بتميمة جديدة. نحررت فوق رأسه ديكاً
أبيض اللون. لوثنه بدم الديك، وأعدت له من المخّ حساء.
اشتريت من العرّافين العابرين مدينة نحاسية جديدة. غرستها فوق
رأسه بجوار الركيزة. ولكن الوليد الذي سار وراء «آشيت

(1) «آشيت أهض» الثريا.

آهضاً ليلاً، ومضى بعيداً في ساحة الوطن المجهول، لم يعد إلى
 نور، نهراً. ظلّ يرضم ويتيسم ويتدع اللغة التي يخضب بها
 كوكبة الصبايا طوال الليالي. ولا تنطفئ له عين حتى يفلق القوس
 المكر قوس الأفق. يعود إلى الصحراء متعباً فلا يستحيب
 مداعبات الأم، يستسلم لحلم مبهم، فترقص على شفثيه ابتسامة
 مجهولة يرتجف لها قلب الأم.

- 2 -

في الأسفار اليلبية اكتشف الجبل. رآه يتمرد على
 الحضيض، يتسلق الفضاء. يشق طريقاً في زحمة
 العيون المشاكسة، ولا يتوقف حتى تلامس شعفته كوكبة
 الصبيد. فلا يعرف هل يلتئم الشمل، ويحدث اللقاء، بفضل
 عند الجبل، أم أن الحسان تنازل وتهرع للقاءه في منتصف
 المسافة.

في حضيض المهد لم يكتف. بمتابعة الصبايا. ولكن الجبل
 هداه إلى بروج أخرى. يزحف نحوه ما إن يكتمل نزول النعمة،
 يتعلق بالسفح. يتشبث بالحجارة القاسية، ويبدأ الصعود. يصعد،
 ويصعد، ويصعد. في الشعفة المكابرة يجد «طامت»⁽¹⁾ في
 تنظّره. يجلس فوق ظهرها فتنتقل إلى أعلى، تقطع المسافة

(1) طامت : الناقة.

فتغيب الواحة. تقطع مسافة أخرى فتختفي شعفة الجبل. تقطع مسافات أخرى فيدخل زحام الصبايا. هناك ينسى، ينسى. فلا يعود يذكر شيئاً كلما عاد ووجد نفسه يهجع في المهدي، مقيداً بأربطة القماط.

- 3 -

تمرد على القيد كما تمرد الجبل على الحضيض. زحف على ركبتيه وبديه وسعى في العراء نهاراً. زغردت الأم فوق رأسه، صرحت في أذنه اليمنى باسمه حتى لا يستغفله أهل الخفاء، فينسوه بحبيهم ومكائدهم اسمه. هرعته إلى جارتها واستعارت من زريتها ديكاً ناصع اللون. نحرته في طريقه ولوثته بدمه. جرت لسان المدية على بدنه، وقالت إنها نحرته جثاً كريهاً أراد أن يكيد له قبل أن تبدأ المسيرة. قرأت في وجهه ثنائيم الأولين وهي تحذره من هول السبيل، وغدر الخلائ، ودهاء الرمان، وفساد الحق. رفعته في الفراغ وقالت أخيراً «إياك أن تنسى اسمك». أعادته إلى الأرض وبكت. عادت إلى الخباء وسعى هو في العراء.

افترقا منذ ذلك اليوم.

4

تدفق الزمان فقاده السبيل إلى الجبل لتصير له القمة المكابرة بيتاً. في الحضيض وجد حجراً مدياً صقيلاً فحمه في

رحلة النيل إلى جنة الصبايا. هناك عرف أن الأسلاف أيضاً عرفوا
الضم إلى الخلود، وأرادوا أن يُيقوا أثراً يبرهن للأخلاف أنهم
عاشوا يوماً مثلهم، وغتوا المواويل مثلهم، وعشقوا الصبايا
مثلهم. وتذذوا بجموع الكواكب مثلهم. لم يحد لأسلاف
رسولاً أكثر صبراً أو وفاءً من الحجر فصقلوه بأيديهم وشوه
وصيتهم، وتركوا عليه علامة فجيعتهم.

تفقد الحجر فوجد عليه رموزاً خفية. حمله إلى العراف
فانكفأ عليه طويلاً. لم يقل شيئاً عندما أعاده إليه، ولكته لى ينسى
كيف يتسم له. كانت ابتسامة غامضة مثل الرموز المخطوطة على
الحجر، حزينة حزن الحجر نفسه.

أخفى الحجر في جحر، ومضى يفتش السفح، ويكتشف
بجاهل الجبل.

- 5 -

وجد لوحاً حجرياً مستطيلاً مدفوناً في كهف بحاور
الشعفة العليا. لم يكن معتم اللون كبقية الحجارة في الجبل. كان
شاحباً، صفه التداول، وشذب الاستعمال منه الحواف. أزال
عنه الأتربة فكشف جوفه قبيلة من الخلق رجال يحفون
وحوهم بأقنعة. على رؤوسهم تتصب القرون. يحمنون في
أيديهم الحراب. يطاردون أشباحاً نصفها الأعلى محوقات
بشرية، ونصفها السفلي حيوانات حقيقية. لاحظ أن لرحل

رُسِموا سائل له لون الدَّم، في حين أضيف اللون الأبيض إلى
الأشباح، فرُسِم النصف العلوي باللون القاني، ورُسِم النصف
لِسَهْلِي سِياض شاحب. حمه إلى العَرَّاف فتأمله طويلاً. نُعت
عيناه. تَتم «هذا كنز» قبل أن يعيد له اللّوح. حمل كنزه وذهب
إلى الجبل. حفر في السفح هوة، وأخفى فيها الكنز.

- 6 -

دهمه الزمان بوديانه الخفية، وجرفه كما يجرف السيل
ورقشاً بلسانه الشَّره. قطع مسافة أخرى في أرض الجبل، وعثر
على كنوز أخرى. عثر على جمجمة، وعين ماء، وقلة من فخار.
الجمجمة كمنته بلغة لم يفهمها، والعين ومضت ببريق مجهول ما إن
تبدت تحت الشمس، فجرت نحو الحضيض، وهي تحاور في
طريقها الحجارة. ولكن قلة الفخار جلبت على الواحة البلبال،
وأبعدت ممكة السماء عن أرض الصحراء، وأطفأت وهج الصبايا،
وسافرت بشعفة الجبل إلى أسافل الحضيض.

وجدتها في الجناح الغربي، مضمورة تحت ركام من رمال،
مختومة بحبس معنم، نُبتت على عنقها عروتان. حداثها
مكسورة حتى متصفها.

هرع بها إلى العَرَّاف.

في ذلك اليوم رأى قلقاً في عين العَرَّاف لأول مرة.
قرّ التمانم المجهولة بصوت مسموع، ورشق مدية شرسة

بجور القلّة، ودحرج اللقية بحذر من يشاكس حيّة. ثم
 رفع إليه عيناً غاضبة. وقال «اذهب إلى أبعد مكان،
 واحفر لها في الأرض أعماق هاوية، وادفنها في سفن
 الأسافل، واحترس أن يراك مخلوق. ففيها يتخفى مارد
 خفيف، إذا خرج من القمقم أفسد في الأرض، ولن يقدر
 سلطان على الأرض أن يعيده إلى معقله مرّة أخرى». خرج
 من خباء العرّاف وسار في العراء. ولكنّ الأقران أدركوه
 وأحاطوا به. قالوا له «أرنا الماعون الذي يسمينك ا». قال
 «في هذا الماعون يرقد شر كبير فابتعدوا» قالوا
 «رأيناك تدخل بيت العرّاف فتخرج من هناك بالعطية.
 قاسمنا العطية. وإلا اضطررنا أن نأخذ نصيبنا بالقوّة».

تراجع إلى الوراء خطوات. حذرهم مرّة أخيرة «نظروا.
 هنا يتخفى المارد، هنا ينام الجن. ألا تخافون الجن؟ العرّاف
 قال إنه سيفسد في الأرض إذا خرج من القمقم،
 فابتعدوا». ولكنّ الأشقياء هجموا عليه. انتزعوا القلّة الخفية،
 وكسروها بحجر. تدفق منها مسحوق لعوب. ومض تحت
 الشمس، ورفع في الفضاء قامة عجيبة. راح يتمدّد حتّى اخترق
 الفراغ وحجب بقامته قرص الشمس، أطلق قهقهة كريمة
 فتزلزلت الأرض، وتمخض الجبل فزعاً، وانهارت الحجارة نحو
 الحضيض ركض الشبع عبر الواحة فهرع الأهالي إلى مكان،
 تكاكؤوا حول المسحوق الأصفر، تنازعوا حبيبات التراب.
 تقاتموا بوحشية في سبيل الفوز بذرة من الرّمّل اللعوب،

- 7 -

نحروا الأنعام عند حضيض الجبل. ثم صعدوا السفح
وبدأوا حملة استمرت طويلاً. أزالوا الحجارة، نبشوا التراب
لبكر سحقوا الحمجمة التي كلمته يوماً بلغة لم يفهمها، زحفوا
إلى أعين، أتلّفوا اللوح المرسوم بقبيلة القدماء. أزالوا الكنز القديم
بحثاً عن الكنز الكذوب. أضاعوا الأثر الأول في سبيل الهباء.
أتلّفوا الحجر الذي أخفاه في الجحر أيضاً، فأضاعوا لوصية.
ماتت عين الماء، وعاد السلسيل إلى نبعه. ناحت الصبايا في
السما، وأشحن خجلاً. ابتعدت السماء مسافة أخرى عن
الصحراء، وسافرت قامة الجبل الجليل أشباراً أخرى نحو
الحضيض. أضاع الحجر، وفقد الصبايا، ونسي اسمه فوجد
نفسه وحيداً، وحيداً، وحيداً.

دس رأسه في التراب، وبكى

- 8 -

سار به الزمان في مجاهل أخرى، فوجد نفسه يرتحل برفقة
انقرافل. يحمل بضائع نفيسة إلى ممالك الأدغال، ليحصل من
قناش الأشباح على المسحوق الأصفر كما يفعل كل التجار.

سافر كثيراً. وكذس من التبر أحمالاً كثيرة، فنسى كوكبة الصاي،
وأنوصيا، والشعفة المكابرة، نسي الواحة كنها كما نسي يوماً
اسمه.

- 9 -

عد إلى الواحة بعد غياب طويل، فوجد أن الجبل قد
قمته المكابرة، وتحول رابية حقيرة، عارية من الحجارة، ومن
بهائها القديم. ذهب في زيارة إلى العراف. تحدثا عن الجذب،
والأوبئة، وغدر الزمان، وفساد الخلق. انتهى حديث الناموس.
فسأل الكاهن عن البلاء الذي حلّ بالجبل. قال العراف «الخلق
لم يهلكوا الجبل برغم أنهم دنسوه وحرثوه بحثاً عن كنزهم
اللعين. ولكن الجبل الذي تغير وبدأ يصير إلى زوال ليس جبل
الواحة، ولكنه جبل آخر حملته أنت». حدّق فيه بعين فارغة
يسوده البياض. أضاف «هيهات أن تجد الجبل، هيهات..
أوما للعراف أن يوضح، ولكن الكاهن راقب الفراغ بغينيه
الفارغتين.

- 10 -

عاد في مرة أخرى إلى الواحة فاكتشف أن الرابية تضاءلت
واستحالت إلى أكمة تكاد تتلاشى وتستوي بالأرض، ذهب إلى
العراف، تحدثا عن الحياة بلغة الناموس أولاً لم يطق صراً فسأل

بو حبل «أين الجبل؟ الجبل، يا مولاي، اختفى!». بتسم
 العراف بحزن. قال بقساوة تليق بمصاحبة البسمة الحزينة «أنت
 أيضاً ستختفي!». تتم «الحق يا مولاي، أنني لم أفهم». قال
 العراف «لم تفهم لأنك ابتعدت كثيراً. ضيعت الحجر فأصعبت
 الوصية، تركتهم يعثون باللوح ففقدت الكنز. سرت وراءهم،
 وبحثت عن كنزهم فسييت اسمك. ويوم نسيت اسمك هرب
 منك لجبل. والآن، فات الأوان لأنني أراك تقترب من الحضيض
 الذي خرجت منه كما اقترب جبلك من الحضيض». تطع إلى
 الأكمة المغمورة بفيض الغسق فبدت بقامة أقصر. تضاءلت
 أشباراً أخرى أمام عينيه.

- 11 -

وقف في مواجهة الأكمة. انحنى، تناول حفنة من ترابها،
 أطبق عليه بقبضته اليمنى، ثم ملأ به الكف اليسرى، أطبق عليه
 أيضاً. شدد قبضته. ألقى به في الفراغ. تشتت الحبيبات التي
 كانت تلاحم في قطعة مرنة، ناعمة، وصارت هباء بذه النسيم
 وأعادته، في ذرات خفية إلى أصله، إلى تراب الأرض. تعق بذرة
 ظلت تحوم في الفضاء. دارت حول نفسها مرة، مرتين، ثلاث
 مرات، حاولت أن تصعد إلى أعلى. استماتت. عاندت، ولكنها
 توقفت وبدأت تهوي أيضاً. جاهد أيضاً. حاول أن يستعيد
 السيرة الأولى، ويصير قامة الجبل، ويكتشف الحجر وللوح،
 والجمجمة، والعين، و.. كوكبة الصبايا. و الاسم، الاسم.

لاسم. ولكنه لم يستطع أن يصعد إلى أعلى، فهوى إلى الأرض،
كما هوت درة التراب.

في سماء تلك الليلة تنقلت الأنواء في منارلها
لمع نجم. انطفأ نجم. هوى نجم. ولكن كوكبة الصباي لم
تظهر أبداً.

تون (سويسرا) : 1993

الحوار بمنطقة العناصر الكونية

بدأت الخصومة عندما اكتشف الحجر في نفسه ميولاً
للكساحة. طاف الحصراء مبشراً الكائنات
لم أجد في الصحراء عنصراً أقدر على البقاء مني. فارهبوا
وصاياكم في قبي إذا أردتم أن تلغوها للأجيال. إربروا أسراركم
في صدري، فليس في الصحراء غيره يحفظ الأسرار لم أجد في
طريقي عنصراً يفوقني قوة ولا خلوداً. سمعه القبلي⁽¹⁾ فنقل النداء
لزمان. غضب العجوز وصاح بالحجر
- بلغني أنك تتناول وتدعي لك صيباً في الأبدية. اعلم أنها
حكر علي وحدي. فأنا من لم يبدأ ولن ينتهي. خلق ولم يخلق،
وُلد ولم يولد. فعَل ولم يفعل، يصير ولا يصير. يتحدى ولا
يتحداه شيء. حالد وكل ما سواي إلى فناء يسير

نازعه الحجر
حتى أنا؟

(1) القبلي الريح الموسمية الجنوبية في الصحراء الكبرى.

قال الزمان بثبات يميّز الخالدين

- بما في ذلك أنت !

أحد الحجر العجب، واستغرب في أمر الحجر، فقلد باستكبار
- عجباً سمعت. لم أجد في الصحراء عنصراً واحداً يفوقني
كساحة أو صلابة.

- إياك والغرور ! فهناك الماء !

- الماء ؟

- إياك والغرور فهناك النار

زدت دهشة الحجر وتضاعفت مباهاته واعتزازه بنفسه.
فخاطب الحكيم قائلاً :

- لم أشك يوماً في حكمتك، ولكن ما تقوله اليوم يثير عجبني يا
صديقي الزمان فهل تظن أن الماء السلسيل، السّس، المائع،
يمكن أن يفوقني قوة ؟

قال الخصم بثقة الحكماء

- أجل. الانسياب والهدوء والميوعة التي تعتبرها فيه ضعفاً هي
من أسباب قوّته.

- عجب !

- أما أن فلا أعجب إلا للغرور يدعي الكساحة في حضرة لزمان.

تجاهل الحجر التحذير وقفز لأمر النار

- والنار ؟ أعرّف أن لها لساناً شرهاً كلسان الحية، ولكنه ليس
بالسلاح الذي يصلح للقضاء على صلابة الحجر.

- بل يفتته إلى هباء كنفیضه الماء.

لم يتمالك الحجر المكابر نفسه فقهقه عالياً حتى رددت
الصحراء الصدى. ثم قال
- وماذا لديك أيضاً يصلح لفنائى ؟

فقال الزمان بيقين المعمرين القدماء
- لذي شعاع الشمس أيضاً.
- الشمس ؟

عاد يفقهه بطريقته الاستمرازية الكريهة، ثم أوضح
- إنها تسطع فوق رأسي منذ زمن تعجز ذاكرتي الضعيفة عن
حفظه دون أن تؤثر في قواي.
- "ثرت في قواك العقلية. ألم تعترف منذ قليل بضعف الذاكرة ؟"
- ها - ها - ها... بل هذا دليل على خنودي. الخالد هو من يينغ
عمرأ لا يستطيع فيه أن يتذكر يوم مولده.

قاطع الحكيم

- وأخيراً هناك غول كل العاصر في الصحراء. الغول لذي
لولاه لما أصبحت الصحراء صحراء الريح !
- الريح ؟

- رسولي الجنوبي، المسمى القبلي. له مواهب خاصة. يسير
بتدويري ومساعدتي وتسحيري، فلا يغلبه غالب. فهل تباهر
بالخصومة وتقبل التحدي ؟

بعد أن انتهى الحجر الجبلي من قهقهته الكريهة أغنى
أقبل. ولم لا أقبل ولم أر في الصحراء عصراً أصلب مني ولا أكسح ؟
كما لا أستطيع أن أقيم وزناً للعناصر الخفية دون أن أتهم بالخبث.

بدأ زمان التحولات بوحدة القياس الفلكي.

بدأ الزمان حربه بالماء فلحس السائل السري، مانع،
خشونة الحجر المكابر، وشذب فيه التتوعات والأسنان والمخالب،
حتى حرّده من الأسلحة والأعضاء، فأصبح أملس بمساعدة من
الزمان وحده. ثم زلزلت الصحراء زلزالها وتفحّرت الجوف
بالركان، تحوّل المكابر في البداية إلى قطعة تصلي في النار الموقدة
ثم انتقلت إلى درجة أخرى وتحوّلت إلى فحم بالبرودة. تحلّل
الحجر في الداخل ولكنه احتفظ بالتماسك الخارجي. هنا جاء
دور لشمس فسلبت عليه شعاعاً أبدياً مستعاراً من الجحيم. ظلّ
يتنوى ويتشكى ولكنّ العذاب استمر

في المرحلة الرابعة: الأخيرة، جاء دور القيلي. هبّ من الجنوب
لبعيد، وظلّ يعصف ليل نهار لأمد لا يقاس إلا بالوحدة النفسية.
وداوم، طوال الغزو، على صفع وجه الحجر بحبيبات رمية قاسية
حتى تفتّت وانهار. ذابت الصلابة. تحطّمت الكساحة. تحلّل الكبير
وتحوّل إلى باطل في قبض الريح. هنا خاطب الزمان الهباء
- فنت لك إنّ صلابة الرأس ليس دليلاً على الشجاعة، فما رأي
المكابر؟

قلت عناصر الحجر التي غابت في ذرات الغبار صائغة في
المتاهة العدمية

آمنت أنّ العنصر كلّما خفي وصغر كلّما كان أقوى وأقدر

الدار البيضاء

1991/3/2

إخبار اللائحات

1- جسد

النصبة لها قدّ مارد. تتلحف بدثار أسود، تضبّ إلى صدره
جسماً منقوشاً في قميّطٍ شاحب. انحنّت وهي تلحّ حُبّ، وتمرد
لصدر وئمّادى. جرّدت الجسم الخفي من حجابها الشاحب.
بدى رغيّف الملة. كان معتماً، موسوماً برمور غامضة خطتها عليه
شظايا الحمر، ولكنّه كان غصّاً، وديعاً، مثل طفل رضيع. وضعت
الرغيّف على قطعة محبوكة من سعف التخل. تأملت البدن المدور.
استنشقت أريجاً طازجاً شهياً. داعبته بأصابعها وابتسمت
بغموض العذارى. سطع وجهها ببريق خفي.

أقبت العجور. مقوسة، نحيلة، صارمة، تحمل عكازاً شذبه
الاستعمار وصفله الزمان. ألقت نظرة على الرغيّف. لقت نصبة
بأمر صارم. تردّدت النصبة. غاب عن وجهها البريق. التفتت إلى
المدخل المفتوح على عراء أبدي يتمدّد ويتمدّد حتى يتنعه الأفق.

تأبعت الامتداد. رافقت المسافة في رحلة الأبد. تحسّست حدّ
 المرعيف ليكر دون أن تتخلّى عن ملاحقة الأفق. أعادت العجوز
 الأمر بهجة أكثر صرامة. انتفضت الصبيّة، توقّفت عن ملاحقة
 السراب في الأفق، تناولت السكّين. لمع النصل تحت شعاع القنبولة
 يوميض عامض. تحسّست اللسان الشره بسبّابتها. ثم.. جرة النصل
 على الجسد الوديع. غاب النصل في طراوة الجسد. انشقّ الجسد
 الغض إلى شطرين. غزا وجه الصبيّة شحوب. غاب منه الوهج،
 وفقد بهاء الصبايا. من العين فزّت دمعة. ولكن شهقة فاجعة، لم
 تسمعها العجوز، نذت عن الصبيّة.

2- منافسة

قامات الأشجار في حضيض الجبل، ماردة. يمتدّ الجبل إلى
 أعى فتلاحقه الأشجار، وتتقدّم لتسلّق امتداد السّفح بقامات قلّ
 طولاً تتضاءل قامات الشجر كلّما اقتربت المسيرة من القمة. فوق
 القمة تحدث مفاجأة، تتوقّف قامات الأشجار عن الامتداد إلى أعلى.
 تنكسر بغتة. تنحني بانكسار. تدلى رؤوساً حزينة إلى الهاوية. هل
 لأنها تطمع في أن تبلغ الجبال طولاً، أم بسبب عياب المنافسة؟

3- لغة

الماء يتدفق من الينابيع في قمم «تاسيلي». ينساب عبر
 قنوات محفورة في سفوح الصلّد. في حيد الجبل شمالاً استقرّ عار

عميق. يتحایل السلسيل فيطوّق الغار من جهات ثلاث. تتساقط المياه في القاة وتكفّ عن برطمتها الحقيّة.

في العار أقام شيخ نحيل كأنّه شبح من أشباح الجن. بل إن الرعة وأهل تاسيلي دعوه بـ«آلهين»⁽¹⁾ منذ زمن بعيد. ولكن المعتزل الغامض لم يكن يهجر جُحره الذي يشه ححور الضباب إلا لكي يتفقد جدول السلسيل. يركع فوق المجرى ويتأمل ألق الماء. إذا سلّطت عليه الشمس سياط أشعتها ردّ عى الإساءة بالألق، وإذا حلّ الليل وسكب البدر فوقه فيض ضيئه ردّ عى الدعية بالألق. وإذا لفّته الظلمة بلحافها الكثيب وجد السيل أيضا كي يجيب بالألق.

ولكن المعتزل الغامض لم يكتفِ بلغة الألق فبحث عن تدبير يستنطق به الماء. جاء بثلاث قطع من الحجارة. وضع الحجارة في ممر الجدول. تمّدد بالجوار. أسدل لثامه على وجهه. تصنّت كيف نطق الماء بسرّ الينابيع.

4- الحجارة

برطمت المياه. حاورت حجراً ظلّه الرعاة أخرس. حنّت ظلمة. سافر القمر بعيداً. عاد القمر من أسفاره كثيراً، تخاطبت الأنواء بإشارات الضياء. بذل الإثل شعر رأسه مرّات كثيرة.

(1) آلهين الجن.

احتفى لبدن السحيل من الغار القديم. ولكن السلسبيل لم يتوقف
عن المسير لم يتوقف عن مخاطبة الحجارة ببرطمة المجهول.
تصاءت أبدان الحجارة. ولكنها لم تكف عن محاورة الشع. لأر
الحجارة هي الكائنات الوحيدة التي لا تملك إلا أن تنكته إذا
حالت الماء، برغم أنها تفقد جسدها، وتتلاشى، إذ تكلمت
كثيراً.

5- اختباء

اختباء قرص الشمس وراء شجرة الإثل مناورة

اختباء قرص الشمس وراء الجبل منفى

جبال بلاترز (قبرص)

أغسطس 1992 م

نذر البتول

«لييا تصحّرت. القبط اختلس المدى

فناجت الحوريات بشعور مهدّكة يبكي النايح والبحيرات».

أوليفيدوس

«التحولّات»

المجلد الثاني

«الماء يتمنّد ويتكاثف مدفوعاً بالآثار ليكون الأرض. يندفع
ويحرقها ليصنع الهواء على هذه الشاكلة فإنّ الأرض مرفوعة
بالهواء. والهواء مرفوع بدورة النار. كلّ الكائنات الحية خلقتها
الأرض بالحرارة التي يفتتها الطمي بنفس الأسلوب الذي يغذي به
الحليب الجسم. بهذا الأسلوب أيضاً خلقت الأرض الناس».

أرخيلايوس

أوردها ديوجين لاوّرثسي في

«حياة وتعاليم وحكم مشاهير الفلاسفة»

- 1 -

- غر.. غر.. غر.. رق.. رق.. رق..

أصتت مرةً أخرى. انحنيت كي تبين الصوت الخفي ثم
عادت تحاول تقليد لغة الماء
- لق.. لق.. لق.. لق.. لق.. لق..

سعدت بالاكشاف. راقت لها النعمة الأخيرة فرددتها
طويلاً وهي ننحني فوق النهر المتدفق في قنوات صغيرة تتسلسل
بين انصخور، تلتوى حول الشجيرات البرية الشاحبة عبر الوادي
الكبير.

هبت نسمة شمالية باردة، مشبعة بالماء.

الشتاء.

السماء عارية في الحمادة. وبرغم الصفاء فإن الشمس لم
تحرق على العجرفة والاستبداد. الرحمة التي نزلت على الجبال

أقصى الشمال، غلبت الشعاعات النارية وخفقت من قسوة
 الحرّ وصل لسان السيل إلى مراعي القبيلة مع الأصيل فتنادى
 الرعاة وتجمهر الناس وانتشروا على طول الوادي يتمتعون
 بمشاهدة المعجزة. خلت البيوت وزحفت إلى النهر حتى
 العجائر. تعرّى الأطفال وزحفوا على أيديهم وبطونهم محاولين
 السباحة في الماء الضحل. الأحجار والأشواك أصابت لكثيرين
 بجرح فهرعت الأمهات وانتزعنهم من الماء. حذرت العجائز
 - ياكم وأن تطمننوا إلى السيل. فوق لسانه جن وفي ذيله دائماً
 غدر.

ولكنّ الجيل المحروم الذي لم يشهد في حياته سيلاً، وسمع
 عنه فقط في حرافات العجائز، انشغل من الدهشة.

«تازيديرت» تنتمي إلى هذا الجبل.

استيقظت مبكراً وهشت أغمامها عبر المنحدرات نحو
 الوادي عندما رأت المعجزة. الماء يرتفع بضعة أشبار على أرض
 عذبةا، الجفاف والشمس ولم تذق طعم الماء عشرات السنين
 و.. يجري. أكثر ما أثار دهشتها أن السائل النفيس، العجيب،
 من الوفرة بحيث تجتمع في مكان ما وجرى.. تدفق.. انساب بين
 الصحور، حول الشجيرات اليابسة، فوق الأرض العطشى.

سبحان الله !

توقفت كالمشلولة. نسيت نفسها. عجزت عن الطوق.
 سرحت في الجهول. لم يتجمع السحاب، ولم تسقط قطرة مطر

واحدة، فأين يمكن أن يتجمع كل هذا القدر من الماء بحيث
يستطيع أن يتدفق في الوادي العطشان ؟ الوادي أشبه لدي
رأت كيف يتبع قرية ماء كاملة في رمشة عين.

حدثها أخبرتها في الخرافات أن الأمطار تسقط على
المرتفعات في حبل اخساونة، أو جبل نفوسة، في أقصى
الشمال، ثم تحدر عبر الشعب وتصب في الأودية. تتجمع
هناك ثم تبدأ مسيرتها نحو السهول في الجنوب. ولكنها لم
تصدق يوماً هذه الخرافات. ثم تصدق أن السماء يمكن أن تجود
بهذا القدر انوفير من الماء الذي يستطيع أن يقطع كل هذه
المسافات في الحمادة دون أن تستولي عليه الأرض البائسة
وتمتصه في منتصف الطريق.

ها هي ترى الخرافة بعينها. المعجزة.

ما زال قلبها يخفق بشدة عندما اقتربت من حافة الوادي
وتأملت السائل النشط وهو يجرف البعر والقش، يغمر
الأحجار، ويلتف حول الشحيرات البرية في شقاوة.

سمعت ثرثرة الماء لأول مرة.

لم تصدق أيضاً.

اقتربت خطوات. ترددت. ترنحت. مدت يدها.
لامست السائل. انتفضت. استولى عليها شعور غامض ولكنه
لذيذ. عادت ودست يدها في الماء. بارد، رحيم، حنون، حفي.

اسحنت فوق النهر وأنصت للغة المجهولة. أنصت طويلاً.
استمر قلبها يرتجف. رفعت رأسها. رأت القبيلة تزحف نحو
الوادي وتنتشر عبر السفح. أدركت أن الماء حقيقي. عادت
تحي فوق النهر وتنصت للضجيج الغامض.

ثم بدأت تحاول تقليد الصوت

- غر.. غر.. غر.. رق.. رق.. رق.. لق.. لق.. لق..

- 2 -

يُروى أن المجاعة أهلك نصف القبيلة في تلك
لسنوات.

نجى القليلون الذين تشبّثوا بحياة بائسة في الواحات. أبوها
تركها عند جذتها والتحق بالقبيلة في الحمادة عندما تحلف
الجفاف في الصحراء مع العدو في الشمال. كسر الطليان المقاومة
في السواحل وبدأوا يغزون الجبل مهدداً للتوغّل في الجنوب. شارك
الأب قبيلته مأساتها ومات أيضاً بالجوع قبل أن يتمكن الطليان من
الوصول إلى الحمادة. أمها تنتمي إلى قبائل «إيفوغاس»، تخلّت
عنها أيضاً قبل أن تبلغ التسعة أشهر ومات بوباء مجهول.

لم يطل بهم المقام في الواحة. اقتحم الطليان الصحراء
الجبلية، ودارت المعارك في رملة «زلاف». تكثّد المجاهدون
خسائر قاسية أجبرتهم على التراجع جنوباً والاحتماء بالصحراء
الرملية، فوجد الغزاة طريقاً مفتوحاً للدخول إلى الواحات.

انتشر الخبز الفاجع قبل وصولهم إلى الواحة بأيام، وتساق
البرودة قصص التنكيل، فعمّت البليّة، ورحل الرّحل وتركوا
لواحة لفلاحين.

نشئت القبائل. هاجرت عشائر إلى آير وبلاد السود،
ورحلت عائلات أخرى إلى تونس والجزائر وعمبكتو، ونقيت
بقايا الشتت تتقل في الحمادة التي تعاني من استبداد الشمس
وقساوة الجفاف الطويل.

التحقت مع جدّتها ببقايا القبيلة التي فضلت البقاء في
الحمادة العارية. لم يشمل العراء الوحشي الحمادة النائية،
ولكنّها تذكر جيّداً تلك السماء القاسية، العارية من السحب. لم
تحتجب الشمس المستبّدة بسحابة واحدة طوال تلك السنوات،
فاستمرّ الجفاف والمجاعة، وعاشت «تازيديرت» مع جيل كامل،
محرومة من المطر ورؤية السحب.

لم تر الماء يجري. لم تشاهد السيل.

شاهدته فقط بعيني جدّتها. تجلس بجوارها حول موقد
النار الحبيّة في مدخل الخباء عندما تفرغ العجوز من ترديد
التعاويذ، تنشبّ بطرف لحافها الأسود وترجوها أن تحمّتها عن
السيون. ولم تكن العجوز تستجيب لتوسّلاتها في كلّ مرّة. بن
كثيراً ما تتملّص وتحتلق المبررات لتتخلّص، ولم تسر
«تازيديرت» وهي طفلة ما تسببه هذه القصص للعجوز من ألم.

مرّة رأتها تقوم بحركة مفاجئة بعد سردها لإحدى قصص
السيل رشّت الموقد بالماء وأطفأت النار. احتضنت عمود الحيمة

ودست رأسها بلحافها وبكت طويلاً. وفي مرة أخرى بهارت في أثناء السرد واستولت عليها نوبة طويلة من السحيب. ثم أصبح تبكي في أثناء السرد. لم تعد تحاول أن تخفي دموعها كما كدت تفعل في الماضي. فتروي الأساطير المثيرة عن سيول عظيمة شهدتها الصحراء في الرمان القديم فظلت السماء تمطر والأرض تسيل بالماء شهوراً كاملة، وفي هذه الأثناء تسيب الدموع بهدوء على وجنتيها البارزتين الشاحبتين دون أن تمد يدها لمسحها. وأكثر ما أثار تازيديرت في قصص لعجوز أن السيل لابد أن يجرف رجلاً أو امرأة أو طفلاً في طريقه عندما يأتي. لم يدهشها أن ينزل خسائر بالحيوانات التي تتخذ من الوادي دائماً مأوى، ولكن لماذا عليه أن ينزع البشر أيضاً إلى جانب الحيوان؟ حيرها اللغز، فسألت الجدة عن هذا النسوك.

قالت العجوز

- لأن لأشقياء في هذا الزمان يبخلون بالقرايين ولا يفون بالتدور. يظنون أنهم يستطيعون أن يخدعوا السماء. فيضطّر السيل أن يأخذ منهم حقه بالقوة.

سألت تازيديرت

- ألا تكفيه أرواح المعيز والإبل؟ أليست الحيوانات قريين أيضاً؟

أجبت الجدة بكلام عاش في ذاكرة الحفيذة إلى الأبد الحيوانات قرايين صغيرة لم تخلق للسيل. السيل صعب. لسيل لا يقنع إلا بدم الإنسان. لو كان السيل

سهلاً لما عاب عشرات السنين وحرمتنا من الحياة نصف
عمرنا

أما «تازيديرت» فقد حرمتها السيل من العمر كله.

- 3 -

لا تذكر من حياة الواحة سوى عدوين الرمضاء
ولعجاج.

تذهب إلى أحراش النخيل لتأتي بالبرسيم إلى الماعز. في
تنت الأثناء تكون الشمس قد ارتفعت وأشعلت النار في الرمة
فتعترض طريقها الرمضاء عندما تعود حاملة الرزمة الخضراء فوق
رأسها. كثيراً ما اضطرت إلى الزحف على بطنها كالأفعى وحمل
البرسيم يسحق رأسها. وفي مرة لحست بطن قدميها بسانها
لتطفى الذهب، وفي مرات أخرى تدحرجت كالكرة وهي تجرّ
كتلة البرسيم بحل. لم تجد شكواها جذتها من قسوة الرمضاء.
العجور تتمم بالتمائم وتجيئها بأن الصبر في الحياة أقوى من
تعاويد السحرة. وقالت لها «ليس عبأ سموك تازيديرت⁽¹⁾».
وبدل أن تتسلح بأقوى تعويذة في الحياة وتقدم الدليل على
استحقاقها لاسم «تازيديرت» ذهبت إلى الحقل وعادت بربطة
برسيم كبيرة فرشت بها الطريق وحمتها من لهيب الرمل.

(1) تازيديرت : الصبر (بلغة الطوارق).

اصطُرَّتْ الجُدَّةُ أَنْ تَرْجُو أَحَدَ الْفَلَاحِينَ كَيْ يَصْنَعَ لَهَا نَعْلًا مِنْ
السَّعْفِ.

وَلَكِنْ نَعَلَ السَّعْفُ أَيْضًا لَمْ يَنْفَعْ. كَانَ سَيِّئَ الصَّنْعِ. تَاكَلَتْ
عَقْدَةُ الْقِطْعَةِ الْيَمْنَى فَتَحَلَّلَ الْعِلْ كُلُّهُ مِنْذَ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ.
فَاسْتَعْمَلَتْ النُّعْلَ الْأَيْسَرَ لِلْقَدَمَيْنِ بِالتَّنَاوُبِ حَتَّى تَلْفَ أَيْضًا بَعْدَ
يَوْمَيْنِ.

كَتَشَفَتْ أَنَّ الرَّمْضَاءَ فِي الْوَاخَةِ قِضَاءٌ مَكْتُوبٌ فَاحْتَمَتْ
مِنْهُ بِتَعْوِيدَةِ الْجُدَّةِ الصَّبْرَ ! أَمَّا الْعِجَاجُ فَحَطَّمْ رَأْسَهَا بِالصَّدَاعِ
وَنَوْبَاتِ الْعَثِيَانِ.

الْوَاخَةُ تَقَعُ فِي نَقْطَةِ التَّمَاسِ بَيْنَ الصَّحْرَاوَيْنِ: الشَّمَالِيَّةِ
الطَّنِينِيَّةِ وَالْجَنْبُوبِيَّةِ الرَّمْلِيَّةِ. تَرْتَفِعُ سَحْبُ الْعِجَاجِ الْكَثِيفِ كَمَا
هَبَّتْ رِيَّاحُ الْقِبْلِيِّ، حَتَّى تَحْبُحَ قُرْصُ الشَّمْسِ وَتَحْوِلَ النَّهَارَ إِلَى
ظُلُمَاتٍ. تَذَكَّرُ أَنَّ الْعَاصِفَةَ خَيَّمَتْ فِي إِحْدَى الْغَزَوَاتِ عَدَّةَ أَيَّامٍ
مُتَتَالِيَةٍ فَسَجَنَتْ النَّاسَ فِي بَيُوتِهِمْ وَأَطَاحَتْ بِالْأَكْوَاخِ وَأَشْجَارِ
النَّخِيلِ وَظَمَرَتْ الزَّرْعَ وَعَيُونَ الْمَاءِ.

تَدُكُ الْعَاصِفَةُ جَاءَتْ بَنَوْبَاتِ الصَّدَاعِ وَالْعَثِيَانِ.

ثُمَّ هَاجَرُوا إِلَى الْحَمَادَةِ.

فِي صَحْرَاءِ الشَّمَالِ اخْتَلَفَ الطَّقْسُ وَطَبِيعَةُ الْأَرْضِ. حَفَّ
لَهُبُ الْأَرْضِ وَهَدَأَتْ الْعَوَاصِفُ الْمُحْمَلَّةُ بِالْغُبَارِ. وَلَكِنْ قُرْصُ
الشَّمْسِ لَمْ يَطْفِئْ فَسَلَّطَ عَلَيْهَا وَحْشًا آخَرَ أَشْرَسَ وَأَبْشَعَ.

في الشهور الأولى لم تتعرض طويلاً لويل الشمس. كلّفها
الخدة بجلب الخطب وساعدتها الشمس نفسها في إنحار
مهمتها. أحرقت النبات وحولت كل شجرة خضراء إلى حطب
ياب. ولكن استمرار الاستقرار في الأودية وإسراف القبيلة في
استعمال الحطب اضطرّها إلى الابتعاد عن المضارب وحلب
الحطب من الأودية السفلية البعيدة. انفردت بها الشمس
وعطشت مرّات، ولكنّها لم تفقد الوعي إلى الحدّ الذي يجعلها
تضيّع الطريق إلى النجع.

هذا حدث بعد أن سلموا لها الجديان وكلّفتهما الجدة
بالرعي.

الجديان ! يا ربّي ما أشقى الجديان ! سمعت كثيراً من
الصبيا عن شقاوة هذه المخلوقات ولكنّها لم تتصوّر أن يفوقوا
لرمضاء قساوة، أن يفوقوا الشمس في التنكيل بالناس. في الأيام
الأولى رافقتها قريبتها «ثمينا» إلى المراتع الشحيحة في السهول
الغربيّة.

ثمينا صبيّة مرحة حيوية تكبرها بعامين قضت كلّ حياتها
في الحمادة، ذاقّت المجاعة وعانت من الشمس. تعلّمت الصبر
وكتست مناعة ضدّ شقاوة الجديان. تضفر لها أمّها شعر رأسها
في حداث رفيعة طويلة تشبكها إلى الخلف في كتنة مضحكة
كانّها تاج من شوك، ويروق لها أن تشدّ خصرها بحبل من
نيمف. وتتنقل في الأودية، تقفز فوق الصخور برشقة الجديان
و.. ونغي. تغني وترقص أحياناً أيضاً وتحلم باليوم الذي ستبلغ

فيه أنسب المناسب كي تنزوح الصبي المتكبر «أخنوخن» وهي دائماً حائرة في الاختيار لا تكف عن الاستفسار أي الصبيان أنسب لأن يكون عريساً. تختار اليوم أخنوخن لأنه متكبر ومتعجرف، ثم تنسى قرارها، أو تراجع عن إصرار، لتختار «أمود». في اليوم التالي لأنها لاحظت بالأمس أنه يفوق أخنوخن كبرياء، وعمامته أكبر من عمامة أخنوخن.

خلال هذه الأثناء لا تكف عن الرقص والغناء ومطاردة الجديان الشقية في الأودية والسهول والشلال وشقوق الجبال من دون أن يصيبها الإعياء أو تنفصد من جبينها قطرة عرق. أما هي ابنة الواحة أنتي لم تعلمها الحمادة كل هذه الحيل ولم تهبط الحياة نعويده الصبر السحرية إلا في الاسم، فإن التعب يكون قد هذها وبنت ثوبها بالعرق وحق حلقها من العطش وتخلفت عن رفيقتها مسافة طويلة.

وكانت مميما تلوح بعصاة السدر في الهواء وثمل في الورا وهي تضحك. وما إن ترى الشقاء على وجهها حتى تكف عن الضحك وتعزيها قائلة

- هذه هي الجديان. هل تظنين أن رعي الجديان أمر سهل ؟

كانت تستفزها بهذه العبارة دائماً.

ممت تازيديرت في إحدى الرحلات وسألت رفيقتها

- لماذا يسد لنا الكمار رعي الجديان إذا كانوا يعرفون أنها بهذه الشقاوة ؟

كانتا تستلقيان تحت شجرة سدر وحيدة في سهل عار
مكسو بأحجار شرسة سودتها أشعة الشمس. قالت تميم
الحكيمة وهي تعث بعود السدر المكسو بالشوك الأشيب
الكر يفعلون ذلك خصيصاً كي يتقموا لطفولتهم الشقية.
هم أيضاً عاوا من الجديان عندما كانوا صغاراً. ها.. ها.. ها..
- هذا ليس عدلاً على الشيوخ العقلاء أن يتولوا الجديان. رعي
الجديان يحتاج إلى التدبير. والتدبير في رؤوس لعقلاء،
الشيوخ.

- التدبير هو الذي أشار عليهم بهذه الحيلة. التدبير يقضي أن يتظاهروا
بأن رعي الإبل والماعز أصعب، ويولون الصغار رعي الجديان
المعونة. سيجيء اليوم الذي أسلمها فيه للذئاب. ها.. ها.. ها..
هذا ليس عدلاً العذر أن يعطونا الفرصة لنسرح بالأغنام
والإبل.

- ليس في الدنيا عدل. قست لك إن التدبير حيلة. أمي تقول إن
الحيلة حيلة.

- الكبير أجدر بتربية الصغار. هل يستطيع طفل أن يربي طفلاً؟
هل يرعى الطفل طفلاً؟

- قولي هذا الكلام لحذتك. ها.. ها.. ها..

ثم أحكمت شد الحبل حول خصرها، ورحفت على
ركبتها تلاحق ظل السدرة الهارب، وقالت

دعيا من الجديان. هيا نتحدث عن العرسان. هل احترت
عريساً؟

قالت تازيديرت يئأس وهي ما تزال تفكر في الحديان

- وما فائدة العرسان ؟

- وهل في الدنيا أجمل من العرسان ؟ ها.. ها.. ها..

- أغبياء ومغرورون ! السيل أجمل.

رقدت تيمما على بطنها. أسندت ذقنها بيدها ودست يدها

الأخرى في التراب. قالت

- ليس في رأسك غير المطر والسيل. والمرأة خلقت لتكون عروساً والرجل خلق ليكون عريساً. لا أعرف شيئاً آخر.

- وأنا لا أعرف شيئاً آخر. ما فائدة الرجل بدون سيل ؟ ما فائدة الأرض بدون مطر ؟ السيل وحده يستطيع أن يطفئ الشمس ويقضي على الوحوش الثلاثة.

- الوحوش الثلاثة ؟

- الرمضاء والعجاج والعطش.

- ها.. ها.. ها.. ليس في رأسك غير الرمضاء والعجاج. الواحة تضارئك حتى في الحمادة.

- طول عمري أحلم بالسيل. لم أرسيلاً في حياتي. حدثيني عن السيل.

- ليس قبل أن تحدثيني عن أعراس الواحة.

- حدثيني عن السيل أولاً أنا التي اقترحت قبلك. أستحلفك برأس أمك.. برأس أخنوخن.

- ها.. ها.. أنا نفسي لم أرسيلاً في الأحلام.

عم الصمت. أغارت ذبابة سمينة واستقرت على ساق

تيمما العريية. طردتها برجلها الأخرى وأنصتت للسكون. من

الوادي بيعث ثغاء بعيد. رفعت رأسها نحو تازيديرت، فرأت في عيسها كآبة وهي تتابع الخلاء المغمور بالسراب، ثم رأت كيف انبثقت من عينيها الدموع.

انتصف الصيف فمرضت «ثميما» بالحمل. خرجت «تازيديرت» للرعي وحيدة. لجأت لمراع الأودية العربية لأنها أقرب وحواشيها غنية بالأشجار البرية الظليلة. استبدت الشمس منذ الضحى ووعدت بيوم جهنم. هنأت تازيديرت نفسها على اختيار المرعى. ولكن الجديان الشياطين لم تركها نهناً بالظل. ما إن تستقر تحت السدر أو تدس رأسها بين أوراق الرثم وتنهأ لالتقاط نفس وقضم حبة تمر حتى تكتشف أن الأشقياء قد تدفقوا في الوادي وغابوا عن البصر. تعيد التمر إلى الجرب وتنطق خلفهم. لجأت عدة مرات إلى حيلة لثيمة تعلمتها من ثميما: تقطع الوادي المتشعب وتوجه إلى الشرق أو إلى الغرب فتختصر المسافة لتلتقي بالجديان في المنعطف، ولكن ثميما حذرتها من المبالغة في استعمال هذه الحيلة لأن الذئب كثيراً ما يستغل الفرصة ويقطع الطريق على الجديان قبل أن تبلغ الناحية الأخرى من الوادي.

دق قلب تازيديرت بمجرد أن تذكرت الذئاب وسرعة هذه الوحوش في الفتك بفريستها. لم تر ذئباً ولم تسمع حتى لعواء. ولكن أساطير القبيلة وأفواه العقلاء لا تنطق إلا ببطولات هذا لعدو وتصورت هذا الوحش اللثيم وهو ينفرد بقطيع الجديان لمسكية في غيبتها ويتنقل بأنيابه الخفيفة بين رقبتها كما يفعل في الخرافات.

كَفَتْ عَنْ قَطْعِ الْأَوْدِيَةِ وَفَضَّلَتْ الْمَطَارِدَةَ.

في كلّ مرّة تدرك فيها القطيع تجد جدياً واحداً يقود السباق ويجر حلفه بقية القطيع، جدي شقي لم يمر على ولادته شهر واحد، فطمته جارتهم غصباً وحرّمته ليس من حبيب الأم وحده ولكن من الأم نفسها. ربطتها إلى وتد في مدخل الحيمة وحرّمت على الجدي الاقتراب منها. قالت إنها تريد أن تنقذ بحليبها طفلها المعلول المصاب بفقدان الشهية. في الأيام الأولى لفصلهم لم يترك أحداً ينام في كلّ البيوت القريبة. كانت تسارع إلى شدّ الجدي إلى وتد مع بقية القطيع، فيرفع عقبرته بالثغاء والشكوى، فتستجيب لشكواه أمّه المحبوسة بجوار الحُبء. كان غاؤه كالصوت والصدى. يصيح الجدي فترد عليه الأم بصيحة في الناحية الأخرى. وكان بشغائه المسحاح يثير حقد الثيوس وخاصة المعيز فتنتطحه بقسوة لتجره على السكوت. وكثيراً ما استيقظت جذتها على ضجيج هذا القمع، وسمعتها تتمنّى بـ«لا حول الله» أو تسترسل في ترديد بعض التعاويد أو الآيات. أمّا محبها اللعينة فقد أعلنت عن رأيها في موقف المرأة القاسية فقالت لها في المرعى «سواء فرقت بين المعزاة وابنها أم لم تفرق فإنّ الولد سيموت. ها.. ها.. ها.. غضبت تزيديرت من هذا الكفر ولم تبادلها كلمة واحدة طوال ذلك اليوم. هذا الجدي هو قائد السباق. كلّما أدركته واعترضت طريقه يقف في وجهتها في تحدّ، ينظر إليها بعينين شرستين كأنهما عينا إسدان ثم يحسي رأسه ويحفّر الأرض بحافره الأمامي في حركات

عصبية متكررة كأنه ينوي مهاجمتها فيتذكر أنه مازال محرّداً من القروب فيصبح بصوت حاد رافعاً رأسه إلى السماء، ثم يثب حاداً ويطبق يتقافز فوق صخور الوادي كالغزال.. كالودّ ن.

في البداية كان سلوكه يضحكها. تضحك برغم التعب والغضب. ففي كلّ مرّة تدرك فيها القطيع وهي تجري وتتهت وتصب بالعرق، تكشف أن الجدي اللعين على رأس الحمرة. ولكن مع تكرار هذه النظرة الغاضبة الشرسة المجهولة، بدأت تحس بخوف غامض و قشعريرة كأنّ هذا الشقي ليس جدياً وإنما مخلوق يسكنه إنسان شرير. ليست نواياه العدوانية ورغته المبكرة في النطح سبب هذا الشعور ولكن تلك النظرة الوحشية الشيطانية الحفيّة.

عيناه لا تشبهان عيون الجديان الأخرى، تنظفان بشيء آخر لا يوحى بأنه مجرد غضب أو حقد.

ثم شعرت هي بالغضب والحقد. غضبت وحققت لأنها لم تستطع أن تتغذى بالتمر أو تشرب من ماء الزمزية أو تستلقي تحت الظل لالتقاط النفس. لعنت الجدي والشمس والوحات و نفسها. لعنت نفسها أيضاً لأنها لم تستطع مثل غيرها أن تسييس الجديان برغم مرور كلّ هذا العمر في الحمادة.

حاولت أن تكتم العيظ فانبثقت الدموع. تناولت حجراً وركضت خلف القطيع. اجتارت الرؤوس الخلفية وواصت أخرى در في الوادي وانحرف يمينا فالتزمت الجانب الأيسر وركضت عند الحافة. أخيراً أدركت الجدي المشوّم يتقافز في لهو، كأنه مسوس ولا يدع فرصة للبقية كي تهدأ وترتع. الجديان

لا تمتفت نكلاً أو لشجر مهما بلغ بها الجوع إذا ادس في
وسطها حدي مغامر. هذا الجدّي الشقي لا يهدأ حتى يسمها
إلى الذئاب. تقول الخرافات.

وقفت في مواجهته، مبتلّة بالعرق. حلقها جف. فمها
حفّ أيضاً. اقتربت خطوتين. حذرهما بعينه الوحشيتين. حنى
رأسه، ولكنّه لم يحرك حافره الأيمن. رفعت قبضتها في انهواء،
وضربته بالحجر على رأسه وهي تصرخ صرخة حق، ولكنّ
الجدّي الممسوس لم يتحرك، ولم يبد أن الضربة آلمته. رفع نحوها
عينين غاضبتين. التعبير المجهول ازداد فيهما وضوحاً وغموضاً.
هل هو وعيد؟

حسّت بقشعريرة مبهولة.. قشعريرة كنتك التي يثيرها
فحيح الحية.

تراجعت إلى الوراء، وانهارت تحت رثمة في عجز. ممّنت أن
تنفرد به الذئاب. أضافته إلى الشمس، العدو الأول، ولعنته في سرّها.
تناولت الزمزمة، وشربت في جشع. سال ماءً على
صدرها، فنذّرت السيول. سالت الدموع عنى وحتيها.

- 5 -

في ضفة الوادي المقابلة ترتفع ربوة مقوّسة مثل السام. مكبت
اشمس فوقها عرفاً من اللهب فتسكع وتراقص واندلق على السفح
فحرق الشجيرات وشقّ الأحجار فغرق الخلاء في السراب والنهب

القيلولة.

هجعت في ظلّ الرثمة، ولم تشعر كيف سرقتها السوم.
أعفت لحظات فقط، ولكنها رأت حلماً: جمهرة النساء
المنشحات بالسواد تجتمعن في الحلاء ومشين في العراء حتى
حجبهن لأفق. شعرت بالقلق فجاءتها تيمما صاحكة وأخبرتها
بهن ذهن تدفن الجدي الشقي. رفعت رأسها إلى أعلى كي
تحمته بشكر السماء فقرصتها عجيزتها. استمر لإحساس
بانقلق. نفس القلق الذي أحسته وهي تشاهد التجمع المشبوه في
لعراء.

ثم تذكرت القطيع.

- 6 -

أضاعت أثر الجديان في نهايات الحمادة. العراء الفسيح
أفضى إلى أرض صارمة في الغرب. الأودية والشعب العليا أدت
إلى جبل رمادية عارية، تفتح أفواهاً ظلماء موحشة.

وقفت فوق القمة، ورأت تحتها في الهاوية صقراً يفرد
جناحيه ثابتين ويحوم في دائرة محصورة داخل الطوق الجبسي
لقدسي، تنعكس خيوط الشمس الغاربة على جناحيه بين حين
 وآخر فيلمع ريشه بريق مذهش.

حسنت فوق الصخور السوداء المصهورة بالشمس
لطاعية وشربت من الزمزية. انتظمت أنفاسها وبدأت أطرافها

المشدودة تسترخي وتنعم بالخدر والسكون. تعلقت بالقرص
الأرحواني المعلق في الأفق عند نهاية الأودية السفلية. من موقعها
لسماوي. فوق القمة، تبدو الشجيرات البرية العطشى المتأثرة
في الأودية السفلية؛ بانسة تعصر القلب. وبرغم هذا الشعور
لكثيب الذي تثيره فإنها ترسم تحت شعاعات العروب
لأرجوانية جمالاً حزيناً ممتعاً.

تذكرت أساطير القبيلة حول التحول الذي تشهده هذه
الأرض الرمادية القاسية عندما يرق قلب السماء وتحن عبي
الصحراء بالسيول. تنفطر الأرض وتنشق الأحجار عن ألف
نوع من لبنات. تحضر الصحراء في بضعة أيام، وتغطي الأودية
الجرداء بالأحراش، وتفتح زهور سحرية تصيب حدة رائحتها
الرعاة بالدوار. جذتها كثيراً ما تتحدث عن ربيع الحمادة
كفردوس مفقود حرم الله منه أهل الصحراء عقاباً لهم على
أعمالهم. تغمض عينيها وتمايل برأسها يمينا ويساراً كالمجذوبة
عندما تأتي على سيرة الترفاس. تنثني على الأعشاب، أيضاً،
تانسيمت، أكرفال، ناكفايت⁽¹⁾، ولكن الوجد لا يستولي
عليها إلا لما يجيء ذكر ثمرة النعيم الترفاس !

نسحت الخرافات عن النوع الأسود، شكبه، حجمه،
لونه، شذوه، وطعمه الأسطوري. ومن كثرة ما سمعت تاريخه

(1) تانسيمت، أكرفال، ناكفايت نباتات صحراوية تنمو في حمادة
الصحراء.

هذه لأساطير أصبحت تجاري العجور في طقوس الوحد. تروح
يمينا ويساراً مع نهاية كل حكاية. تتحسر لأنها لم تولد زمام
لسيول وتبكي في فراشها خفية حيناً على الفردوس الضائع.

حظها التعس شاء لها أن تولد سنوات الجذب والنجاعة
و ستدّد الشمس والغزاة. أصبح الحنين إلى السيل هاحسبه
لجھون. جنتها المفقودة، أملها الوحيد. الصبايا يتعصّشن إلى يوم
يدخلن فيه عرائس على عرسان متوجين بالعمامات الررقء،
يتربعون فوق عروش الرمل بجوار العمود، وهي تتعطّش إلى يوم
تتجهن فيه السماء وتطعم القرص المستبد، تذرف دموع الغضب
و لرحمة على المرتفعات الشمالية لتغرق الصحراء بسيل يجرف
الديا. وكما صرحت بأملها لـ «تميم» ضحككت وقلت إنها
محنونة. في رأيها أن لا شيء في الدنيا يستحق أن يُعشق غير
الرحل. تميم حظها أفضل. عندما كانت هي تقيم في الواحات
تمتعت تميم بمشاهدة بعض السحب المطيرة العابرة. وفي إحدى
السنوت شاهدت خيطاً متعباً من سيل. ادّعت أن هذا حدث
مرتين يرغب أنها تشكّ في صدق تميم. ربما ساعد هذا الخيط
لصغير المنهلك من الماء في إرواء عطشها. هي لا تتعطّش مشها
لسيل وإنما للرجال.

نظماً انقرص الأرجواني وبلعه الأفق، ولكن الصهد
ستمر يتصاعد من الأرض، والأحجار المشوية ظنت تسف
لسحر. الصقر المارد مازال يسبح في عتمة الهاوية. تاريديرت
تخسر على الصخور الرمادية في المحراب الوحشي المنهجور. تطلّ

من قمته السماوية على الأودية المغمورة بالصمت والغموض،
فتبدو في رحف الظلمات كحنّة يافعة تحلم بال فردوس. لم تذكر
حتى تلك اللحظة جديانها المفقودة.

- 7 -

ليس الخوف من الموت هو الذي جعلها تعد بالذبح في
تنت الرحمة وإنما الشوق.. الهاجس.. الحنين. التوق الأبدي إلى
السييل المجهول.

العطش رفع الحجاب وجاءها بالوحي.

نفد الماء فتوسدت الزمزية في وادٍ ضيق في طريق العودة.
برغم الإعياء إلا أنها لم تنعس إلا في آخر الليل. سمعت عواء
الذئب وهمهمات الجن، ورأت الأشباح وهي تتسكع في العراء
تحت ضوء قمر شاحب. رأت الصقر المارد وهو ينقض في هجوم
عمودي على الجدي الشقي في قاع الهاوية الظلماء.

استبقت ونعت عشرين مرة قبل أن تغمر الشمس
الضاغية الصحراء بالسنّة اللهب. واصلت الرحلة. بحثت عن
انضيق إلى المضارب. الأرض الجبلية المفروشة بالصخور الرمادية
انثنت أثرها كما ضيقت آثار الجديان. ارتفع القرص القاسي
ضعة أشبار فوق الأفق. توجهت نحوه بخطوات وثقة كأنها
تتحده وتذهب غازية لتأتي برأسها أو قررت أن تضع حد
لآلامها وقصدها لتسلم له نفسها. لأنه مكتوب في معجم

الصحراء أن يسلم كل من فقد الطريق إلى بيته أمره إلى شمس
المتجبرة، فتسحي من تشاء وتأخذ من تشاء. ما أكثر من نحا وما
أكثر من تاه إلى الأبد ولم يعثر أهله حتى على هيكبه لعظمي.
سارت باتجاه قرص الشمس المشتعل حتى الضحى.. حتى
القيولة. احترق رأسها العارق وبدأ يحنها يغلي. استقر لقرص
على عرشه السماوي ففقدت الاتجاه.

بدأت تتعثر. سقطت ونهضت. تكرر ذلك مرّات قس أن
تتوغل في غزو الشمس ويبدأ جلاّد الكائنات في الهجوم المضاد.
أطلق في وجهها عيمة أخرى لحجب الرؤية. ولم يمض وقت
طويل حتى أعقبها بغيمة أخرى على العقل. هنا ركعت على
ركبتيها وانتزعت التعاويذ الملفوفة على جيدها في عقد من
الثلثات الجلدية باحثة عن الإبرة. الحرز مكوّن من ثلاث قطع
عقبتها الجلدة في رقبتها قبل أن تعرف الطفلة معنى الحياة
والمستقبل وأموت. قالت لها إنها اشتريتها من عرّاف لواحة
بثلاث معزات. الأولى تساعد في ترويض الجن، والثانية خصّة
بإحباط مكائد الإنس. أما الثالثة فهي لحماية العقل من الخبل،
وهو مرض شائع في الصحراء، عانت منه القبائل المجاورة وهدد
أنبيس الرجال وأجمل النساء بأن يتحوّلوا جميعاً إلى دراويش.

لخوف من الدروشة جعل الجلدة تحرض على تحرير هذه
التعويدة لنفسية وتدفع للعرّاف ثلاث معزات كاملة ثمناً لها
برغم أن الحصص الأولى والثاني يمكن مقايضتهما بجدي واحد.

عُثِرَت عَلَى الْإِبْرَةِ. تَنَاوَلْتُهَا بَيْنَ إصْبَعَيْهَا الْمُرْتَحِفَيْنِ،
وَبَدَأَتْ تُوَخَّرُ ذِرَاعَهَا بِقِسَاوَةٍ وَخَزَاتٍ سَرِيعَةٍ مُتَالِيَةٍ. اكْبَتَتْ
عَنِ الذِّرَاعِ لِنَمْتَصِ الدَّمِ. لَمْ تَحْسُ بِأَلَمْ فِي أَثْنَاءِ الْوَحْزِ. كَمَا لَمْ
تَحْسُ بِأَنْ سَائِلًا تَقْصِدَ مِنَ الذِّرَاعِ. انْهَارَتْ عَلَى الْأَرْضِ الْقَاسِيَةِ
وَهِيَ تَنْهَتْ، ثُمَّ عَادَتْ فَجَلَسَتْ وَانْهَالَتْ عَلَى رَكْبَتِهَا الْيَمْنَى
بِالْوَحْزَاتِ. مَذَتْ فَمَهَا وَمَصَّتِ الرُّكْبَةَ. لَمْ تَحْسُ بِطَعْمِ. رَعْمًا تَبْدَدَ
الدَّمُ مِنَ الْجَسَدِ كَمَا تَبْخَرُ الْمَاءُ مَعَ الْبَخَارِ وَالصَّهْدِ. أَفَلَتِ الْإِبْرَةُ
وَحَشَّتْ رَأْسَهَا فِي التَّرَابِ. مَضَغَتْ الطِّينَ الْمُلْتَهَبَ الْمَمْرُوجَ
بِالْخَصِيِّ فَلَمْ تَحْسُ بِطَعْمِ أَيْضًا.

فَجَاءَتْ وَمَصَّ رَأْسَهَا بِصَفَاءٍ. وَعَذَتْ بِالنَّذْرِ الْجَسِيمِ فِي
وَمِيزِ هَذَا الْقَبْسِ الْخَاطِفِ. ثُمَّ غَابَتْ مَرَّةً أُخْرَى. اسْتَسَمَّتْ
لِزَحْفِ مَوْجَةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الظُّلُمَاتِ.

- 8 -

التَّقْطُوعُ فِي قَلْبِ الْقِيلُولَةِ.

مَكُنْتُ فِي الْعَيُوبَةِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، نَهْدِي وَتَثْرُثُرُ وَتَتَحَدَّثُ
بِكَلِمَاتٍ مُهْمَةٍ عَنِ مُتَنَاقِضَاتٍ لَمْ تَجِدْ لَهَا الْعُجُورَ مَعْنَى. سَهَرْتُ
عَنِ رَأْسِهَا اللَّيَالِي الثَّلَاثَ تَقْرَأُ التَّعَاوِيزَ وَتَتَمَتُّ بِآيَةِ الْكُرْسِيِّ.
نَعْيِ الْمَرَاهِمِ وَالْأَعْشَابِ وَتَبْدَأُ فِي مَخْضِ الْخَلِيبِ مَعَ مَطْلَعِ لَفْجَرِ.
الْعِجَانِرِ أَكْثَرَ رَحْمَةً بِالصَّغَارِ عِنْدَمَا يَمْرُضُونَ. انْهَزَتْ الْفُرْصَةُ
وَقَرَّرْتُ أَنْ تَتَدَلَّلَ.

في صباح اليوم الثالث كشفت عن رأسها وسألتها
- لماذا خلق الله الصحراء صحراء ؟

لم تتوقف العجوز عن التمايل مع قربة الحليب يميناً
ويساراً. رمتها بفضول. ابتسمت قبل أن تجيب
- لكي تكون مأوى لمن أراد أن يكون حرّاً.

ابتسمت تازيديرت أيضاً. تنقلت بصرها بين السنة
السهب في الموقد ووجه العجوز المصوص بوجنتيه العائرتين.
سألت بعد صمت

- وهل أهل المدن عبيد ؟

أجابت بلا تردّد
- ضبعاً عبيد.

- وأهل الواحات ؟

هزت رأسها موافقة قبل أن تدعم موقفها باللغة
- أيضاً عبيد. كل من رضي أن يعيش تحت رحمة عبد آخر فهو
عبد، كل من نام تحت سقف أو أقام تحت جدار، كل من استقرّ
في أرض.

- وسكان الأدغال ؟ هل سكان الغابات أيضاً عبيد ؟

هزت رأسها بالإيجاب، فسألت تازيديرت
- ولكنهم لا ينامون تحت السقوف ولا يقيمون تحت الحدران ؟
هاك يعيشون تحت رحمة الخوف. كيف يكون حرّاً من نام
وهو يرتحف خوفاً من نمر أو ثعبان ؟

- ولكن في الصحراء يموت الإنسان أيضاً من الجذب.
- يموت وهو يعرف. الإنسان لابد أن يموت إذا أراد أن يكون حراً.
- وما مع الحرية في الصحراء إذا كان مكتوباً على حين للإنسان أن يموت ؟
- وما نفع الحياة في العبودية ؟
- استمرت تمايل في إيقاع منتظم مع قربتها. وجنتاه ازدادت شحوباً وغوراً. على شعيتها رقص مشروع ابتسامة كئيبة.
- في المساء زارتها تميما فسألتها عن الجدي. حدثت في وجهها طويلاً بعينها الضاحكين قبل أن تنكس رأسها وتكلم.
- وماذا تتوقعين ؟ ليس وحده الذي ضاع. الذئاب قضت على نصف الجديان قبل أن يدركها الرعاة.
- ثم اختلست نحوها نظرة حيثة وقالت بنغمة ذات معنى :
- ضل الجارة المعلوم أيضاً مات !

- 9 -

كبرت العذارى.

- لم يتأخر فرسان القبيلة فتخاطفوهن. تميما الضع فازت في السباق فكانت أول من دخل على عريس.
- فارت في المباراة الثانية أيضاً وأنجبت ثلاثة أولاد. تميما، لريارة تازيديرت كثير التروي لها الأساطير عن مملكة الزواج. تخر

أطفئها وتلوح الأصغر في الهواء. ثم تتلقفه بمهارة أم حقيقية
وتردد بصدق

- لم أدم كالكثيرات. مازلت أصرّ أن الحياة هي الرجل. لم تعس
امرأة لم تدق ضعماً لرجل. لن أهنأ حتى أراك بين أحصاء أنسهم.
القبيلة لم تعدم الفرسان.

تعمد تازيديرت أن تستفزها بالدعابة القديمة
- ليس قبل أن تسيل الصحراء.

في إحدى الزيارات ملّت ميمما الدعابة فصرخت في
وجهه

- السيل.. السيل. وإذا لم تسيل الصحراء؟ هل تضيعين حياتك
في انتظار المجهول؟

كأتا جالستين في ظلّ العشية. ميمما تخلط لشاي
الأخضر. أخذت رشفة لاختبار نسبة السكر ثم أضافت بذرة
العجائز الحكيمات

- النساء كالزهور، يفتحن بسرعة ويدبلن بنفس السرعة.
الرجال فقط لا عمر لهم، محظوظون. الرجل دائماً فتى يافع. كم
أحسدكم يا ربي!

ثم التفتت إليها واستمرت في الحملة
- وأنت تتظرين السيل. ستدبلين قبل أن يأتي.
- سوف يأتي. سترين. لن أستسيغ رجلاً. لن أستسيغ شيئاً
تمتت ميمما :

ربنا يشفيك ! صبية ترفض العرسان تكفر بنعمة ربي . كم تقدم
لك حتى الآن ؟

بدأت تحصيلهم على أصابعها دون أن تنتظر حوبها .
استتجت

- سبعة سبعة من قبيلتنا . أمي قالت إنهم بعثوا يخطبونك من
القبائل البعيدة . من إيفوغاس .

أغاظتها تازيديرت
- رفضتهم أيضاً جميعاً .

ثم كتمت ضحكة . تنهدت ثمما في غضب . انحنت فوق
عالة الشاي .

عادت العجوز من زيارة العجائز في المضارب المجاورة .
أقيمت بخطوات حيوية برغم ظهرها الذي ازداد في السنوات
الأخيرة تقوساً وانحناء . وجنتاها الشاحبتان أيضاً ازدادتتا بروزاً .
أقيمت بحرف لحافها الأسود وتقاوم موحات الريح الشمالية
المتقطعة . تكومت بجوار ثمما وقررت أن تساهم بنصيبها في
الحمة . قدمت لها ثمما كأساً متوجة بالرغوة . رشفت الطربوش
الشفوف وقالت

- ينصر ديك يا بنيتي . قولي لها بالله لا أحد في قبيلتنا يعيش عمر
يوح . أريد أن أرى أولادها قبل أن أموت . أليس من حقي أن
أفرح بمداعبة ابن الحفيدة مثل بقية العجائز ؟ أنتن صغيرات ، لا
تعرفن أن الأبهي من الولد هو الحفيد . وليس أبهي من الحفيد إلا

ولد الخفيد ما أسعد عجوز عاشت حتى داعبت ولد الحفيدة بين يديها !

تهدت ورشفت الشاي. أكملت وتازيديرت تبخل علي بهذه النعمة. تريد أن تحرمي. أن تعبت. ساعديني يا غيما. أعينيني بالله.

هت تاريديرت وجرتيها إلى ساحة أخرى. لم تشد اهتمامها إلى الطقس ولكن إلى الصحراء. قالت لصديقتها - لجدة تعيد وتكرر كل من أقام تحت سقف أو استقر في أرض هو عبد. تقول أن لا حرية بدون صحراء. لا حرية إلا لهاجر في صحراء الله الواسعة. هل سمعت برأي كهذا من قبل ؟

في تلك اللحظة فكرت في شيء آخر كتتمت حضراً غمضاً كشف لها دائماً عن معادلة وحشية تقول. «الحرية هي الصحراء. والصحراء هي الجذب. الموت. إذن الحرية هي الموت». وكسما انشقت قلبها عن الخاطر الغامض تذكرت السنين المنتظر واستولت عليها الرجفة والنشوة. مع الوقت أصبح الخاطر في القنب مثل الوعد الجسيم، سرها.

- 10 -

لحور أيضاً زينت لها الفرسان الأغراب عندما عجزت عن قسها بقول أبناء القبيلة. لم تصف أبناء إيعوعاس بالعرباء وذكرتها بأمتها الفوغاسية وقالت إنهم أبناء خالاتها، والفتاة التي تقور بين الحالة محظوظة في الزواج. ولما لاحظت فتورها ابرت

تسرد عيها سيرا شيقّة عن بطولات وهمية قام بها المرسان الأعراب. كانت تختار الليالي القمرء فتخرج إلى العراء وتجس أمام البيت، في الناحية الأخرى المجاورة لمربط الأعمام، تدس قدميها ويديها في التراب البارد وتبدأ في سرد حكاياتها عن الأبطال. فلم تفتها قبيلة ولا ملة في طول الصحراء الكبرى وعرضها، لا ووجدت لفرسانها الشجعان ملحمة بطولية تستحق الإشارة والتمجيد. ولا بد أن تدس قصيدة هب وأغنية شجية هناك حتى أثارت دهشة تازيديرت التي لم تنظر يوماً أن الجودة تحفظ كل هذا العدد من قصائد الشعر. ثم تختتم الرواية قائلة إنها تلقت خيراً من أحد أبناء القبيلة تقدّم يطلب يدها لابنه البطل. وكثيراً ما خانتها ذاكرتها وسيت أنها تسرد قصصاً واقعية عن بطولات أبناء القبائل المرشحين للزواج فتتهمك في سرد أساطير سبق لها أن قصتها عليها في الصغر كمجرد خرافات. وكم من مرة فشلت تازيديرت في خنق الضحك ونطقت تفهفه بوقاحة فتضطر الجودة إلى أن تزم شفيتها وتتوقف عن السرد لتؤجل حملتها إلى الغد.

في ليلة فقدت تازيديرت السيطرة على نفسها فانطلقت بضحكة وقحة استنكاراً لهفوة نالية ارتكبتها العجوز فجاءت لضحكة بردة فعل قاسية. سكنت الجودة فجأة، أشاحت بوجهها سحبة الأغنام ونزعت يديها المدفونتين في الرمل الليبي البارد. سحبت لحافها الأسود على وجهها فبدت في عتمة القمر المكّر مثل شبح بائس. قالت بصوت كأنه يخرج من أعماق بئر: «أردت أن أرى...» لم تكمل الجملة. بدا جسدها الصغير المكوم

في العراء أكثر ضلالة. قالت تازيديرت بقسوة «وأنا أردت أن أرى السيل. إحك عن السيول».

هي نفسها لم تفهم سبب تلك القساوة، فتوقفت العجوز عن سرد البطولات، وترددت إلى بيت العرافة، ثم قطعت زيارتها لعرافة وترددت إلى ربوة كثيفة ترتفع في العراء الممتد جنوب الصحح اختلق لها الأطفال اسم «صلعة الدرويش»، ولا يعرف أحد مدى شبهة بصلعة الدرويش، ولا يعرف أحد أيضاً عما إذا كان صلع الدرويش تختلف عن غيرها من صلع عقلاء القبيلة حتى يضطر الأولاد الأشقياء أن يعثروا لها على هذا الاسم المدهش.

وجد الأهالي أنفسهم يرددون الاسم، ووجدت العجوز نفسها مضطرة أن تقضي فوق الربوة عدة ليالي ظلماء بعد أن خيبت لعرافة ظنّها في وعود ما يمكن أن يشير إلى اقتراب الخلاص من النكبة.

استطاعت العجوز أن تختلس عدة زيارات للربوة قبل أن تكتشف تازيديرت غيابها. نهضت في ليلة لتقضي حاجتها في العراء فرأت شبحاً هزياً مقوساً يتسكع في الحلاء. ظنّت أنه من أشباح جبل الخساونة فأشاحت عنه بوجهها وقرأت آية الكرسي ولكن الشبح لم يحتف بل اقترب ببطء وزحف نحوه بوقاحة. توقفت و تنظرت أن تتلقى صفعة أو بصقة أو حركة استمرارية مشابهة. ولكن الشبح لم يلتفت واستمر في زحفه حتى توقف في مدخل الخباء. عادت إلى البيت فوجدته ينتظرها هناك. في الظلمة

عرفت فيه عجزها. سألتها عن سبب هيامها بالخلاء المسكور في
مش هذا الوقت ولكنَّ الجذّة لم ترد. سمعتها تتمتع بالتعاويد
وتدحل تحت لحافها الأسود في زاوية الخباء بحوار قرية الماء.

في الليلة التالية رابطت لها واقتفت أثرها. رأت كيف
تتمسّح المسكينة بـ«أدبني»⁽¹⁾ مستدير مرتفع الفوهة. قبع
تاريديرت في السطح وراقبت جدتها وهي تتوسّد القبر القديم
وتغفو. أدهشها أنها لم تكتشف وجود «أدبني» فوق «صعّة
الدرويش» قبل أن تضبط عليه العجز منلبسة ممارسة الطقوس.
ونسيت أن أهل الصحراء لن يطبقوا مقاماً لا يجاورون فيه
«أدبني». يقولون من لم يحاور قبور الأولين عاش أعمى، عاش
غافلاً عن مؤامرات القدر، وعرض حياته لأكبر خطر. في
الصباح ذهبت تازيديرت لاستشارة الجارة الزنجية في شأن
الطقوس. قالت

— كنت أظن أن «أدبني» ينسئ عن الغائب فقط.

ضحكت الزنجية الحكيمة وكشمت عن فم خال من
الأسنان. قالت

— وهل غاب في الصحراء شيء كما غاب المطر؟

— هل ينسئ القبر عن السيول؟

— من يملك أن ينسئ عن السيول غيره؟

(1) أدبني قبر قديم يستخدمه أهل الصحراء لقراءة المستقبل وسقط أحجار
للعنّين (راجع هيرودوت «التاريخ»).

ثم بدأت تحضر الشاي وتحتها على أن تمسح جسدها
للرجل قبل أن يذبل ويترهل ويأكله الدود. قالت إن الله وهب
حمل جسد للمرأة لا كي تحتفظ به لنفسها ولكن كي تعطيه
لرجل. وعندما لاحظت فتورها طمأنتها

- السنين قادم. أين يمكنه أن يطير؟ هل تطنينه معشوقك
وحده؟ الصحراء أكثر شوقاً منك. أرضها أكثر لهفة. وهي
تعاني من الهجر أكثر منك. اصبري. أين يمكنه أن يطير؟

بعد أيام، قالت لها العجوز

- هل تعديني أنك ستختارين عريساً إذا جاء المطر بالسيل؟

حقق قلبها. سمعت دقاته بأذنيها. تذكرت وعددها
الجسيم. تذكرت المعادلة الوحشية همست
- أعدك.

قالت الجدة وهي تنهد بعمق

- كنت أحلم أن أسمع هذا الوعد قبل أن أموت.

وليس غريباً أن تموت بعد أيام لأنه لا يوجد من هو أكثر
قدرة على معرفة نوايا القدر مثل عجائز الصحراء.

- 11 -

رق.. رق.. رق.. لق.. لق.. لق...

راق لها التقليد الأخير. وجدت أن الـ«لق لق لق» نغمة
قرب لينة الماء، أشبه بحواره الخفي مع الأحجار والأشجار. ما
أشهى اللققة! ما أشهى الماء!

تحصت من نعلها وسارت في المجرى، في الاتجاه المضاد
للماء، بقدمين حافيتين. تتوقف وتنصت للقلقة. تقلد الصوت
لعامص. تأمل السائل العجيب، تنحني، تحاول أن تتبين لو،
أن تشتم رائحة، أن تذوق طعاماً. لا لون، لا طعم، لا رائحة.
وبرغم ذلك أطفأ لهيب الشمس وأحيا الأرض المقتولة منذ ألف
عام. لا يشه شيئاً برغم أنه كل شيء. أبسط شيء برغم أنه الحياة
نفسها. ما هي الحياة بدون ماء يسيل؟

تذدت بمداعباته لقدميها. ضحكت لشقاوة ملاطفاته.
حاولت أن تقرأ سرّه في لغته المبهمة. ازداد اللغز غموضاً. ازداد
قربها عشقاً وتعلقاً.

الوادي يشق النجع شطرين. تجمع الأهالي عسى كلا
الحنين. ازدادت الحمهرة كثافة وعلت أصواتهم بالنداءات
المتبادلة. ثم انطلقت زغرودة حامية كالرعد. تلاها بكاء أطفال
وثغاء الماعز

من الشمال هبت موجات باردة. نسيم مشبع بالطر،
شرعت له صدرها ومنتعت لأول مرة. رفعت رأسها فرأت
معجزة أخرى. قرص الشمس انطفأ نهائياً. احتجبت الشمس
خفف سحب كثيفة تتحرك بجلال وبطء وتسبح نحو الجنوب.
سم.. ثم.. اشتعل الأفق بأسلاك من نار. لمعت في رمشة عين
ونطفأت كما ومضت. البرق. هذا هو البرق. ولكنها لم تسمع
قصف الرعد. يقال إن وميض البروق مرتبط بقصف الرعد
دائماً. تذكرت قولاً آخر لجدتها «إذا رأيت برقاً ولم تسمعي
رعداً فهد أحسن قال». لم تسمع الرعد. سمعت منادياً يصيح

- هيه - هيه.. اخرجوا من الوادي، مستوى الماء سوف يرتفع. السيل قادم. احذروا السيل !

ضحكت. خفق قلبها بالبهجة. هل هذه هي لسعادة ؟ ركعت في الماء. داعب السائل المسحور ركبتيها، حفر تحتهم، غابتا في التراب. تسَلَل تحت ثوبها. دغدغ فخذها لأيمس. ثم تطاول ومدّ يده إلى الأيسر أيضاً. ضحكت وانحنى وسمعت عريضة. سباقاً، اندفاعاً. لمست الماء بشفتيها الخنوثين المتعطّشتين كالأرض منذ ألف عام. تركت السائل الشقي يعبث بالشفتين ويداعبهما في قبلة طويلة.. طويلة، تحمل شوق ألف عام. ثم نزعت شفتيها وأحسّت بالدوار. فتحت عينيها فسقطت الدموع وامتزجت بالماء. عمرت قلبها دفقة أخرى من البهجة. وتقاطرت من مقلتيها قطرات جديدة من الدموع.

ارتفع مستوى الماء.

زداد التيار عنفاً واندفاعاً، تعكّر صفو الماء. جرّ القش والجل والروث والطين. تشبثت بالأرض فحفر تحتها ونزعها بدهاء. بدأ يتف حولها ويضمّها إلى صدره. غمر نصفها السفلي.

أحنت رأسها وبدأت تشرب. شربت طويلاً الماء عكراً. رفعت رأسها. تقيأت الجل والطين وروث المعيز. لم ترتو. بل رداد عطشها وحشية. اندلعت نار مجهولة وأحرقت حوفها بعضش أقسى. انحنى فوق الماء انعكراً وعادت تشرب شرهة تقيأته مرة أخرى ممزوجة بالروث والطين وأعواد القش.

حاول أن يصرعها ويطرحها أرضاً، فتشبثت بأعراف
رمة. ستعادت توازنها ووقفت على قدميها. حفر الأرض
محولاً أن يسقطها من حديد. ضحكت. عادت تجثو على
ركبتيها. قلبها يتأجج حيناً وعطشاً.
بدأت تنزع ملابسها.

نحّرت من اللحاف. التقطه من يديها وجرفه التيار. خين
إليها أن الماء ازداد شراسة وعنفاً. مزقت ثوبها المضفاص. مزقته
من جزئه الملتف حول الرقبة وشقته إلى قطعتين كبيرتين. تخلص
من لقطة اليمنى. فتلقفها وابتلعها حالاً تابعتها وهي تغيب في
اليم الهائج. ثم أطعمته القطعة الثانية ووقفت عارية تماماً.
تستعين بالرمة بين الحين والآخر لحفظ توازنها. دمدم الرعد.
سمعت بوضوح. دمدم واعدة، مهيبة غطت على ضجة السيل.
ركعت فاحتضنها. هجم على الجسد البكر العاري،
وغمره بحنانه. ألقت برأسها إلى الوراء فبلغ جيدها وأغرق
جدائل شعرها. أرخت قبضتها وتخلّت عن الرمة فاحتواها
وسحبها. أحسّت بنفسها خفيفة كريشة طائرة. الماء الناعم
يطوق جسدها البكر بحنانه. انساب بحرية مع التيار الهادر
الذي انطلق يحرف القش والروث، يحرث الأرض البتول
يعف مرد عاشق يفرّ بمعشوقته الحسناء إلى المجهول.

طوكيو - موسكو

1989

- 1 -

ما أن يهبّ الريح، ويشتدّ القبلي، حتّى يصيب الرّمة مس.
 تتململ في البداية بحياء العذارى، تتمايل بارتياح. تستقبل
 لأنفاس الحرّة باحتراس، ثم تتشّى وتستبذّ بها روح الواحد.
 يستيقظ فيها مارد خفي. تولول. تنوح. تتمرغ في تراب الوادي.
 تحرث لأرض بجداول شعرها المضفور بالزهيرات البيضاء. تهرع
 نحو لرسول بظماً البتول، تراقص الإله الخفي بشوق عذراء،
 وجنود عاشقة جنيّة. يتحوّل الحبيب الحزين إلى لحن شجي.
 يستقيم للنغم. ينتظم اللّحن في أغنية شجن فاجعة.

- 2 -

يزداد اللّحن صماء. ينسجم النغم مع موال لأنفاس
 لجنوبية. يتراحع النّواح. تختفي الولولة. تتوقّف الرّمة عن

حنونها. ولكن صوت الفجيرة يتمادى في اللحن ويستولي على الأعنية. فتصيح أشجار الوادي السمع. تلتقط السؤال، وتعرف الحين، وتفهم التوسل، وتترك الرسالة المخفأة في الأعنية. عممعت باللحن. رددت الأعنية. ولكن الأشجار الأخرى لم تتجاسر كالرثمة، ولم تحمل الريح وصيتها الخفية إلى المعشوق المجهول.

- 3 -

مضى الريح وعبر القلبي. ولكن الرثمة لم تكف عن الغناء. ظلت تتمايل في إعياء. تجرّ على التراب الرامض صفائر منمنمة بزهيرات صغيرة، نقيّة، مثل حبات الندى. تسدل الضفائر على قذها النبيل.. و.. تغني. تختطف اللحن من فم السكون كما اختطفت رسالة المعشوق من فم الريح، وتنسج من الأصوات العصيّة نشيداً شجنياً شحياً. ولكن الريح ذهبت، ولم تجد رسولاً يطير برسالتها إلى المعشوق.

- 4 -

غست طويلاً. وبكت طويلاً. وفي يوم رأت أن تجرّب وترفع رأسها إلى أعلى. ململت جدائلها المطرزة بالزهور فرأت الحبل لأول مرة. كان عالياً ومكايراً وقريباً من السماء. أعجبتها قامته الماردة، ورأته بهيماً وقريباً من السماء. فلماذا لا تكتشف

سرّه، وترى ما يراه الجبل المنارد؟ خالفت شجرة الرّثم نموس
 انصحرأء، وتمردت على الحضيض. زحفت وخرحت مر
 الوادي، تسلّقت السفح الموجع. اعترضتها حجارة لها مخالب
 الوحوش، ولكنها عانددت. تخلّت عنها الأرض وحرمتها
 الدوة، ولكنها قاومت الظمأ، وصبرت على غول العطش.
 عصفت بها القبلي فغنت له أغنية الفجيعة. تراجع القبلي عن
 محاربتها وسبقها إلى شعبة الجبل. أعجبه عنادها فرتب لها على
 الشعفة فراشاً ناعماً منسوجاً من حبات الرمل. تشبّعت بالطلع.
 انفصت عن حضيض الأسافل. ورفعت رأسها، رفعت رأسها
 ونصبت قدّها الخجول إلى أعلى. تمددت في الفضاء. تمددت
 وتمددت حتّى غابت في فراغ السماء. أدركت السر عرفت لماذا
 يذو الجبل مهيباً، ومكابراً وبهياً.

عزفت بجذائل شعرها لحناً، وغنت أغنيته القديمة.
 اشتدّت زرقة السماء. وارتفع الجبل قامة أخرى. مضت تغني،
 مضى لجبل يرتفع مع استمرار الأغنية. وكلّما ارتفع الجبل كلّما
 ازدادت السماء زرقة وبهاءً واتساعاً.

- 5 -

عر العابرون. نشطت القوافل. جاء الزهاد والعُباد
 والباحثون عن الواحة الضائعة. استقروا في الوديان. رفعوا

رؤوساً إلى السماء ليتوسلوا الإلهام. رأوا على شعبة الجبل شجرة
رتم وحيدة مثل الجبل، مكابرة مثل الجبل، تجاور السماء مثل
الجبل. صعدوا الجبل ليستنصّوا بظّلها، تحسسوا قوامها الممدود،
قطفوا زهورها وصنعوا منها بخوراً. تمسحوا بجذائنها وكوا
طويلاً.

صارت الشجرة الوحيدة، المعتزلة، المتشّبة بهامة الجبل
العاري، علامة تهتدي بها القوافل، وحرماً تنحدر له القبائل
القرابين، وولياً تنذر له النذور.

تون (الإلب السويسري)

يوليو 1993 م

الطائر المقدّس أو (شجرة الزّهم)

﴿فَوَسَّوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ أَيْمِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمَنِ النَّاصِحِينَ. فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْضَعَانِ عَلَيْهَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ﴾
صدق الله العظيم.

[سورة الأعراف، الآيات من 19 - 22]

«فراحت المرأة أنّ الشجرة جيدة للأكل وأنها بهيمة للبعيون، وأنّ الشجرة شهية للبطر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلمتا أنّهما عريانان.»

(الكتاب المقدس، العهد القديم
«سفر التكوين» الإصحاح لثالث)

بعد شتاء صارم وأمطار غزيرة هجم الربيع مبكراً هذا
لعام.

هذأت الرياح الشمالية الباردة واستقرت الشمس في قنب
السماء أيماً متتالية، فتنفست الصحراء بالجمال ولدفاء
ولربيع. بدأ الاخضرار يغمر الأعشاب الشاحبة المنتشرة في
الأودية الصغيرة المنحدرة من الروابي الجبلية القاحلة، فجاءت
الطيور الصغيرة والكبيرة، البيضاء والملونة، وملأت الأودية
السفلية الكبيرة حيث تتجمع أمطار الشتاء، بالغناء.

ولم يمر أسبوع آخر حتى ازدهرت الأعشاب والأشجار
البرية. ازدهرت حتى أشجار الرعم التي تكتظُّ بها الأودية
والسهول المجاورة، فتهياً أهالي الصحراء للبحث عن الأرناب
البرية والغزلان والكمأ والحجل.

كان ميلود يدس رأسه بين أغصان الرعم يستشق عير
أزهارها الحادة العيقة عندما نادته غزالة
- ميلود، انظر ! انظر !

التفت ميلود فرأى عزالة وهي تهبط السفح نحو الوادي
تهشُّ أعامها التي اندفعت نحو الوادي الأخضر، فاختنطت
بأغامه مكوّنة قطيعاً كبيراً. نظر إلى حيث تشير بإصبعها ولكنه
لم يبصر شيئاً.

عادت تقول

- انظر إلى هنائد، فوق الشجرة، ياله من طائر جميل ! ستقرُّ
فوق شجرة سدر شائكة هائلة وسط غابة الرتم، طائر حميل
بالفعل !

أبيض ناصع، ضخمة مقارنة مع بطيور الصحراء، ذو منقار
طويل أفتى.

توقفت الطفلة إلى جواره وقالت من بين أنفسها
المتلاحفة

- لم أر طائراً مثل هذا من قبل.

قال ميلود متأملاً وهو يتابع الطائر بصره

- إنه الطائر المقدس.. الطائر الأبيض المقدس. لقد حدثتني أمي
عنه كثيراً في قصصها. إنه يظهر مرة واحدة في العمر للإنسان،
ويهاجر دائماً وحيداً.

ظلّ يتأمل الطائر مأخوذاً ولم يلحظ كيف التقطت عزالة
حجراً ورمته في اتجاه الطائر، الذي رفرف بجنابه الكبيرين،
وحنَّ فوق الوادي الذي يضحُّ بحوافر القطيع وتناطح التيوس
وشعاء الحديان.

قال ميلود غاضباً وهو يجذبها من طرف جلبابها :

- ماذا فعلت ذلك ؟ هذا حرام. إنه طائر مقدس.

- من قال إنه مقدس ؟ أمي لم تخبرني بذلك.

- أنت شيطانة !

- وأنت جبان..

ركض ميلود إلى أقرب ربوة لبتابع مشاهدة الطائر المقدس الذي اختفى خلف المرتفعات.

ولكن الطائر غاب عن الأنظار. مكث فوق لربوة لحظات يحدّق في الأفق والفراغ ثم يس وعاد إلى الوادي. بحث عن عزالة في غابة الرتم والأعشاب الكثيفة، حتى رآها مستقيمة على ظهرها تحت رقعة تزدحم الزهور على أغصانها الرقيقة الطويلة، وقد انحسر طرف جلبابها عن ساقها، تتسلى بمرقبة معزاة تترنح أمامها !

وقف فوق رأسها وقال بغضب

- لماذا طردت طائر الجنة المقدس ؟ سوف يعاقبك الله على ذلك.

رمقته بنظرة بطينة غائبة، ثم عادت ترقب المعزاة وهي تترنح وتتعثر وتسقط ثم تقوم على ساقها وتتقدم بضعة خطوات متعثرة أخرى فتسقط من جديد.

جلس بجوارها وشرع يرقب المعزاة.

بعد لحظات تساءلت وهي مازالت مستلقية على ظهرها وساقها بارزان حتى الفخذين

- أتعرف ما بها ؟

- لا.

لقد أكلت أوراق الرتم.

- آه.. مسكينة. أوراق الرتم قاتلة. أمي قالت ذلك.

صمت لحظات ثم سألت بإشفاق

- هل ستموت ؟

- لا

- ولكن أوراق الرتم قاتلة.

- ليست قاتلة.

- كيف عرفت ؟

- لأنني جرّبتها.

- كذّابة !

- بل جرّبتها وسأجرّبها الآن أمامك.

- لا لا تقتربي من الرتم، إنها شجرة لا تؤكل، حرام، أوراقها قاتلة.. مسمومة ! أمي تقول ذلك دائماً.

نهضت واقتطفت الأغصان الطويلة المغطاة بزهور بيضاء

حاددة الرائحة، وقالت وهي تلوّكها

- أمي تقول، أمي قالت. أنت لا تعرف إلّا ما قالته أمك. أنا أصغر منك وأعرف أكثر منك.

قال باستكبار وهو يراقبها تمضغ أوراق الرتم

- كذّابة. عمري أحد عشر عاماً فقط.

- وأنا عشرة.

- كذّابة !

- اسأل أمي.

استمرت تلوك الرتم وهي تنظر إليه وتبتسم في تحدّ. قالت
ضاحكة

- أتعرف بماذا أشعر الآن ؟

ظلّ يتأملها بفضول ولم يجب.

أشعر أني خفيفة كالريشة، أستطيع أن أحلّق في الفضاء
كالطيور، والسماء قريبة جدًا من الأرض.. و.. ملونة.. كل شيء
ملون ومزركش وجميل.. حتّى أنت !

أعقبت ذلك بضحكة طويلة رنانة، ثم قفزت بين
الأعشاب ترقص وتركض على رجل واحدة فتسقط مرة، ثم
تنهض لتحاول من جديد. قال وهو يتابعها بذهول
- أنت الآن كاللعزاة !

أجابته بضحكة هازئة، فأضاف

وسوف نموتين كاللعزاة !

علا ضحكها وهي تقول بمرح

- لن أموت. سوف ترى !

استمرت تركض وترقص وتغني ثم اقتربت منه وقالت في
إصرار:

- جرّب، لماذا لا تجرّب ؟

اقتطفت مجموعة من الأوراق الخضراء وقدمتها له. تراجع
خطوتين وقال بهلع
- لا. أخاف.

- ثم تحاف؟ لقد رأيت بنفسك أنني لم أمت. أنا سعيدة وفرحة.
ألا تريد أن ترى كل شيء ملوناً زاهياً وجميلاً كما.. كما في
الحلم. ابتلع ريقه بصعوبة وتمتم
- أخاف.. إنني.. أcha.. ف.

تقدّمت منه خطوتين ومدّت له بأوراق الرتم وفي عينيها
تصميم وعناد
- لا تخف. هيا.. سوف نحلم معاً، ونرقص معاً و نرى لأشياء
ملوّنة.

تراجع خطوات، تقدّمت خطوات، و.. دسّت الأوراق
الخضراء المطرّزة بالزهور الصغيرة البيضاء في فمه.

مر بعض الوقت قبل أن يشعر بالخدر يتسلّل إلى رأسه،
يسبب رادته، ويعطل عقله.. خدر لذيذ يزحف ببطء حتّى وجد
نفسه غارقاً في الحلم، وبدأ وزن جسمه يخف حتّى شعر أنه
رشيق كالعصفور فأيقن أنه في الجنة فانتابته نوبة من الضحك.

صحكت معه أيضاً، وطارا معاً يتفافزان بين الأعشاب
كفراشتين، يرقصان.. يرفعان عقيرتيهما بالغناء.. ثم سقط فوق
النساعات البرية الكثيفة يلهثان. مرّت لحظات قبل أن تقترب منه
غزالة وتشرع في فكّ أزرار قميصه ثم سرواله. لم يدرك لماذا
تفعل ذلك ولم يقاومها. نزعّت جلبابها فرأى جسمها عاري..
رحفت نحوه وأطبقت على قمه بشفتيها، ثم وجد نفسه يعتلي
جسمها الجميل العاري. لم يفكّر في شيء. شعر فقط أنه موجود

في الخيال، وأن الحلم اللذيذ قد ابتعد به عن الأرض مسافات طويلة جداً. إنه الآن في الجنة الموعودة التي حدثته أمه عنها ولم يتصورها، وتمنى أن يستمر هذا الحال إلى الأبد.

استمر ميلود يمارس هذا «الحلم» مع عرلة طول الأيام التالية. يصحو مبكراً، يغسل وجهه ويهرع إلى الأغنام ليهشها إلى السهول المجاورة دون أن يتناول إفطاره المعتاد حتى ذهبت الأم. يحس هناك بين الأعشاب ينتظر قدوم غزالة مع قطيعها، يقطف أوراق الرتم، يرقصان، ويغيان وبضحكان، وبمرسان الحمة ولفيوبة والخيال. حتى جاء ذلك اليوم الذي ضبطتهما فيه النسوة فجأة.

كانا قد نزعا ملابسهما ورقدا فوقها، ولم تمر لحظات حتى انتفض جسمها تحته بعنف، نهض فوجد نفسه مع النسوة وحهاً لوجه. عرف فيهن وجه أمه التي وقفت بذهول وقد نزعَت المفاجأة لسانها.

انتهاز الفرصة فتناول ملابسها وهرع بجري حتى توارى خيف الربوة المطلة على الوادي الأخضر.

لم يحرز عني العودة إلى بيت حتى عندما هبط المساء. التحا إلى شجرة رتم، حفر تحتها حفرة عميقة ونام وسطها طوال الليل. كان نوماً مزعجاً متقصصاً تتخلله رؤى الذئاب والأفاعي. وفي الفجر لسعه برد الصحراء القاري فعاد إلى البيت، وتسأل د حل فراشه.

في الصباح لم تبادله أمه كلمة واحدة. ألقى بتحيةة الصباح
فنه ترد. استمرت تمخض قربة الحليب بين يديها وترمقه بطرف
عيها خلصة بنظرة استنكار.

وعندما شرب الشاي ونهض يجمع القطيع قامت وقالت
بوعيد

- انتظر حتى يعود أبوك، سوف أخبره بكل شيء.

هو على يقين من أنه لن يفلت من العقاب، ولكنه انتظر
غزالة في المراعي. جلس فوق الربوة يرقب القطيع في قلب
الوادي، يصغي لشقشقة الطيور وطنين النحل، يحلم بالسعادة
والخيال وغزالة ولكنه لم يقترب من الرتم. انتظر حتى المغييب
ولكن غزالة لم تأت. خاف ألا يتكرر ذلك الحلم العجيب مع
غزالة، فذهب إلى البيت والألم يعتصر قلبه.

عاد الوالد من رحلته إلى تشاد فأخبرته الأم. جلب له حنة
مزر كشة وحذاء من المطاط. وفي الصباح تناول السوط من
جرايه وقال لميلود بهدوء

- الآن سوف تنال العقاب، أنت تعرف ماذا فعلت ؟

قال ميلود باستسلام

- نعم.

تناول حبلاً طويلاً ثم شرع يوثق ميلود إلى عمود الخيمة
مركزي، وتناول السوط وبدأ يهوي به على جسد الطفل الذي
لم تمسه لساعات السوط من أن يعلن
- ولكسي.. ولكنتي أريد أن أنزوجه.

توقف الأب لحظة ذاهلاً. همهم
- تنزّوجها يا زنديق! ألا تستحي؟!

وهوى بالسوط على جسد الطفل بعنف أكبر

استمرّ الطفل يردّد

- أحبها، سأنزّوجها!. سأنزّوجها!

أثار ذلك الأب فازداد شراسة وازدادت ضرباته ضراوة
ووحشية، حتّى بدأ الدم ينبثق من ظهر الطفل.

لحظتها تدخلت الأم وصرخت بأعلى صوتهما

- أوه يا ربي! أنت تريد أن تقتله!

واندفعت وألقت بنفسها على جسد ميلود. توقف الأب
وقال غاضباً وهو يمسح العرق المتصبب على جبينه
- اتركيني أربيه. هذا الكافر. هذا الزنديق!

نام في الفراش على بطنه قرابة الأسبوع، وأمه تدهن له
الحراح في ظهره بزيت الزيتون وبعض المراهم المستوردة من كنو.

وحتى عندما تمائل للشفاء وسمحوا له بالذهاب إلى
المراعي جلس فوق الربوة وانتظر غزالة. ذهب على أمل أن ينتقي
بها.. ولكنه لم يحدّها. لم يتصوّر أنه لن يراها. لا يستطيع أن
يتصوّر أنّ ذلك الحلم العجيب يمكن أن ينتهي هكذا بسرعة
وبساطة. لا بدّ أن يهجر الأرض ويغيب معها في تلك لرحلة
الخيالية العجيبة. انتظر حتّى هبوط المساء، ولكنها لم تأت. فقرّر

أن يذهب إلى بيتها. في مدخل الخيمة وجد أمها. وصرحت فيه
متوعدة

ميتود ؟ ماذا تفعل هنا ؟ اذهب.. اذهب أيها المخون. سوف
أحبر أباك.

وأحبرت الأب الذي سجنه حول العمود المركزي حتى
الصباح. بعد الظهر أسرج الجمل وحلّ وثاقه من العمود قائلاً:
- هيا. سوف ترحل إلى عمّك في الواحة. هناك تستطيع أن
تذهب إلى المدرسة. هذا أفضل من أن تجلب لنا الفضيحة ولعار.
عند عمه غمره الحزن وأضرب عن الطعام ثلاثة أيام. في
الليل ظلّ يهذي باسمها.

وفي اليوم الرابع تسلّل إلى المطبخ وشرب زجاجة
لكيروسين عازماً على الانتحار.

وعندما دخلت زوجة عمه المطبخ صرخت من فرط الرعب.
وجدته عارياً.. غارقاً في القيء، ووجهه أصفر كقطعة ليمون.
تجمهر الجيران وحملوه إلى المستوصف، حيث أجريت له
عمية غسل المعدة. ثمّائل للشفاء فقال له عمه
- لماذا تُعذّب نفسك هكذا.. مازلت صغيراً سوف تكبر
وتنسى.

قال بإصرار مدهش

- لا أريد أن أنسى، لا أريد !

ثم أجهش بالبكاء. بكاء طويل مرير.

في المدرسة ضبطه المعلم وهو يرسم وجه غزالة سألته
باستنكار

- ما هذا؟

- غزالة.

- من هي غزالة هذه؟

قال براءة

- غزالة، أريد أن أنزّوجها.

تفحصه المعلم بدهشة ثم قال مؤنباً

- ألا تستحي؟ طفل في عمرك ويحلم بالزواج!

هجم على الكرّاسة وانترع منها الورقة التي حاول أن
يرسم فيها ملامح غزالة، مزّقها وألقى بالوريقات من النافذة.

منذ ذلك اليوم قرّر ألا يعود إلى المدرسة.

يخرج في الصباح إلى المرتفع على الواحة ويجلس هناك
حتى الظهر، يحلم بغزالة وبذلك اللحظات الساحرة التي قضاها
معها في السهول الخضراء تحت أشجار الرتم العجيبة. يتسنى
أحياناً بإحصاء قافلة السيارات الفرنسية التي تخرق الواحة
وتصعد المرتفع في ظاهور طويل متجهة إلى توس.

ولكن غيابه المستمر عن المدرسة اكتُشِف. وتّخه عمه فقرّر
الهرب نهائياً. تسلّل من البيت ليلاً ومشى تاركاً الواحة خلفه.

مشى حتى تلاشى نباح الكلاب وأطلّ القمر الشاحب.
توسّد يده على قارعة الطريق وقرّر أن ينام. نعس بعض الوقت

فحلّم بالأفاعي والذئاب. لسعة برد الخريف فنهض وقرّر أن
يوصل مسيرته.

وصل عند الصباح فوجد المضارب مهجورة. رحل أهله
ورحلت غزالة. ولم يبق خلفهم سوى الرماد القديم يتأثر هنا
وهناك.

تفحص الآثار بعض الوقت ثم اتجه نحو السهول المجورة،
حيث كان يرعى الأغنام مع غزالة. ولكن السهل الأخضر كان
قاحلاً. اختفت الأعشاب الخضراء وجفت أغصان الرتم
الساحرة. وقف عند شجرة الرتم التي أكل منها مع غزالة لأول
مرة، تناول غصناً وضعه في فمه ولكنه تهشم بين أسنانه
كالخشب، كالعظام.. لقد غادرته الحياة. بصقه على
الأرض وجلس يجول ببصره عبر الوادي الأجرد. حتى.. حتى
رأى لطائر. نفس الطائر المقدس.. يرفرف بجناحيه الكبيرين
على ارتفاع منخفض متحياً نحو الشرق. استمر يتابعه ببصره
حتى اختفى. قال في نفسه «إنني أراه للمرة الثانية. المرة الأولى
تجلب السعادة. والمرة الثانية نذير شؤم».

جلس حتى منتصف النهار. ثم نهض ومشى نحو
الشرق، في الاتجاه الذي اختفى فيه الطائر المقدس.

وارسو

1985- 3- 16

مولد الترفاس⁽¹⁾

«سبقت إلى الجزئيات في تجزأت لا بالخذة وسبقت إلى الخذة
في تحدد، لا بالمكان. وسبقت إلى المكان في تحكّر، لا بالمسافة
وسبقت إلى المسافة: في سافت، لا بالفضاء. وسبقت إلى
الفضاء في تفضاً، لا بالهواء. وسبقت إلى الهواء في كان
هواء، لا بالهاء. وسبقت إلى الهباء في كان هباء، لا بالإبداء.
وسبقت إلى الإبداء في كان إبداء، لا بالمدى».

م.ع. الثعري

«موقف لاستواء»

(1) لترفاس نوع من الكما ينمو بالحماة الحمراء - الصحراء الليبية.

1- الكنز

هذه تعويذة الرعاة.. هذا طلسم قبائل الصحراء في
البحث الموسمي عن الثمرة السحرية..
- يالرقا⁽¹⁾ وبين الترفاس؟

هذا هو السؤال الأبدي.

- نبتة وكلوه الناس!

وهذا هو الجواب العدمي.

دائماً يأكله أناس مجهولون لم يرهم أحد. وربما لا وجود
لهم. دائماً يختطفونه قدامك، من بين يديك. ربما هم الحن.
يسبقون ليأخذوا كنزهم بعيداً عن متناول الإنس. كما تعودوا، أن

(1) ترقق نبتة صحراوية يعتقد أهل الصحراء أن زهورها تلعب دوراً في تكوين
الترفاس

يفعلوه، مع الذهب. أليست الكنوز كلها ملكاً موقوفاً على أولئك
الخند الخهولين ؟

ولهذا فإنّ الجواب الخائب، العدمي، دائماً فيه لوعة، ورمي
هزيمة. «نبتته وكلوه الناس».

هكذا يتطوّر الرعاة ليحجبوا نيابة عن الـ«الرقا»
الحرساء !

ولمّا لم تعرف الصحراء منذ أن أصبحت صحراء، ثمرة ألدّ
ضماً من الترفاس فقد أصبح البحث عنها تقليداً قدّسه الأولون
وأورثوه للأولاد والأحفاد.

ولكن موسم الترفاس سر. ونمو الثمرة حيّر أهل الصحراء
منذ الأزل.

قال فريق ظهور الثمار الخفية مرهون بأمطار خريفية
غزيرة تعقبها أمطار شتوية تناسبها في السخاء.

ويؤكد فريق آخر قائلاً إن السر الأول يكمن في أمطار
الصيف تدعمها أمطار الخريف والشتاء.

ويقوم فريق ثالث ويطعن في رأي كلا الفريقين مستنداً إلى
تلك لمواسم التي كثر فيها محصول الثمرة السحرية في سنوات لم
تشهد فيها الصحراء قطرة مضر واحدة، لا في الخريف ولا في
الصيف ولا في أي فصل من الفصول الأربعة. ويعتقد هذا الفريق
أن الترفاس علاقة مباشرة بالسمااء. ويروق لهؤلاء أن يحبو أي

سؤال يعجزون عن الإجابة عنه، سواء كان يخص الترفس أو أي سر آخر من أسرار الصحراء الكثيرة إلى العرافين. ويبررون ذلك قائلين إن الترفاس مثل أي كنز في الصحراء سر. والأسرار تدخّن في احتصاص العرافين. الله حرم علينا أن نأكل أرزاق بعضنا بالباطل فكيف نتزع خبز العرافين من بين أيديهم؟

2- إشارة

الترفاس كسر، واكتشاف الكنز مشروط بالطلسم.. مفتاح لسرّ، فأين طلسمك أيتها الثمرة السحرية؟

أهو بين يدي العرافين حقاً كما يؤكد الأهالي؟

دعونا نطرق باب العرافين ونقرأ في عيونهم المجهولة، العمياء دائماً.

عيون العرافين في الصحراء دائماً فارغة وعمياء. ويقول العارفون الرّحل إن هذه عاهة طبيعية لمن رزقه الله بالبصرة.

البصر والبصيرة لا يجتمعان، وهي حكمة معروفة في بلاد العرافين الأصلية «كانو» البعيدة!

فماذا تقول عيون السحرة الفارغة عن أصل الترفس؟

قلت العرافة الرّنجية الشهيرة وهي تنظر في انزع لأبدي بعينها العارغتين، وتشير إلى الأفق الممتد بيدها الحيلة الموسومة بعروق بارزة:

انظر ! خلف الأفق يلوح ضوء غامض.. بهرة حفية. لا
تنظر إلى الشمال فتلك بهرة من نوع آخر. تلك ورقة يلوح
بها البحر البعيد المستلقي في اليم العميق وراء جبل نفوسة.
انظر إلى اليسار، نحو الغرب. هناك يلوح الضوء الخفي
الذي أريد أن أحدثك عنه. هل رأيته الآن ؟ إذن تمهل،
فعماً قريب سيحتمع العمام. غمام كثيف محمل بمطر غزير
هذا ماء النهر الذي رفعه الله من الأرض ودسه إلى جوره في
السماء عندما أراد أن يعاقب هذه القبائل الشقية في الزمان
القديم فتحوّلت الدنيا إلى صحراء كبرى. نهرنا في السماء كما
ترى. ويرق قلب الرحيم على العباد فيريه بين الحين والآخر،
ويتلطف أحياناً أخرى، ويبلل ريق الصحراء العطشى بقطرات
منه.

انظر الآن. السحب تتحرك، تسعى، تزحف نحو
الشرق. هل أحسست بالنسمة المغسولة بالنهر السماوي ؟ الريح
لمغسولة بماء النهر فقط تستطيع أن تغسل الرئة وتشفي المصابين
بالربو. في الهواء رائحة. آه من هذه الرائحة الربانية ! لا تقل إنها
رائحة مطر في الفضاء المصهور بالعبار والشهد. هذه رائحة
أخرى. رائحة عطش.. تستجدي الإشارة، تتوسّل أن تنزل
وتستقر لتقي في الأرض.. لأنها تريد أن تهجر العدم، تريد أن
تكون.

إنها تنتظر الإشارة.

ها هي الإشارة !

هل رأيت الإشارة ؟

السوط المفتول من السنة الشرر يفلق الأفق المنحهم،
المزدحم بالسحاب المطير. السوط الرباني لبي توسلات الشذى
السحري.

3- النداء

لا يولد السرّ إلا بالنداء. اسمع الدممة.. همس المجهول..
ثمّة العدم. التمتّة تسبق الدممة المسموعة. الصحرء تصفي،
تهمد، ثموت انتظاراً. ورائحة الشذى المجهول، المشطور بضربة
الضوء الإلهي يتضوّر توقاً إلى النداء. هل سمعته الآن ؟ إنه واضح
د.. د.. د.. م.. د.. د.. د.. م ! دم.. دم.. دم. انهيار صرح في
الغيب. وعراك الجن في الفراغ. وشوق الملهوف لتبيرة النداء
الوجودي. يركب جناح الريح ليرتمي في أحضان الملهوف.
يستقي النقيض بالنقيض، ويتحدان، يتعانقان، يتداخلان،
يلتحمان.

يحتم على الصحرء صمت القبور. يرتل الجن آيات
من كتاب الميلاد. تخشع الملائكة وترقص الحوريات في
الحنّات.

ستمرّ الالتحام حتى يذوب النقيض ويستنحس الضوء
والشذى كلاهما واحداً.

4 التكوين

تمتدّد البذرة في العدم، تلتقط أنفاساً من باطن الأرض. في تراب الصحراء أنفاس كثيرة. الباطن مشبع بشذى الزهور الأسطورية. بكلّ الزهور التي تلاحقت في الأودية والسهول في الربيع عبر آلاف وآلاف السنين، تمتصها بذرة الترفاس وتحتضنها في صدرها البكر الذي بدأ للتو يتكوّن وينمو ويتمدّد، ويبحث لنفسه عن مكان بعيد في باطن الأرض المبلّلة بدموع السماوات، المعطرة برهور الآلاف من السنين. الأرض الآن ترتجف. الأرض حسي بالثمرة السحرية، الثمرة الوليدة من تزاوج بشارت السماء ونداءاتها ببكارة الأرض العطشى للحب والماء.

إنماءات السماء تثمر في رحم الأرض الرحيمة. تثمر سحراً خفيّ مدوّراً كنهه صبية عذراء. تتعدّد ألوانه وحجومه ومذاقه. الكبير والصغير والمتوسط. الأبيض والأسود ولأحمر. والمذاق؟ والرائحة؟ كيف يمكن وصف مذاق ثمرة لقاحها في السماء ومأواها من الأرض؟ كيف يمكن وصف مذاق ثمرة تشبعت بأزاهير ألف عشبة أسطورية وألف زهرة صحراوية؟ كيف يمكن وصف شذى نبتة صنعتها البروق والرعود والرياح والشوق، شوق السماوات العلى إلى لقاء الأرض المعدّنة بيران العطش والجفاف والهجر الطويل؟

كيف يمكن أن تستقيم العبارة الصمّاء في التعبير عن الأعحوبة؟

وبرغم هذا المستحيل يتجاسر الإنسان الجهول ويفتح فمه
مدّعيًا المعرفة والعلم. فيا لها من بجاجة وجهالة اتّصف بها هذا
المخلوق دون سواه !

5- الحجاب

يظلّ الكثر مخفى في الجوف. ينمو، يتمدّد، يستدير بركن
بجسمه المزموم. يخنقه القبر. يكتّم أنفاسه التراب القاسي.
يقاوم. الحياة أقوى من الموت حتّى في جوف القبر. يدفع الحصر
من حوله. يدوس الحبيبات الصغيرة العنيدة الحمراء. نهرسه
الأرض. لا يستغيث. تتلاحق أنفاسه القوية، يملأ جسمه المتنامي
بالهواء ويدفع الطبقات السفلى. يستدير. يتكتّل. يتممّل. يفلق
الحجاب. يبحث عن متنفس. عن طريق للخروج، للرؤية. لا
يجد القرب راحة حتّى ينعم بمقام الرؤية. تكبر الكتلة. تتكوّر.
تندفع في كلّ الاتجاهات. ولكنّ رأسها يظلّ مندفعاً إلى الأعلى.
نحو المجهول. نحو الأصل. كل فصل يرجع إلى الأصل كما يحن
لولد إلى الوالد. الجزء إلى كلّه. لا بدّ من عمزيق اللثام. لا بدّ أن تقرّ
العين بمشاهدة ضوء النهار.

6- الكشف

تشقّقت الأرض في الشعبة المفضية للسهل. السهل يكتطّ
«لرق» الخضراء. برزت التشقّقات وارتفع التواء العارض. في

النهاية انشقت الأرض عن الكنز الدفين وأطلّ رأس الوليد
السحري العنيد باحثاً عن ربّ السماوات والأرض. هي الصاح
دائماً تدو قمم جبال الحساونة⁽¹⁾ مغلفة بغلالة ررقاء، غمضة
أيضاً.

رأس الوليد السحري اتجه صوب تلك القمم الإلهية
الجليلة.

من الشمال هبت نسمة الربيع التي تمسح هموم لقيظ في
الصحراء. هل حريت أن تعطي خذك وتفتح صدرك لنسمات
الرطوبة من الحمادة الحمراء؟

آه ! لا يعرف مذاق هذه النسمة إلا من صهره الصهد
وذاق طعم القبلي.

المعجزة الآن اكملت.

فهبي أيتها النسمات الشمالية الرحيمة، وارقصي يا
حوريات العيم، وابتسمي يا سماء وقبلي جبين الصحراء
المقهورة. لاطفي الأرض وحتى على تراب الحمادة المسكين.
تعانق البرق والرعد في مكان ما بعيد. وتبادلا التهانى في
المجهول، فقد تكوّن الجنين من العدم، وطلع في نهار ربيعي.

1. حين الحساونة (سمة إلى قبيلة بهذا الاسم) سلسلة جبلية تمتد حووب بيبيا
عد نهاية الحمادة الحمراء.

وتوجه برأسه نحو قمم جبال الحساونة الزرقاء كي يتواصل في الأصل ويتحقق بالكل.

ولكن هل وجب الغناء والفرح عندما تكتسب الحياة وتكامل لدورة ؟ نحن العرافون ننصح باللطم والعوين.

7- الفناء

مع هذا المصير لا تنفع تعاويذ السحرة.

طلع البدر واستدارت الترفاسة السحرية في العراء المكشوف.

عارية، حاسرة الرأس. طلع النهار فاكتوت بنار الشمس. شربت الرطوبة وامتصت منها الحياة. استمرت تعلن عن نفسها وتنتظر القطاف. أين الرعاة ؟ أين الغزلان ؟ أين الفئران ؟ أين الطيور انبرية ؟

الصحراء مهجورة. الصحراء مهجورة منذ زمان.

الرعاة هاجروا إلى المدن وتناولوا في البنيان.

الغزلان أبادها المغامرون ببنادق الخرطوش وسيارات اللاندروف.

الفئران ابتلعها الأفاعي. الطيور أقلعت إلى الشمال في هجرتها الجماعية.

هَبْ انقبلي.

أَقِل الصيف.

تَفَتَّتِ الرأس، ثم الجسد. اندثرت الترفاسة، وسقت ربيع
لنسي الهباء. تراكمت طبقات السكون وتكاثفت فوق الحلاء
المدمش، انهجور. تحاور الجن في ظلمات جبل الحساوة. وفي
لبس ضحوا بضحكة مجلجلة ترّد صداها في العراء الأيدي.
قالت العرافة العمياء

- همهم الجن العنيم بكل شيء خفي: الكنز يعود إلى مولاه كما
يرجع كل شيء إلى أصله، الابن إلى الأب، والعبد إلى الرب.

موسكو

(1989)

وطء الرؤى السماوية

«لقد كانت الصحراء دائماً وطن الرؤى السماوية»

روبرت موزيل

«الإنسان بدون مزايا»

1- السَّفر

استمرت الصحراء تمتد وتباعد طوال السفر. العراء الفسيح، القاسي، الأبدي، يلد في نهايته أفقاً لثيماً. ولأفق يد، بعد مسير، الأفق. وكلما توغلا في الرحلة، كلما ازداد لأفق خلوداً، وإصراراً على التوالد. في البرزخ الممدود بين لعراء ولأفق تدفق السراب، ومدّ لساناً لعباً لا يتوقف عن لغمر والتعج و لإغواء. كأن العناصر الثلاثة تأمرت، في حلف خفي، وصممت أن تجعل من رحلتها سفرأ أبدياً. فطوال أيام وأيام من الامتداد والكشف والعري، لم ترتفع قمة لراية، ولم يفصح

الأفق خيالاً لرممة أو طنحة أو شبح غزال، كما لم يتسارل الخلاء
المكرر فينحني، راکعاً إلى أسفل، ليفضي إلى واد. مضى يغطي
بسحابة من الحصى، ويتكسى بطبقة رقيقة من الحجارة حرقتها
نار الشمس الحالدة. فوق السطح المكشوف، العيد لم تنبت
عشبة واحدة طوال الأيام الماضية.

في الغلا انحنى فوقهما سماء جرداء، صارمة، تتحللها،
من حين لآخر، سحب عزلاء، تائهة. في النهار تستبد الشمس
مهذدة بعذاب يتردد على طبيعة ذلك الوقت المبكر من فصل
الربيع. وفي الليل تسود النجوم في غناقيد كبيرة وتظل ترفص
ابتهاجاً بغياب الشمس حتى يدركها نور الصباح.

في النهار يرحلون ركوباً على ظهر المهري. يجلس الأب
على السرج المنصوب أمام السنام، في حين أعذ له مقعداً آمناً في
لفج الخنفي الذي يقسم الظهر ويجاور السنام من وراء. يرحلان
في الليل أيضاً عندما يطلع البدر، ولكن الأب يؤثر أن يقطع
المسافة مشياً، فيقود المهري ويتركه جالساً في الفج يسمع
السكون ويغالب التعاس.

ولكن الأب لا يتسلى بالغناء إلا إذا كان راكباً.

يتنهد بفجعية ثلاث مرّات متتالية. يتعلّق بالأفق العيد
زماً. ترتحي الأعضاء المشدودة وتتراحي عن شدّ اللجام. يتحرّر
عنق الجمل فيمدّ رقبتة إلى أمام ويباعد بين خطواته. ولكن انعر،
لا ينتهي، ولافق لا يستسلم، والسراب لا يتوقف عن الإعر،

و لسخرية. لحظتها يرتفع الصوت الوحيد الذي يقهر العراء
و يركع الأفق، ويدرك السراب ينطلق الصوت خافتاً، خجولاً،
متمهلاً، واعدأً بالفجيعة. يظلّ يعلو ويتمادى حتى يتواصل في
المَوَالِ الشَّحِيحِ الحزين ديه- يه- دا- ا- ا- ا- هـ...

يتوقف السراب عن العدو يتراجع العراء. يُقْسُ لأفق.
تقترب السماء من الأرض، وسكت الكوكب الصحراوي
ليتصّت..

يستمرّ المَوَالِ الأبوي الفاجع طويلاً.

وعندما يتوقف يهرب العراء من العراء. يتوالد الأفق من
الأفق. يركض السراب ويتلاعب بلسان اللؤم والسخرية. تتعد
السماء في لفضاء وتهرب الصحراء من الصحراء. وتبس المتاهة
قناع القساوة والصرامة.

تواصل الرحلة ولا يبقى من الغناء إلا الفجيعة وحدها.
بعد لأغنية يكتب الأب طويلاً. يصوم عن الكلام زمناً قد
يستمر حتى نهاية المشوار في ذلك اليوم. يتجاهل أسننه ويغيب
في السكون. يظلّ ثابتاً فوق السرج، مشدوداً إلى الأفق العنيد،
غير عابئ بدعابات السراب.

في اليوم العاشر تعب الطفل وسأل الأب
- أما زال الطريق طويلاً؟

تباطأ الأب في الجواب
وهل أردت أن تبلغ واو بين يوم وليلة؟

هل هي بعيدة إلى هذا الحد؟

- واو أبعد من كانوا وأقرب من حبل الوريد.

- لا أفهم

هذا ما يقوله الدراويش، ولكن لا بد أن تشقى في الحالتين.

- لا أفهم.

سكت الأب. شهق بالفجعة ورفع صوته بأغنية أليمة.

أراد الصبي أن يجد المبرر لتسرع فانتظر حتى انتهى الأب من الموال فقال كالمعتذر

- أردت أن ألقى جذي بأسرع وقت. هذا هو السبب.

فتمتم الأب باقتضاب

- أعرف.

ولكن الابن لم يتوقف عن السؤال في ذلك المساء. قال

- حدثني عن جذي ا

تحدث الأب

لم أراه منذ زمن طويل جدًا.

في الأفق برز الشطر العلوي من قرص البدر. تابعه الطفل

وهو يتمرغ في برزخ العراء. وعندما اكتمل وراه يتحرر من يد

الصحراء قال

- حدثني عن واو.

- واو وطن مفقود.

- مفقود؟

- ولكن هذا لا يعني أنها لا تفتح أبوابها لاستقبال الذين يجدون
في لحث عنها. إذا تعبت هربت منك وإذا صبرت وصت.
- وأنت؟ هل سبق لك ودخلت واو؟

سكت الأب لحظة. قال

كيف أشرح لك؟ واو وطن فريد بين الأوطان. ثمّة من
يحملها في قلبه ويهاجر بها. وثمة من ينفق عمره طلباً لها.

تنحنح بحدة ثم أضاف

- ولكن دعك من هذا. فانا لم أشأ أن أذهب وأتركك وحيداً في
الواحة. لأنني إذا دخلت إلى واو فمن الصعب أن أخرج منها
ثانية.

- لماذا؟

- ماذا أقول لك؟ لكل أرض مزايا. هذه مزية من مزاياها. ولكن
قل لي...

سكت قبل أن يضيف

- أليست سعيداً بأنني لم أتركك في الواحة وأذهب وحيداً إلى
واو؟

- طبعاً.

- أأم يتعبك السفر؟

- أبداً.

- أحسست. راهنت دائماً أن تكون صبوراً. الرجل لا بد أن يتعبه
التعب إذا أراد أن يشمي إلى الصحراء.

- قست لي ذلك كثيراً.
- هدام لمن أمن من تكراره.
- ولكنت تحدثني عن واو. جدتي تقول إنها وطن الجس.
- أهل الواحات لا يرون في الصحراء، إلا الجن، ويزعمون أن أهلها أنفسهم أشباح.
- جدتي تقول ذلك أيضاً.
- لا تستمع لما تقول، يجدر بك أن تتباهى بالانتماء إلى الصحراء. هل أنت فخور بأنك ابن الصحراء؟
- أجاب الولد بلا تردد
- طبعاً.
- أحسنت. هذا يعني أن واو ستفتح لنا أبوابها.
- هذا سيروق للحاجب. يقال إنه لا يفتح الأبواب إلا لعشاق الصحراء.
- حقاً؟ ظننت أن الباب يحرسه الثعبان دائماً.
- ثعبان أو حية أو ضب. القناع لا يهم. يروق له أن يلبس ثياب ثعبان.
- قست لي مرة إن الثعبان عدو. لأنه طرد الجدة من وطنه واو.
- عدو وصديق. عدو لأنه شردنا، وصديق لأنه يشفق علينا من أتيه ويفتح لنا أبواب واو في أية لحظة يشاء.
- هرش الطفل رأسه الذي يشقه الشعر كعرف الديك. سأل
- بعد تردد :

- ماذا يفعل الناس في واو ؟
- لا أدري. الصحراوي نسي منذ خرج من هناك. السيار لعبة المشتريين.
- هل هم سعداء ؟
- لا شك في ذلك. لو لم يكونوا سعداء لما قتلهم الحنين شوقاً للعودة.
- جدتي تقول إن أهل الصحراء أشقياء وواو لا وجود لها.
- لا تستمع إلى حديثك أبداً إذا أردت أن تنتمي إلى الصحراء. أهل الواحات يقولون ذلك لأنهم عبيد.
- قالت لي عندما خرجنا «تذكر أن واو هي السراب. أبوك ضائع ولا يعرف ماذا يريد». هكذا قالت.
- سكت الأب. أنصت للسكون. متع البدر فوق الأرض قامة. تكلم الأب
- تقول ذلك لأنها لا تريدك أن ترافقني إلى واو. جدتك تريد أن تشكك في الأرض لتصبح عبداً مثلها.
- لا أفهم.
- من الصعب أن تفهم ذلك قبل أن تصبح صحراويًا. ولكن تذكر أن كل من أمسك معزقة وخدش الأرض فهو عبد. كل من بنى كوخاً وسكن بجوار العين فهو عبد.
- لماذا يا أبي ؟
- من الصعب أن تفهم ذلك قبل أن تصبح صحراويًا. الإنسان في الصحراء لابد أن يكون إما نحلة مشدودة إلى الأرض

ياخدور، وإما ريح القبلي التي تهاجر دائماً. الفلاح هو السحرة،
والصحراوي هو القبلي الذي لا يتوقف عن السفر. فأيهما نبيل؟
- القبلي !

- أحسنت. أيهما تختار ؟

- انقبلي !

- أحسنت.

سكت الأب فسكت الابن. متع البدر أشباحاً أخرى
فتوغت الصحراء في الجلال والسكون.

قال الأب بلهجة غامضة

- ليس الفلاح عبداً لأنه يعشق الأرض، ولكن لأنه يقبع في
الكوخ منتظراً منها الإحسان !

هتف الطفل بدهشة

- الإحسان ؟

- كل من انتظر عطية فهو عبد. العطية قيد حتى لو كانت من
الأرض.

- حياة لفلاح كلها انتظار للعطية. للخبز. للقمّة المسمومة !

هتف الابن باستنكار

- مسمومة ؟

فقال الأب بهدوء

- كل لقمة تستعبد الرجل فهي سمّ أسوأ من سمّ الحية.

- والصحراوي. ألا ينتظر الصحراوي عطية الأرض ؟
 - أبداً. لصحراوي يتغطى بالسمااء المرشوشة بالنجوم، ويتوشد العراء المفتوح. يتنقل كالعزال، ولا يركع لمكان. إنه طليق مثل الطير وليس رهينة تنتظر حلول موسم الحصاد في الكوخ.
 من الشمال هبّ هواء البحري. شدّ اللّجام فتشكّى الجمل المأ. ترّجل الأب بوثة واحدة. قال وهو ينيخ الجمل
 - هنا سنبيت ليلتنا.

2- الزعيم

قبل السفر بشهور رحل إلى القبيلة وحاوّر الزعيم.
 وجدّه يتربّع على الكلیم، يستظلّ من نار الشمس بحضيض الخباء الشرقي. ينتهك الموقد بالمسعر ويعدّ شاي العشية بنفسه. جالسه طويلاً. تحدّثا في كل شيء الجحف وأخبار السيول. المجاعة والتجارة. الغزوات وغارات القبائل لمعادية. النبل والعار. الصحارى والواحات. البطولة والجبن. نهى الأرض وواو السماء. الحرية والذلّ. الحياة والموت.

زحفت العتمة فبدأ

- تحدّثنا منذ قليل عن قبح العبودية...

قطع الجملة فحدّجه الزعيم بنظرة استفهام. واصل
 - الحق أنني لا أريد لابني أن يمتهن الفلاحة فتقع دريتي، من بعدي، أسيرة الأرض.

بالمسعر رسم الزعيم رموزاً غامضة على الأرض. كشفت
عيناه انتسامة متساحمة. ابتسامة حكيم صبور عندما يروض ولداً
شقيماً. رفع رأسه فجأة وقال باقتضاب
كساً إلى الأرض. حتى لو طار العبد إلى السماء فإنه يرجع إلى
لأرض. ليس ثمة مخلوقات أكثر حرية من الطيور ورغم ذلك
فإنها تموت على الأرض.

هتف كأنه انتظر هذا الاحتجاج
- انتظر ! لا يحمل كلامي إدانة أو إهانة للأرض. ولكن هناك
فرق أن تتنقل، وتهاجر كالطائر في أنصحاء الواسعة وبين أن
تمزق وجه الأم بالخراب وتربط في الكوخ طوال الحياة لتلقى
منها الإحسان.

ابنسم الزعيم مرة أخرى فواصل المفاضلة بين الأرض
والسماء

وحتى عندما يتعب كوز الطين ويبيد وتقرب الساعة التي
يتحرر فيها عصفور النور من وزره فإن الأرض لا تأخذ إلا كوم
العظام. أما العصفور فيطير إلى واو.

أنا لا أفهم لغة القادرية، ولكن عشق الصحراء ثم يعتمى
احتقار الأرض مثلك.

إنه ليس احتقاراً للأرض. ولكنه احتقار للعودية. فالنخلة
مكبرة؛ صورة، متساحمة، ترميها بحجر فتدّه إليك ثمراً رطاً،
ولكن جذورها مشدودة إلى التراب. السر في الجذور.

هز الزعيم بالمسعر في وجهه

- نعم. السر في الجذور.

- أردت أن أقول إنها جذور الذل.

- وماذا لا تقول إنها جذور الحياة؟ لولا هذه الجذور لما أطعمت
رطباً.

- آه لو كانت النخلة بلا جذور

- لا شيء بلا ثمن. الجذور التي تسيح في الفضاء لا تعطي الثمر

ترنح كالمجنون قبل أن يتمتم بنرة فاحشة

- ما أفسى الجذور التي تهينا الثمر وتضع في أيدينا القيد ! ما
أفسى الجذور التي تعطي الحياة مقابل أن ترانا مكبلين بسلسلة
طولها سبعين ذراعاً. ما أجمل النخلة لو بقيت سابحة في الفضاء
بقامتها المكابرة، الحسنة.

سأل الزعيم ساخراً

- وكيف ستملأ الشكوة الخوفاء التي تحملها بين السرّة والصدر؟

ولكنه مضى في شطحته

- سأجوع، سأجوع مثل دراويش القادرية.

- الجوع هو الذي سيجبرك على الاعتراف بالنخلة نزيهة
الأرض.

- شيخ الطريقة يقول إن الجوع ينصر العصفور ويخلصه من
استعداد البدن. لقد جرّبت في الواحة وتهيأت أيضاً لأن أطيّر.
ولكن شيخ الطريقة قطع صيامي وقال لي إن الأوان لم يحن بعد.

لأن المرید لابد أن يعبر قنطرة اسمها الحياة إذا أراد أن يأتي إلى الخلاص من أقصر طريق.

- لا أفهم في أسرار القادرية، ولكن اليقين أنك لن تستطيع أن تقطع لحدور بالأرض ما دمت تحيا على الأرض. القيد إتاوة يدفعها كل حي ما دام على قيد الحياة.
- ولكن الصحراويين لا يدفعون هذه الإتاوة.

هنا صحت الزعيم لأول مرة بالصوت المسموع
- لا يدفعون الإتاوة حقاً، ولكنهم لا يحبون أيضاً. من قال لك إن الصحراويين أحياء؟
- الدرأيش يقولون إنهم أطياف والفلاحون يقولون إنهم جن!
استمر الزعيم يتسم بغموض. عمّت العتمة، زحف نحو الموقد ومذه بالخطب.

ترجع وبدأ يعدّ شايا جديدا. تجهّم فجأة قبل أن يقول
- دعنا الآن من شريعة الواحات وتعال معي إلى عقيدة الصحراء.
أنت تعرف أن القبيلة لن تقبل ابن الأعراب حتى لو أراد الزعيم ذلك.

استنكر القسوة

- ولكنه ابني

فمضى الزعيم بنفس البرود
- الابن ابن أمه. الابن يمشي وراء أمه حتى لو كان ابن لزعيم نفسه. هذه شريعة ورثناها عن الأسلاف، ولم يتدعها الزعيم.

قال بصوت كالتوسل

ولكنه سيضيع في الواحة. سيصبح فلاحاً. عبداً. هل يرضيك
أن أسلم ابني الوحيد للذل؟

نستأنا من اختراع الشريعة. والزعيم يكف عن أن يكون
رعيماً في تلك اللحظة الجنونية التي يخالف فيها تعاليم
الأسلاف.

- ولكنك تعرف أنني مهاجر وحيد ومعلول، ولا أستطيع أن
أصنع منه رجلاً صحراوياً إلا في القبيلة. ثم.. ثم لا تسر أنه يتيم
الأم. وهو وحيد مثلي..

- التعاليم تقول إن الرجل يدفع ثمناً قاسياً إذا وافق هواه. أظن
أن دراويش القادرية أيضاً يقولون شيئاً من هذا القبيل. أردت أن
أقول إن الرجولة تقضي بأن تتحمل ثمرة الهوى. وأنت تعرف
متى ارتكبت الخطأ.

هيمن صمت توجع الحطب في النار وشحن الصمت
بمزيج من التوتر.

قال

- أعترف أن ذلك كان خطأ. ولكنه خطأ مبرر. أقمت في
الواحات ضباً للعلم والحق. والإنسان لن يظل بلا امرأة إلى الأبد
حتى لو أراد.

- سوف نختلف هنا. أنا أرى أن على الرجل ألا يتحد امرأة إذا
أراد ألا ينجب عبيداً.

ولكن الصحراويين يتجنبون ذرية للحرية.

هبة الزعيم

- درية لحلاء. للفناء. ما هي الحرية إن لم تكن فناء؟ ما هي الصحراء إن لم تكن فناء؟ ألم تتفق منذ قليل أن الصحراوي هبة ريح في الهواء، وهباء في الفناء؟ ألم تتفق أن الصحراوي، لهذا السبب، لا يحيا؟

سكت ثم أضاف ييقين

- من حياء بدرية من امرأة الأغراب فعليه أن يدفع الثمن بروح راضية.

- ما أقسى الثمن عندما يكون عبودية!

- أيهما أقسى العبودية أم الفناء؟

أجابه يومها بلا تردد

- العبودية.

وكرر

- العبودية يا جلالة الزعيم.

تكلم الزعيم بعد صمت

- أعرف أن شيخ الطريقة زين لك الصحراء وشبه لك الفناء نعيماً. يقال إن أتباع الطريقة القادرية يرون في الفناء نعيماً.

بحثوا عن الفناء في السماوات إلى أن وجدوه على الأرض، في الصحراء. بعضهم يعيشون الصحراء أكثر من أهل الصحراء أنفسهم، هذا ما فتتك وغذى فيك السفر.

لم يغد في النزوع إلى السفر غير الصحراء. في السفر دواء عتي.

- لا دواء للعلّة عندما تكون في الصدر.

بدأ يخلط الشاي ويصنع الرغوة وأضاف

- ولا حماية للذريّة من العبوديّة غير قهر الهوى ولزهد في المرأة!

هتف موافقاً

- صدقت. الاقتراان أصل البلاء، ولكن لا تظنّ أنّ الرجل يرتكب هذه الحماسة بدافع الرغبة دائماً. رجال كثيرون يفعلون ذلك لا لشيء إلاّ لأنهم ورثوه عن آبائهم.

- والآباء يقولون إنهم ورثوه عن الأجداد، والأجداد يقولون إنه وحي سماوي يحمي الحياة من الزوال.

- هذا الوحي السماوي الوحيد الذي على الإنسان أن يكفر به. - أستغفر الله.

مدّ له الشاي في كوب خشبي. اقترب منه الزعيم وقال - حتى لو خالفت الشريعة وقبلته في القبيلة فإنّه سيعيش منبوذاً. عبداً.

- أن يعيش عبداً في الصحراء أهون من أن يعيش فلاحاً في لواحات.

- أنت تخطئ وتعتدي على الناموس الحكيم. إذا ما هي، لأم إن لم تكرر الأرض؟ كل الثمار تنضج بمساعدة الأرض. وكل ثمرة هي حير للأرض. اللقاح يأتي به الريح طائراً في الهواء، ولكنّ البسح ينضج في النخلة المشدودة إلى الأرض بالحدور. دور

الرحل أيضاً عابر . فلماذا تلوي العصا في يد الناموس ولا تريد أن
تتخلّى للآم عن جنينها الذي ولدته ؟
- ولكن أنت تعلم أن أمه ماتت .

تضاحك الزعيم باستخفاف :

- وأنت تعلم أيضاً أنها حيّة فيه .

ثم اقترب منه مرة أخرى . مال نحوه برأسه حتى سقط
طرف عمامته على منكبيه . قال
- سأذيع لك سرّاً . أنا أريد أن أحفف عليك فاسمع سرّي .

سكت فجأة . تمهل لحظة ثم أذاع السر

- أنت لا تعلم أن لي ابنة من امرأة زنجية .

- لا !

- عقدت عليها في كانوا منذ زمن بعيد . كنت أقوم برحلة تجارية
وأنا في عمر الهوى والحماقات . راقّت لي فتروّجتها . انجبت بنتاً .
والبنت الآن في عصمة زنجي .

- لا !

- نعم . نعم . ولي حفيذة زنجية . هل تصدّق أن حفيدتي زنجية ؟
هذا هو الثمن الذي دفعته مقابل خطأ الهوى . مصيبتك أهون
بكثير كما ترى .

- ولكن كيف وافقت أن تزوّج الفتاة لزنوج الأدغال ؟

- وماذا أفعل بها ؟ إنها ابنتهم . لم أرد أن أخالف شريعة الكوك
الصحراوي .

- شريعة قاسية !

- أنت ترى أنها قاسية وأنا أرى أنها حكيمة. فحتى لو حالقت
وحنت بها إلى القبيلة فإن حظها لن يكون أفضل. لن يقبلها
روحة سوى رنجي. فآثرت أن أدفع أهون الأثمان وأدفن عاري
هناك.

هيمن السكوت.

في البار توجع الخطب.

3- الخروج

عندما كان يخرج للمراعي وراء الجدبان، يجلس فوق
الرابية، يراقب الأفق المدهش، وينوح. استمرت المناحة فوشى به
الأقران للأب. في ليلة امتلكها البدر عاتبه بعد العشاء
- لا تبحث عن شيء وراء الأفق. الأفق صديق لسراب.
يتهامسان ويتآمران ويرتبان المكيدة. إنهما يعدّان لك مكيدة.

ثم يرد فواصل العجوز

- الأفق مش «سخر ك إيراضن»⁽¹⁾ فاحترس !

رقبه طويلاً، تحت ضياء البدر، ولكنه لم ينطق، فنكّمه
الأب

«لا تصدّقي؟ اسأل العراف عن الأفق إن كنت لا تصدّقي.

سخر ك إيراضن طائر ملوّح يستدرج الصغار إلى الصحراء.

لم يذهب لمسألة العراف، فجاء العراف بنفسه. زاره فوق
الرابية بعد أن أنصت لمناحته وهو يتخفى بين أشجار الرتم في
الوادي. وقف فوق رأسه طويلاً قبل أن يتقرّص ويتكلم -
كنا نعشق الأفق. كلنا ننوح حيناً لما وراء الصحراء.

سكت لحظة ثم سألت فجأة

- هل تشاق للمجهول مثلي؟

هز رأسه بالإيجاب فسأل نبي الغيب

- هل تقول الشعر؟

هز رأسه بالتفني فاقترح العراف

- يجدر بك أن تحاول. الشعر لغة المجهول. الشعر صوت
الحوريات، ثممة الجنيات. شكوى القبلي. سر الترفاس وإمالة
الزهرة في شجرة الرتم. لا يستطيع الصحراوي أن يقهر السراب،
المتأمر مع الأفق، بدون شعر

سكت فتكلم النبي

- هل تجذب في أمسيات السمر؟

هز رأسه بالنفي فاقترح علام المجهول

- الواحد نعمة أخرى. اسقط في الواحد وارقص مع لنغم. في
هذا أيضاً شفاء.

ونكنه لم يقل الشعر، ولم يذهب لميعاد الصبايا لسمع النغم

ويقع في الواحد. أثر الخروج والاتحاق بالأفق.

كبر معه الحنين واشتدّ. في صباحه قال له حكيم الرعدة
احترس الصحراء كوكب فريد. من خرج منه ضاع. هل
تعرف لماذا يضيع؟

ألقى في فمه بحفنة من التبغ. قضم من الطروبة قطعة
صغيرة وشرع ينوكها مع المضغة.

أصابع وهو يحكم الرباط حول صرة التبغ
- لأنّ حدود الصحراء هي الهاوية التي يتحدث عنها الفقهاء، لا
شيء وراء الصحراء سوى الهاوية، فاعلم واحترس!
ولكن نداء الخروج كان أقوى فلم يحترس.

خرج مع قافلة وزار الأفق. ابتسم في وجهه السرب
وسمّاه لآفاق أخرى. وعده بآفاق أخرى. يتغنّج، ويتدلّل،
ويطلع لسانه ساخراً. يتعدّد كلّما اقترب منه كما يفعل «سخرّك
ايراضن» في مناوراته ومداعباته وشقاوته وشيطنته. صدق
الوالد السراب و«سخرّك ايراضن» قرينان. توأمان، خلق
لترتيب المكيدة نفسها.

نزل الواحة.

التحق بالراوية القادرية ليجرّب الخروج الثاني. الخروج
الحقيقي. الخروج من الظلمات، من جحيم البدن. والالتحاق
سعيهم لمعرفة والروح. هنا تعلّم ضرورة الخروج. شيخ الطريقة
يضاً قل إن الخروج هو حجر الزاوية في الطريقة القادرية. فمن
لم يحرح لم يحرب، ومن لم يجرب لم يعرف، ومن لم يعرف لم
يشق. ومن لم يدق طعم الشقاء لم يدخل باب الفردوس.

حدثه كثيراً عن الحنين والمجهول والسراب والغناء والشعر
والعباء. ولكنه أكد أن كل شيء يبدأ بالخروج.

وكي يبدأ بتعلم هذا السحر حبسه في حجرة ظمء
بالراوية شهراً كاملاً. وعندما فتح له الباب وأذن له بالخروج قال
له «لن يخرج من غيب النفس من لم يتعلم كيف يقف مع
نفسه وحهاً لوحه». وقد اعترف للشيخ بعد زمن طويل أن تلك
التجربة كانت أقسى امتحان في رحلته كلها. وكان يبتسم
بغموض وهو يسمع الحفاء في لغة الشيخ، فينتهر المريد الداخلي
ليه «اخرج!» ويصيح في المريد الذاهب للخروج
«دخرا». وهي لغة دكرته بأساليب العرافين في المخالفة وتسمية
الأشياء بعكسها. قرأ الشيخ أفكاره فقال له «اعلم أن الداخل
إليك لن يكون جليسك بحق ما لم يخرج من سجنه. من نفسه.
واعلم أن الخارج منك إلى الدنيا لن يهتدي إلى الصراط ويعرف
ماذا يريد ما لم يتحصن بنفسه من السوى».

بعد ثلاث سنوات من الوجد والدرس والحبس رأى
لشيخ أن الحمرة في قلبه لم تنطفئ فقال له
- المخالطة من آداب المجاهدة أيضاً. ومن لم يخرج إلى الناس لن
يخرج إلى باب الفردوس. فاخرج إليهم، وعاشرهم، واعرفهم،
وعش الحياة أولاً

خرج إلى الناس فكانت المرأة في انتظاره.

لم يكن يعلم أن الأنثى هي الشرط الأول للخروج،
و لرواج هو الإتاوة الأخرى التي يدفعها كل من أراد أن يعاشر
الناس ويمارس الحياة.

حراث الأرض وامتहन الفلاحة. اجتهد في عمله ففاز بثقة
صاحب الأرض. صادقه وزوجه ابنته الوحيدة. جاهد نفسه في
لأرض، وفي الناس سنوات أخرى. تعلم معنى أن تررع وتجلس
في لكوح منتظراً الإحسان من الأرض. وعرف أيضاً وجه الشبه
بين المرأة والأرض.

عادت الجمرة تنوهج فناح في سره. صمم أن يحطم القيد
ولكنه اكتشف أن المرأة تشده إلى الأرض بسلسلة أطول من
السبعين ذراعاً. أنجبت له الولد كي تستعبده بالتسل كما حاولت
الأرض أن تستعبده بالخبز. ولكنه اكتشف أيضاً أن الحنين يرداد.
ووهج الجمرة يتضاعف ويشتد كلما اعترضه قيد في طريق
العبور والانطلاق. عاند وجاهد وذهب إلى الخلوة في أطراف
لواحة وتنوى ليالي كثيرة قبل أن ينتصر الوهج ويقنع بقطع
لجذور

ذهب إلى القاضي وعاد بورقة الطلاق، بوثيقة خلاص.
بعث بها إلى المرأة مع أحد الفلاحين وذهب إلى الزاوية ليحتمع
بشيخ الطريقة. عبث الشيخ بلحيته الوقورة وقال بغموض
- كيف وجدت الدنيا ؟

أحباب بقسوة

- في أسوأ حال. أسوأ مما ظننت !

تكلّم الشيخ بنفس الغموض

- هذا حال الدنيا. ولكنّ الخروج إليها يبقى شرطاً من الشروط.

رَدَّ بغضب

- ولكنّه من أقسى الشروط.

قال الشيخ بتسامح

- ماذا ظننت هل ظننت أن بإمكان المريد أن يطرق باب العيم دون المرور بجحيم الناس ؟ هل ظنت أن الفوز بالجمة يسير على هذا الحدّ ؟

ثم أخرج مسبحة صنعت حبيباتها من الأبنوس الحبشي وأضاف بلغة الطريفة

- ولكن الطريق أمامك ما زال طويلاً كي تفهم.

لم يستطع أن يضبط النفس فسأل بدهشة

- هل ما زال الطريق طويلاً حقاً يا فضيلة الشيخ ؟ ظننت أنني ...

ابتسم الشيخ. توقفت أصابعه عن دحرجة حبات

المسبحة. اتّسعت الابتسامة. انتفض مكباه الجليلان، غالب

الضحك. بل إن الشيخ الجليل يضحك. ضحكة حقيقية.

بصوت مسموع. بصوت مرتفع. لم يره أبداً وهو يضحك. لم

يسمعه مخلوق وهو يضحك.. كانت الابتسامة لعته الوحيدة.

ضحكته الوحيدة. أما الضحك في شريعته فهو تحديف.

الضحك رجس من عمل الشيطان: فما الذي جعله يتهدك الحرم

ويكرّر بالضحك ؟

مسح دموعاً بكمّ جلبابه واستغفر وقرأ بعض الأدوار قبل أن يقول

- أضحككسي. ما كان يجب أن تفعل ذلك. ولكّك طفل. طفل كبير. ولكن الطفولة لا تضير الرجل. بل إن كل الرّاحل العظام هم أطفال كبار. ولكن اعلم أيضاً أن الطريق لم ينته بعد. بل لم يبدأ بعد، الطريق مازال طويلاً.

- ولكّني تأملت كثيراً يا فضيلة الشيخ.

- وماذا تظن؟ الأّم هو الحياة. الأّم شرط الميلاد.

- شرط الميلاد؟

- يولد الإنسان للأّم. ولا يبعث الإنسان إلّا بالأّم. لا يولد مرّة أخرى إذا لم يتألّم.

سكت ثم همهم لنفسه

- الأّم شرط الوصول. الويل لمن لم يتألّم.

- الويل لمن لم يتألّم؟

ابتسم الشيخ مرة أخرى. قال

- إذ لم يتألّم الإنسان فقد مات غافلاً.

- السّوى تقول العكس من مات بلا أّم فقد عاش حياته سعيداً.

- لو كان السّوى يعرفون معنى الأّم لما كانوا سوى. لا يليق بأمرئ أن يحتاج بنّغة السّوى.

توقف الحوار. رفع الشيخ إليه نظرة مستفهمة وعرف

المريد أنه قرأ أفكاره مرة أخرى. قال الشيخ

- السّير أيضا طريقة من طرق المجاهدة، فحدّثني بم اتويت.
- حقّا ؟

- إذا علبك الحنين فسِر إليه لأنه يدعوك.
- حقّا ؟

- هاجر إليه. سر في الأرض. امض. اعبر. ولا تتوقف حتّى يفتح
لك الباب.
- حقّا ؟

ولكن الشيخ أغمض عينيه وغاب في الأوراد.
خرج من الواحة وسار في الصحراء سنوات.
استمرّت المسيرة منذ ذلك اليوم.

طاف الصحراء كلّها، ولكنه لم يتوقف عن السفر. يهجع في
العراء. أو يبيت تحت شجرة برية وبهيم في الخلوة، حتّى إذا هتف
لهاتف، وسمع النداء، هرع إلى الجمل وأسرجه وسلّم نفسه للأفق
المتحالف مع السّراب. في ذلك الوقت شبّ الولد وماتت أمّه
ملدوغة بعقرب. رأى أن يقذ نسله من استعباد الأرض وأذى
العباد، فذهب للتشاور مع الزعيم. هناك تلقى صدمة أخرى. هاله
أن يترك الولد عبداً في يد قبيلة لا ترى في أبناء المرأة الغريبة إلاّ عبيداً
وأغراباً فهل يستبدل استعباد القبيلة باستعباد الفلاحة ويستجير من
الرمضاء بالنّر ؟ أليس استعباد الأرض أهون من استعباد الحق ؟ كن
يكون بقاؤه بين يدي جدّته أرحم وأهون الخيارين ؟

طف كثيرأ. هاجر طويلاً قبل أن يهتدي إلى الخير :
«ماذا لو رافقته إلى واو».

سمع النداء في حفيف القبني، في هتاف الحنين الحفي، في
 استدعاء الأفق، وإغواء السراب اللعوب. في البداية تحفه
 سنبعه باستنكار، ولكن النداء ارتفع. فهاجر. سافر في الأفق
 كما تعود في الماضي عندما تستبد به شهوة أو يستولي عليه
 هاجس. تراجع الخاطر في الأيام الأولى، ولكنه ما لبث أن وجد
 الطريق إليه حتى في سفره. توقف وصمم أن يبحث عن أنسيل
 في المواجهة. عرف في هجرته مسلك واو. بحثه الطويل عنمه
 أن الخروج هو ثمن الدخول إلى واو. الأرض البكر لا تفتح
 أبوابها إلا لمن وجد في نفسه شجاعة الخروج من الصحراء. في
 أرض لرؤى والسكينة والخلوص الأبدي لا تعترف إلا
 بالشجعان الذين يشقون صدورهم ويفتحون لها قلوبهم مقبل
 أن يدخلوا إليها، في الحرم الموعود. هناك سيضمن الخلاص
 لنفسه ولذريته. لن تبقى وراءه نطفته مهددة بغول الاستعباد. لن
 يترك خلفه نسلًا والقيد مسلط على رقبتة من السيف. إذا أخذه
 معه إلى واو ضمن له السكينة و.. الخلاص الأبدي.

4- الترفاس

عنى سلطة السراب تمرد خيل وتبدى. ظل يعوم في لئنة
 المعروف الفضي الذي يغمر الأفق ويتلوى مع تموجات السائل
 الشيطاني اللعوب حتى قطعوا إليه مسافة أخرى. بدأت الأرض
 الحمراء تبين في العلامة فسأل الولد مشيراً إلى الأفق :
 - هل هي واحة من صنع السراب أيضاً ؟

ابتسم الأب

حاول أن يحوها ويمزقها ليصنع منها واحة من واحاته
الشرطانية، ولكنه لم يستطع لأنا قهرناه بالعناد.

- هل هي واحة حقيقية ؟

- إنها الراية الحمراء.

- هل اقتربنا من واو ؟

- أظن أن أرض واو سوف تبدأ خلف الراية الحمراء.

- حقاً ؟

انتصر المرتفع على سلطة السراب. رفع قامة مكبرة في الأفق
فاعتته مِرْق من الـار الفضية وتسَلَّقت ظهره في شقاوة. ومضى
السائل الشقي يعارك حتى عندما بلغا الحضيض ووصلا الراية.

انتصف النهار. هب نسيم شمالي مبلل بماء البحر البعيد.
ترجَّس الأب عن المهري وترك الصبي جالساً خلف السرج
يتشَّت بوبر السنام.

قاد الجمل ماشياً. انحرف يمينا ليجتاز الراية.

خلف الراية الحمراء فاح الفردوس.

منذ سهل فسيح من الحضيض. في الحواف، المكسوة
بحجارة كثيفة سوداء، نما حزام من الحميضة الحمراء. في
الأسفل، عبر المنحدرات المائية، التي شقَّتْها بنات الأرض في
موسم المطر، تزاحم الفصيص. أفضت المنحدرات إلى رقعة
فسيحة مكتظة بالبابونج والجرجير والشيح ونباتات أخرى كثيرة

يحهل أسماءها حتى الرعاة. فتحت الرقع سُبلاً إلى لوديان
لسمية فاحضر السدر وأزهر الرثم وتكاثفت الأحراش البرية.
رقزقت لطيور، وتسكعت الغرائيق في السهل لمُروش
بالعشب. تضرب الأرض بمناقيرها القانية بحثاً عن الديدان،
وتباهي بقامتها المكابرة. عندما نزلا المنحدر رأى الابن شبحاً
مدهشاً انسلّ من الأحراش ووثب إلى حاشية السهل بقفزتين
رشيقتين. وقف، في الجانب الآخر، مستنفراً. حفر الأرض
الطينية بحافره الأيمن في حركة توحى بالتوتر والارتباب. كان
رشيق. نحيل. طويل القامة. يعلوه زغب ذهبي اللون. وفي
لأسفل، عند البطن، اكتسى اللون بياضاً ناصعاً. رقبته مديدة،
رفيقة، مكبرة، تنتهي برأس وديع وفاتن. فوق الرأس استقرّ
قرن صغيران، مرفوعان إلى أعلى. من الرأس أطلّت عينان
مدهشتان كحلوان، علتها رموش طويلة كحيلة أيضاً.

ظلّ الحيوان يراقبهما بعينه السرّيتين لحظات. ثم استدار
وطار في الفضاء كالسهم. قفز من الهواء واختفى.

تبعه الابن بذهول، تطوّع الأب بالتفسير
- نه الغزال. هل رأيت شاة أجمل من الغزال ؟

ثم يجب الابن فواصل الأب
- هذا مخلوق لن تراه إلا على أبواب واو.

فاح الرثم وتضوّع الهواء بأريج الزهور. تنفس الابن بعمق
حتى شعر بالدوار أغمض عينيه ليستعيد الغزال ويحفظه إلى

لأبد. ولكنّ الشبح المدهش فرّ من الخيال كما فرّ من الصحراء
فسأل بلا وعي:

ولكنّك قلت إن الثعبان يحرس الباب وليس الغزال ؟

أناح الأب الجمل وأجاب مع ابتسامة حزينة
في مراعي واو دائما ترتع الغزلان، ولكننا لم نبلغ الحجاب
بعد.

أمصيا ليلتهما في سهل الجنة. وفي الصباح بدأ طلب
الترفاس. في البداية بحثا معاً في السهل الكبير. ناسل العبير في
الفضاء وصنع، مع الهواء، الأريج الفريد الذي لا يطمع
الصحراوي أن يستشقه إلا عند أعتاب واو وكلّما تصعد عطر
الجنة وغزا الموج أنفه، كلّما ترنح الصبي وهزه الوجد والدوار.
الوجد هو الذي استفز فيه الذمّع فلمعت مقلّته بوميض يدل
أخفه عن أبيه. تنادى الطيور في الأحراش. ارتفع قرص
الشمس قامة فوق خط الأفق. انبثق بينهما الطائر فجأة. نطلق
من فرش العشب وركض أمامهما بساقيه النحيلتين الطويتين.
كان آسراً، صغير الحجم. ذهبي الريش. موسوماً بخطوط فضية
عند الجناحين. منقاره قان، مستقيم. وقف على بعد خطوات
وانظر. ركض الصبي وراءه فحري أمامه مسافة أخرى قصيرة.
توقف وانتظر وصاح الأب

- احترس ! إنه «سخر كايراضن» !

فأجاب الولد

- هـ «سخر ك ابراضن» وديع وجميل إلى هذا الحد
السر في وداعته وجماله. كيف يستطيع أن يخطف الأولاد
أمثالك إذا لم يكن جميلاً ووديعاً ؟
- هـ سيقودني إلى المتاهة كما تروي جدتي ؟
- سيقودك حتماً إذا استلسمت للإغواء ومشيت وراءه.
- هل يحرس باب واو أيضاً مثل الغزال والتعبان ؟
- نعم ؟ «سخر ك ابراضن» أيضاً من علامات واو.
- ألن يقودنا إلى المتاهة ؟
- لقد اتفقنا أننا لن نمشي وراءه.

رأى الأب تردد الابن فاقرب منه وأمسك به من يده
- يجدر بك أن تتوقف عن المشاهدة. المشاهدة تغري بالمطاردة.
ولن ترحع عن متابعته ما لم تشع ببصرك عنه، إنه كالسر ب. إنه
سراب !

جره من يده وانحيا فوق الأرض بحثاً عن الترفاس.

قال الأب

- لو حالقنا الحظ وعثرنا على الترفاس فسوف تنسيك الطائر.
- هل ستسنيي الغزال أيضاً ؟

قال الأب بعد مهلة

- نعم. أظن أن الترفاسة هي الشيء الوحيد الذي يستطيع أن
ينسيك حتى الغزال.
- هل هي للذئبة إلى هذا الحد ؟

لا نستطيع أن أصفها بلغة أهل الصحراء. ولكن «لذيدة» كلمة لا تصلح لوصف ثمرة الواو.

استمر التفتيش. الأب ينحني ويتفحص الأرض بعناية. يتفقد الفصيص المخضر ويعاين تشققات الأرض باهتمام الباحث المحترف. يقتفي الولد أثره ويتنقل بجواره. يراقبه بفصول، ويحاول أن يحاكيه في التفتيش والطلب. قال - كيف تبدو الترفاسة ؟

أجاب الأب بلا اكتراث

- جوهرة تلدها الأرض وتخرج من الطين سعياً وراء النور.

- وكيف تلد الأرض جوهرة ؟

- كل الجواهرات بنات الأرض.

ولماذا تسعى إلى النور ؟

- لأنها تحن إلى الأب. تريد أن تشاهد أبها الذي يسكن السماء.

- وهل يسكن أبوها السماء ؟

سكت الأب. ظلّ يخطو ببطء، منحنيّاً على العشب،

يلوي يديه وراء ظهره. قال

- ألم تروا الأرض بحبة المطر ؟ السماء وهبتها الحياة في قطرة المطر.

سأل الابن بإخاح

- ولكن لماذا تريد أن تلتحق بالسماء ؟

ابتسم الأب

- كن الأشياء التي تولد في الأرض تسعى دائماً لأن تلتحق بالسماء.
- الإنسان أيضاً تلده الأرض ويسعى للالتحاق بالسموات. كل الأشياء الأرضية تظن أن الأصل في السماء، في المور.
- جذتي تقول إن في السماء لا يوجد شيء غير الفراع والريح.
- لا تستمع لما تقوله جذتك.

رفع رأسه وتوقف عن البحث. تفقد الأرض بظرة شاملة. قال

- يحسن أن نفرق. الترفاس يحب الحلوة.

هتف الابن

- الخلوة ؟

- لترفاة ثمرة سرية. الترفاسة مثل الجن، تعتزل وتختفي بنفسها مثل الكنز. لا يعثر على الكنز إلا المعتزلة. واصل أنت البحث في السهل، وسأجرب أنا البحث في المحدرات.

اعترض الولد

- ولكنتي لا أعرف لها شكلاً.

- ليس من الضروري أن تعرف لها شكلاً كي تحدها. إذا اطمأنت إليك فسوف تطنع لك من تحت الأرض. ألم أقل لك إنها شبيهة بالجن ؟

- جن !

ستحد شققاً في لحمة الأرض. قلاع من الطين. تلك إشارة الكنز.

نقي الابن يفتش في أرض السهل، وذهب الأب شمالاً لمحص الشعاب الصاعدة إلى الراية الحمراء. استمر البحث حتى العشية عندما صاح الأب بالنداء ولوح بيده في لهواء إشارة البشارة. هرع إليه الابن فقاده من يده إلى موقع الكنز. نحني الولد فوق كوم صغير من الطين في حاشية المجدر. تسفتت الأرض الحمراء وارتفع فوق الأرض نتوء دائري غامض. تخلته شقوق وثغرات، كما حمل على ظهره، في ممزده على سلطة الأرض، حجارة وحبيبات حصي. حاولت الأرض أن تسترد جنينها فلاحت الثمرة الخفية بأكداس التراب والطين، ولكن الحياة انتصرت في الكائن الخفي فمزق القماط الأرضي في القمة ورفع رأسه ليرى الضوء. تبدى الرأس في الجزء العلوي فكانت الحية في الانتظار. سبقت الإنسان مرة أخرى وقضمت، بالدب المسموم، الجزء العلوي من الرأس لتمنعه من الوصول إلى النور، إلى السماء، وفرت بالعصارة، بالثمرة، بالكنز، بالخلود.

تابع الأب الأثر البشع. العلامة، المرقطة، القبيحة، على الأرض، إشارة انعدو الخالد الذي خدع الجند الأول فسرق منه و وطرده إلى المنفى ليعيش العبودية والفناء. الشعبان النسيم سبقه إلى الكنز وأخذ البكارة. ولكن الشعبان جاء بالسراً أيضاً. دس له في لترفاة، في ثمرة الجئات، ثميمة ستفتح له أبواب الوطن الأول. أبواب واو

مسح الأثر بنعله خفية عن الابن وقال بحشوع

- ألا ترى أنها تشبه «إدبي»⁽¹⁾ ؟

حنا على ركبتيه بحوار الكنز الدفين. قال بنفس الحشوع:
دني يخفي رفات الأسلاف، ومثوى الترفاس يحجب
السر. يحجب المفتاح الوحيد الذي يقود إلى واو.

هتف الصبي

- هل الترفاس هي المفتاح الوحيد ؟

ولكن الأب دعاه، بيدين مرتجفتين، لممارسة شعائر
الكشف، همس بقداسة
- اقرب !

اقرب الابن خطوة. أمسك الأب بيده. غرقت اليد
المرتدة، الحجولة، في اليد الخشنة، الكبيرة، الراجفة أمام الجلال
الذي يحسّه كل من شرع في نبش قبر من قبور الأسلاف. كل
من أراد أن يزيح الغطاء عن الكنز المغمور منذ آلاف الأعوام. إنها
العرشة التي تنتاب المجدوب في لحظة الوجد التي ينتظر فيها أن
يرى وجه الله. امتدّت يده، امتدّت يداّن متحدتان في يد
واحدة، وأزاحت الغطاء. تهاوت قطعة الطين، ولكنها لم
تتهشم. ضُتّ متماسكة، صامدة، برغم جفاف الأرض وتبخر
الدوة في الطين. تبدّى الوجه الخفي. انكشف الحجاب عن

إدبي قبور الأسلاف المستديرة، ينام عليها الطوارق فنسهم بالمستقل
وحبرهم بأحوال المسافرين. (راجع بهذا الشأن هيرودوت «التاريخ»)

رويا حقيقية. لم يلمع الرأس في الضوء بالبياض، ولكنه كتاب
دللون المعتم وسلط نوره الجليل إلى الداخل، إلى الخفاء، إلى
المجهول المتفوق في مكان ما في الجوف، في العمق، في الباطن،
في نفسه، في الحد الآخر الذي يتلامس مع السر، ويستمدّ وهجه
وغموضه وجلاله من الله.

الترفاة كانت من الصنف المعتم الذي يميل، في لونه، إلى
الاحمرار.

قداسة اللحظة انتقلت إلى الابن اليافع فهتف بصوت
مخنوق
- إنها حمراء. ظننت أنها ستكون بيضاء.

ظل الأب يتأمل القمة النفيسة. الرأس الخفي الساعي
للاتحام بالله. الجنين المتمرد على سلطة الأرض. التواق لتحرّر
من كوز الطين والخروج إلى خلاء الحرية. توقّف عن متابعة
الكشف. غتم بخشوع
- لون الماء من لون الإناء⁽¹⁾
- لا أفهم.

- حمراء، معتمة بلون الأرض الطينية الحمراء، ولكنها ستكون
بيضاء نو عثرنا عليها هناك في رمل السهل.

(1) العبارة للشيخ الجليل. وقد أولاها محي الدين ابن عربي اهتماماً خاصاً
وكرّس لها دراسة في «فصوص الحكم».

أراح قطعة أخرى بنفس اليد المزدوجة، الراحفة المتوترة
لشوق والعشق والحنين لاكتشاف الكائن المجهول. ها تبدت
العلامة، إشارة الغناء التي تركها ناب الثعبان في حسد المولود
الخفي. طابع السر الأزلي. لعنة الخطيئة الأولى، ومفتاح للإنسان
إلى التيه والمفنى وصراط الزوال.

لمعت عينا الأب بالبلبل. غالب شجنًا مفاحنًا. ممايل يمينًا
ويسارًا قبل أن يضبط النفس من جديد ويعود لنهش الكنز
انتهت مراسم الكشف.

في المساء بدأت شعائر الخلاص.

5- الوطن

أشعل الأب نارًا، وجلس الابن يداعب الترفاسة بين يديه،
يتأمنها طويلاً، ثم يرفعها إلى أنفه. يستنشق الشذى الخفي ويترنح
بعينين دامعتين مردداً
- اللآ - ا - آه...

يتبعه الولد بابتسامة غامضة، يحرك النار بالمسمر ويغذيها،
بين الحين والآخر، بالخطب. تأمل العراء الجليل وقال بتنه
- أنت الآن في أرضك. على أبواب واو.

توقف الولد عن استنشاق الثمرة. اعترض دون أن يتوقف
عن تفحص الترفاسة.
- ولكنني لا أرى جذدي.

اختفت ابتسامة الأب. تتم بكآبة

- سوف تراه قريباً.

مدّ يده وتناول الثمرة من الابن. قلبها بين يديه. تفحص
القوش السرية التي كتبها الأرض على بدن الجنين وقال في
نفسه «إنها التماثل التي تضعها الأم في رقة الوليد كي تعصمه
من أخطار الرحلة». أزاح الجمر بالمسعر جانباً وهياً لها مكاناً في
رماد النار. دسّها في أحساء الرمل الملتهب وجلس يتنصّت
لمرثيتها وهي تتوجع في الرمضاء. حاول الابن أن يلقي بسؤال
فأسكنه بنظرة صارمة، أنصت للعويل الفاجع. حاول أن يميّز
الأصوات ويقرأ الدلالة في رموز الضجيج الأليم
- فس...س...س...س...

ثم تحوّلت النسنة إلى صفيّر. الصفيّر ارتفع في نحيب
كثيب. والنحيب صعد في نواح حقيقي. استجاب سكون
الصحراء لفגיעة الثمرة المقدسة. فاحت الجنّيات، ولطمت
الحوريات الحدود، وهدد الأفق بالظلمات. ووعدت الصحراء
ببكنية طويلة. بدأت الثمرة السماوية تنزف.

رشح السائل القاني من القلب. وسمع الأب السعي
الفاجع. نزلت من مقلته دمعة كبيرة، ولكنّ الابن، الأسير،
لمشدد إلى الترفاس والوطن، لم يلحظ ضعف الوائد.

تنصّت الأب فسمع لغة المناحة. سرّ الميلاد وفגיעة الحياة.
فرح الحين بالوجود، ومعاناة المسيرة التي يتفقها في الأم والته
ولمسي. المسافة الفاصلة بين الميلاد ومملكة النسيان هي

الكابوس أغنية الفرح لا تبدأ إلا بعد الخروج. السكينة لا تنزل
إلا بعد اجتياز المسافة الأرضية، وعبور الكابوس إلى أرض
السيان مرة أخرى. في لحظة العبور يفقد الشقاء البشري معناه
فتفتح واو أبوابها. فلا تبك وأنت تتأهب لدخول واو. ولا تندم
على رحلة العور، لأن البقاء في ذاكرة الغيب أهون من النزول
إلى صحراء الذاكرة، ويوم تقفل واو وراءك أبوابها وتستقيبت
عارياً أفضل من اليوم الذي خرجت فيه منها مفوشاً مكابراً
ملعوناً بالنفي والضياع.

أكملت الثمرة السرية موالها. أخرجها من رمضان النار
موسومة بالزيف وسياط الجحيم. اختفت تماثيل الأم واكتوت
بقشرة العذاب. ولكن ندبة الرأس لم تتضرر. الندبة الجليلة التي
مسها الناب المسموم. في الندبة يكمن السر. الندبة هي المفتاح.
وضعها على لوح حجري صغير. تركها حتى بردت.
توقف الزيف. شقها بالسكين إلى نصفين. تعمد أن يترك الجزء
العموي الخفور بالثاب. قسم النصف السفلي إلى قطعتين.
ارتفعت الرائحة. تناقل هواء الصحراء الشدي السري. لأريج
السماوي الذي تتخذه الثمرة فتحاً للإيقاع بالمعاندين الذين
يرفضون أن يذهبوا إلى واو إلا مكبلين بالسلاسل.

تناول الابن قطعه. راقبه وهو يقضمها. ثم وهو يلوكها.
ثم وهو يغمض عينيه ويتمايل مجذوباً. من عينيه سالت خيوط
الدموع. فتحهما وأغمضهما دون أن يتوقف عن المضغ

والخذب والبكاء.

قال الأب وهو يتناول نصييه
- كنت أعرف أنك ستبكي.

تمتم الولد دون أن يمسح دموعه
- هذا لا يصدق !

- أنا أيضاً بكيت عندما أكلت الترفاس أول مرة.
- هذا لا يصدق !

- اجذب. وابك. فعندما يقف الإنسان على باب و هو يستطيع
أن يبكي، لأن الخجل لن يعود له معنى.

استمر الابن يجذب ويبكي. استمر يبكي حتى بعد أن
توقف عن المضغ وبلع اللقمة السحرية.

سأل الأب

- هل ذقت أشهى من هذا ؟

هز الولد رأسه بالنفي. تمتم مترنحاً
- أبداً.

هنا اقترب الأب من القطعة التي تحمل الندبة. النصف
المهيب المطوع بناب الخلود. تهيأ للوداع. شطره نصفين. تهّد
بعمق. ظلّ يتأمل قطرات النزيف التي تركتها الثمرة الحريجة. دبّع
الححر وحرق عليه السكين ثلاث مرات. توقف وقدم القطعة للاس.

ها ارتعشت اليد حتى كادت القطعة أن تسقط. تدك لم
تكن رعدة ولكنها انتفاضة.

تدعه وهو يقضم نصيبه. في البداية أغمض الصبي عينيه
وعاد يترج من الوجد والانتشاء ثم بدأ يتراخي ويعيب دون أن
يكف عن الجذب.

بدأت شعائر الوداع.

سقط إلى الورا. لامس ظهره الأرض. من شفثيه تفصد
زبد ناصع.

تم بصوت واهن، حفي
- أبي، لا تركني.

اقرب الأب زحفاً على ركبتيه. أمسك بمعصم الابن،
أحنى فوق البدن المسجى قال
- لا تخف سوف نذهب معاً، سنرافق إلى الأبد.

ولكن الغلام فتح عينيه فحاة فلم ير الأب فيهما سوى
البيض. تحامل على نفسه كي يتكلم
- جدتي قالت إنك ستفعل هذا.

قفز الأب إلى الحجر. خطف قطعته المطبوعة بندية
الوداع. ألقى بها في فمه. بلعها دون مضغ. بعد قليل أحس
بالخدر قفز الأب إلى الحجر. خطف قطعته المطبوعة بندية
الوداع. ألقى بها في فمه بلعها دون مضغ. بعد قليل أحس
بالخدر والسكينة والصفاء. تمتم
- لا تسمع لما تقوله جدتك

تساءل الابن بصوت الوداع

- لماذا فعلت ذلك ؟

همهم الأب

- وكيف تريد أن تذهب إلى الوطن ؟

علا هدير الدفوف. رأى نصل السكين يرتفع في الهواء
ويلمع تحت شعاع القمر. سمع صرخة الشيخ: «لا أرى سعادة
الإنسان أكثر من أن يُفنى عن نفسها⁽¹⁾ ولن يفوز بالنعيم إلا من
وجد لشجاعة ليخرج للباس قلبه». استجاب المريد بآهة طويلة،
فاجعة قبل أن يهوي على الصدر بالنسل. ثمّذ النصل. بلغ النبع.
نبع لنجاة، انقطعت آهة الوجد الفاجعة وتحولت من «الذ-ا-
ا-ا-ا-ا-ا» إلى «آ-آ-آ-آ-آ-آ» انقطعت كي تتواصل،
ربما في الغناء، في الخلود. تترنح الكوكب الصحراوي لأول مرة.
انكفاً لأب على جسد الابن. استمر عمسك بيدي الوليد. سقط
الرأس على الرأس. غاب جسد الابن في جسد الأب. توحد
الحسمان في بدن واحد لصيق بالأرض. أفلت الطائر من انقفص
وطارت شعلة النور. بقي كوز الطين هامداً متحداً، مستسلماً
لثَّرب. في العراء الحزين الخالد، اكتمل نزول العتمة.

موسكو

1991/6/5 م

1) نصف الأول لحملة لعريد الدين العطار اليسابوري «منطق الطير».

مسلك السراب

القبيلة.

متدت. تمذدت. تمادت في الامتداد. تواصلت في
لأفق. لم يعد ثمة أفق، فتواصلت في الفراغ المفضا المسوح
مزرقة خفيفة، فاجعة. فتدفق فوقها سائل بحري، شيطاني،
فاكتسبت اندائرة لون السماء الكامل. وحدها الامتداد، فناء
التواصل المفاجئ، بالشطر الآخر، بالقرين الفحل، الذي
يسحقها منذ الأزل بجسده الوثني الأزرق، لتعاقه، محمومة،
وتلتحم بالصف الأعلى. وجدت نفسها تكتسب لون
المعشوق، وطيشه، وقساوته، التي لا تبلغ الذروة إلا مع حول
لقبيلة مدّ اللعين الآخر، القواد، المدعو سراياً، لسانه، لسان
السحرية والقدر والألعاب، كاشفاً عن نوايا حفية للاستدراج
والاستدعاء، والإغواء، إغواء التائهين البلهاء إلى صراط الفناء. في
ذلك اليوم أصبحت حتى الواحات التي اخترعها السراب وبنائها
في الأفق مصيدةً للعابرين، أتقن الثعلب القديم إنحازها زيادةً في

لا احتياط وإمعاناً في إتقان الفخ. فخ اللامكان، المجهول، حيث لا ظن، ولا واحة، ولا نجاة.

عموح بالبريق وتغنج. صعد المروج المكشوفة ونزل الوديان الفدرة ليملاًها بالزئبق ويسقيها بسيلوله الفضية الثيمة، فبدأ تقدس العضشان، أو تجاسر التائه على الإبطاء في الاقتفاء، توقف عند الراية وانتظر. يعمر بعين ويغري بالتسكع جيئةً ودهاباً كمتمتعة راغبة، محدداً دعوته. حاثاً ضحيته على الاستجابة للنداء الأنثوي.

تتمادى الشمس المكابرة، وتنجبر أيضاً. تضاعف من جهودها في حرق الأحياء والأموات يشتعل النبات الميت، يستغيث الشجر اليابس، وتصرخ الحجارة، وتتوسل الرحمة المستحيلة، فلا يزيد التوسل الكوكب المتوحش إلا استفزازاً، فتضاعف شحنة العذاب انتقاماً وإرهاباً.

القبيلة.

اعتصما بسدرة وحيدة في العدم. استند طويل القامة، نحيل البنية، إلى جذعها شمالاً، واستند القصير، الممتنى، إلى الساق جنوباً. ماذا أرجلهما غير آبهين بمسامير الشوك، تعلقا بالأفق القاسي، المغمور بفيض الخنادع الخالد، ثم طفقا يلهثان.

أخيراً تكلم البدين

قلت لك منذ البداية إن الخروج عن طريق «دنيابة» محازفة. من خرج من الطريق المرسوم اقترف حماقة وسلم أمره للمحاذع الشيطان. هذه شريعة الصحراء منذ الأزل.

قال النحيل بسذاجة طفولية

- لا يؤدي إلى «عويته ونين» طريق «دنيابة» وحده. أردت أن
صل إليها من الأرض الشمالية المجهولة. لا تحن لصحاري
المجهولة ؟

عاد البدين

- من حنار الحياة في الصحراء عليه أن يلتزم بشريعته. هذا ما
يقوله الشيوخ أيضاً.

فعاند النحيل بنفس الطفولة

لم اختر الحياة في الصحراء.

لم تخترك هي أيضاً.

- إذا لم أخترها ولم تخترنني فكيف الخروج من الورطة ؟ ماذا
يقول الشيوخ في هذه الخصومة ؟

أطلق هسيساً مكبوتاً، ضحكة صبيانية خبيثة. فقال

البدين

- لا حرّ للخصومات إلا بالتنازل من الطرفين. ألم نتعم من
الخصومات القبلية ؟ ولكن الخروج من الطريق الذي رسمته
القوافل يبقى خيانة للعهد القديم.

سرح النحيل مع حيل المخادع الخالد في الأفق. تكلم

فحلت انعاسة محل الطفولة في نبرته

- ولكن ماذا أفعل بالمجهول الذي ينادي ؟ بالسّر الذي لا يريد أن
يتوقف عن استدعائي واستهوائي ؟ ماذا تساوي الصحراء إذا لم

نستجب لدعوتها ونذهب، مع السراب، للوقوف على
المسافات الخفية ؟ والمعشوقة لن تستجيب، الصحراء ترفض أن
تتعري بدون نذور. المجهول لا يزيح القناع بدون حروح من
الطريق الذي رسمته القوافل.

عمّ السكون. أقبل الذباب. ذبابتان. مرسلتان من
المجهول. من أين يأتي الذباب في الصحراء ؟ ينزل ضيفاً على
المسافر. مجرد أن يحط في المكان كأنه يتولد من الفضاء.

قال البدين

- اتفق معك في شيء، واحد الطريق المرسوم دائماً مستباح ولا
خير فيه. يهرب من أمامه العشب ويختفي الترفاس. لترفاس
يهرب من كلّ المساحات التي تعبرها القوافل. فهل الإنسان
محيف إلى هذا الحد ؟

سكت مهلة ثم استدرك

- أفهم عندما يتعلّق الأمر بالغزلان والوديان، ولكن أن يفر من
وجهه حتّى العشب والترفاس فهذا محير بعض الشيء. أم أنك
ترى رأياً آخر ؟

لم يجب النحيل فأكمل البدين

- ومع ذلك فإنّ ثمن الخروج أقسى. وها نحن نبدأ في دفع
الثمن.

عقب النحيل ساخراً

وهل توقفا عن دفع الثمن منذ زحفنا ونطقنا وعرفنا ؟ سنطرح
ندفع خرجنا أم لم نخرج.

وكرر الدفع بالتفسيط أهون. أيسر من أن تُجبر على دفع كل شيء مرة واحدة.

تمت النحيل
- ربما كان ذلك أريح..

اعترض البدين
- لعطش قاهر. دفع الثمن بالعطش وحشي، حيواني، مثل الانتحار.

قال النحيل وهو ينهض واقفاً
- تبقى البركة في الحركة. الأرض المجهولة لا تحب السكون.

اعترض البدين برود
ها أنت تخطي مرة أخرى. وصية الشيوخ للتائه أن يلزم السكون. نجاته في البقاء بالمكان.
- هل نصلح وصايا الشيوخ لكل زمان ومكان؟

لبدين تجاهل السؤال اللئيم وقدم إيضاحه الخاص
- الحركة للتائه تسكع ميؤوس. يصرف الجهد ويستنزف الماء المخزون. هذا لا يجمله حتى الأطفال.

قال النحيل وهو يتهيأ لمواصلة السفر
- هذا يصلح لمن نفذ منه الماء وهو يسير في الطريق المرسوم. ولكنه حكم بالموت بالنسبة لمن جازف بالخروج. علينا أن نتولى أمرنا بأنفسنا لأن السابلة لا يعبرون الصحراء المجهولة إلا إذا كانوا صائين مشياً ونحن لن نتحمل الأمر إذا لم نتحرك. هيا - !

اعترض البدين بتوسّل

- انتظر. هناك سرّ آخر لابدّ من بحثه أولاً هل نسيت أننا في قبضة المخادع الأيدي ؟ سيلعب بنا. هذه فرصته. يروق له أن يستعزّ هذه المآرق أبشع استغلال. إنه غدار !

تهكّم النحيل

- وهن سيكون أغدر من أيّ شيء آخر ؟ إذا لم يقم هو بتولي «هذا» الأمر فسينوجد من يستعير دوره لتنفيذ المشيئة.
- أنت تملك الحواب لكلّ سؤال. أعرّف الآن أن هذا ما كان يتعني فيك مد الطفولة. هذا لا يليق.
- ألا ترى أن من المتأخّر الآن أن أغير من نفسي ؟
- لم لا ؟ الشيوخ يجزمون أن تغيير الضبع هو الأمر الوحيد الذي لا يفوت أوانه.
- ومع ذلك يبقى أصعب من المرور تحت رقبة الحمل في غفلة منه !

تعمّد النحيل الأفق. وجده يعوم في سيول المخادع. تجمّد الهواء. قترّب كوكب النار أشباراً أخرى من الجسد الصحراوي العاري. ططن الصمت بمؤال الحزين. سأل بروح الطفولة - هل نذهب ؟

أجاب البدين بروح طفولية أيضاً

- في مثل هذه الأحوال كنّا نحتكم إلى القرعة في الطفولة وافقه النحيل وهو يجلس على رؤوس أصابعه :
- نعم. القرعة. التفت إلى الورا.

ولّى البدين وجهه صوب الجذع. تناول النحيل عوداً
 ياساً من السدر. كسره إلى نصفين غير متساويين. بسطهما في
 كفه وصاح برفيقه أن يلتفت ويختار. تأملهما البدين لحظة،
 تفحص زميله بنظرة شك قبل أن يضع يده على العود لأطول.
 نادلا نظرة صامتة، ثم أوضح النحيل بحزن
 - الآلهة وقفت في صفك. كسبت الجولة الأولى. أمانت ثلاث
 جولات.

جاء دور النحيل كي يشيح بوجهه. وعندما أدن له الرفيق
 ختار نفس العود. ابتسم البدين وأعلن
 - وحدة بواحدة. الآلهة لا تتخلى عنك أيضاً.

استمرت القرعة.

انتهت بالتعادل.

راقبا حركة المخادع في الأفق. يتموج ويتغنج. يقترب
 ويهرب. يتلوى ويطلع لسانه. اقترح النحيل وهو لا يزال يقف
 فوق رأس البدين
 - لم يبق أماناً إلا المصارعة.

هتف البدين باستنكار

- لا !

قال النحيل يرود

- كآ نفعن ذلك في الطفولة أيضاً عندما تتعادل في القرعة.

اعترض البدين

- تنظر. كنا نفعل ذلك حقاً ولكن ليس في مثل هذا الموقف
هل تقدر كم علينا أن نستترف من ماء؟
- لا أرى طريقاً آخر.
- لا!

سكت النحيل. أحكم لثامه حول وجهه. قال
- سأذهب.

لم يجب البدين. أخفى عينيه وراء اللثام وارتفع صدره
بشهيدة عميقة. ردّد النحيل
- لم يبق لي إلا أن أذهب وحدي.

طنت ذبابة. نفس الذبابة التي من بها الفناء.

تحرك النحيل. مشى متباطئاً، يدرج الحجارة بنعنه
القديم، مطأطأً. توقف فجأة. التفت وراءه. ظل الرفيق يسند
رأسه إلى ساق الشجرة ساكناً، يسدل قناعه على عينيه. ردّد
لحظات. ثم التفت ومشى وراء السراب بخطوات واسعة. ولا
يدري كم مضى من الزمن، ولا أيّ مسافة قطع عندما سمع
النداء

- هيب...يه. ارجع. قبلت المبارزة. هل ظننت أننا نستطيع أن
نفترق بسهولة؟

تقابلا في منتصف الطريق. قال النحيل :

- نعم. نحن لم نفترق منذ الطفولة.

فاحتجّ البدين

- ولكن لا تظنّ أنني تنازلت عن البقاء. مازلت أظنّ أنّ السجاة
في السكون.

ابتسم النحيل ولم يعقب.

عادا إلى السدرة معاً. فكّر البدين بصوت مسموع
- ربما كان من الأفضل أن نرجى المصارعة حتّى العشية.

اعترض النحيل

- وهل للظمان عشية ؟ هل يطيق العطشان انتظاراً ؟

شمرّا على ساعديهما. تشابكا. التحما. بدأ العراك.
استمر طويلاً. نزف منهما عرق غزير. أغلى عرق نزف منهما
ضوأل حباتهما المشتركة. قطرة منه أنفَس من قطرة الدم. ولكن
الصراع، المجازفة الثانية بعد مجازفة الخروج من طريق القوافر،
لم تسفر إلّا عن تعادل. لم يستطع أيّ منهما أن يلقي الآخر
أرضاً.

انظر حاتحت السدرة يلهشان، يحاولان أن يستدعيا
النّعاب الهارب مع حبّات العرق النفيس. اشتكى البدين
- قسبي جفت. بدأ يتيسّس. قلت لك إنّ الزّال في وضعنا تتحرار

قال النحيل بقساوة

- لقدّر هو الذي أراد لنا أن نفترق. لا فائدة من اعتراض المصير
البدين لم يجب. تابعا أنفاسهما المتابعة. عاد النحيل

لمادا تستكر الفراق ؟ الفراق ينتظر كل الناس. وكوسا لم
نفترق في الماضي فهذا لا يعني أننا لن نفترق أبداً.

استمرّا ينزقان سائلاً أعلى من الدم. سائل الندادة والحيدة.
نطق البدين بيشارة

- يخيل لي أن ميزان النهار قد اختلّ، ونسمة بحرية ستهب من
الشمال.

ولكنّ النحيل أجهز على البشارة بمرثية
- لا يكون الصحراويّ صحراويّاً إذا لم يتعرّض لخطر الموت
عطشاً.

أرد البدين أن يواجه المرثية فغنى. روض لحناً شجنياً
ولكنّ النبرة طعت عليها الكتابة فأخفق في إنفاذ الموقف.

نهض النحيل. قال بروح الطفولة
- سأذهب.

لم يجبه البدين. لم يغيّر من وضع الاستلقاء. تبع الفراغ.
تحركّ النحيل.

قطع مسافة. توقف. التفت. صاح
- هل قلّ الشيوخ أن السراب مخادع ؟ أنا أقول إنه يبهو يلعب.
يستهو، لأنه يعيش الدعابة. غنجه يخفي وعداً، ووراء قاعه
اللماع يوجد دائماً أمل. لهوه بريء، صدّقني !

لم يستحبّ البدين للنداء. استمرّ يراقب الفراغ. مستقيماً
في ظلّ السدرة.

عاد يصيح

- الدرويش يقول إن لون الماء من لون الإناء، فلماذا لا نترض
حسن النية ونسلم بأن لونه من لون الماء بدل رجمه بالتهمة
والألقاب؟

صاغ البداء الثاني في سكون الصحراء. تقدّم نحو الشجرة
خطوتين وقال بصوت مكسور
- ألن ترافقني؟

صمت.

- هل نفرق حقاً؟

مع كل صيحة يزداد الصمت طغياناً وسلطاناً وجلالاً

ينس. التفت إلى الوراء وتحرك في الاتجاه المعاكس.

تابعه البدين حتى تسلمه المحادع. لعب به وقتاً، رفعه ثم
حطه، مزقه وفصل رأسه عن كتفيه. حزّاه إلى قطع شفافة، رقيقة،
خيالية، قبل أن يبتلعه ويخفيه في حدود المجهول، في حدوده
السرية. فأين رفيق السفر؟ أين صديق الطفولة؟ ماذا ستفعل يا
محدّع، يا صانع المكيدة، بجسم لم يحمل إلا الطفولة، ولم يحنه
إلا بالأسفار والأشعار؟ هل تجرؤ، يا متآمر، يا أناني، أن تنزع
وتتحايل، كي تأخذه إلى الأبد؟ في الطرف الآخر: وراء الأفق،
بدأ الآخر، المعاند الذي لم يتوقف يوماً، ولم تتوقف طفولته
لأرلية عن تحريضه للمضي إلى الأمام، فشاء، في ذلك اليوم،
أيضاً. أن يعذ وصيتها القديمة، ويمضي إلى الأمام. يطارد المخدّع.

يَفْتَشِرُ عَنْ سِرِّ وَرَاءِهِ. يَطْلُبُ الْقَمَرَ خَلْفَ السَّاهُورِ. يَبْحَثُ عَنِ
النَّارِ تَحْتَ سِتَارِ الدِّخَانِ. الْمَاءُ وَرَاءَ سَحَابَةِ الْبَخَارِ. وَإِلَّا مِنْ أَيْنَ
لِهَذِهِ الْعَلَالَةُ السَّحَرِيَّةُ أَنْ تَأْتِيَ إِذَا لَمْ يَتَخَيَّبْ فِي مَكَانٍ مَ، حَفِيفًا،
عَدِيرٍ كَبِيرٍ تَخْلُفُ مِنْ سَيْلٍ مُوسِمِيٍّ، أَوْ تَجْمَعُ إِثْرَ مَطَرَةٍ غَرِيرَةٍ مِنْ
سَحَبٍ عَابِرَةٍ؟ كَيْفَ تَسْتَطِيعُ النَّارُ أَنْ تَتَشَبَّهَ بِقَيْضِ الْمَاءِ؟ كَيْفَ
تَسْمَحُ لَصَحْرَاءَ أَنْ تَلْعَبَ الْقَوَى الْخَفِيَّةَ بِشَرْعِهَا وَتَقْلِبَ نِظَامَهَا
وَتَسْنَّ لَهَا مِطْقًا دَخِيلًا، غَرِيبًا؟ كَيْفَ تَجِيزُ هَذَا الْمَسْدُوكَ الثِّيمَ
الَّذِي يَهْدِدُ بِالْحُلُلِ وَقَلْبَ كُلِّ الْمَوَازِينِ؟

أَيْنَ حِكْمَتُكَ يَا صَحْرَاءُ نَا الْعَجُوزِ؟

وَلَكِنْ مَنْ قَالَ إِنَّ هَذَا السُّلُوكَ شَذُوذٌ؟ مَنْ يَجْزِمُ أَنَّهُ
عَدْوَانٌ وَتَخْرِيبٌ لَطَبِيعَةِ الصَّحْرَاءِ؟ أَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ دَعْوَةٌ؟
أَلَا يَقُولُ الْمُسْتَهْتَرُ تَعَالَى، اتَّبِعْنِي وَسَوْفَ أَقُودُكُمْ إِلَى الْغَدِيرِ،
أَوْ الْبُئْرِ؟ أَلَا يَكُونُ مَسْخَرًا بِدَوْرِهِ مِنَ الْعَجُوزِ لَتَنْفِيزِ مَشِئَتِهِ
أُخْرَى، مُنَاقِضَةً؟ أَلَا يَفْصَحُ مَسْلُوكُهُ عَنْ تَحْرِيطِ عَلَى الْذَهَبِ إِلَى
الْأَمَامِ؟ أَلَا يَسْشُرُ أَنْصَارَ الْبَقَاءِ وَالْإِسْتِرْخَاءِ بِالْقَصَاصِ وَالْفَاجِعَةِ؟
أَيُّ سِرٍّ فِي تَلَاْعِبِ اللَّعُوبِ؟ لِمَاذَا لَا تَرِيدُ أَنْ تَحْبِرْنِي، يَا صَعْلُوكَ،
أَيْنَ خَبَائِطِ الْمَاءِ؟ أَيْنَ خَبَائِطِ الْمَاءِ؟ أَيْنَ؟

تَتَّبِعُهُ حَتَّى الْمَسَاءِ.

مَلَاْحَقَةُ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ لَمْ تَسْفِرْ عَنِ الْفُوزِ.

قَطَعَ مَسَافَةً لَيْلًا، وَتَابَعَ الْمَشَاوِرَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي. كَانَ
يَتَرَصَّدُهُ، يَسَاغِيهِ، يَنَاجِيهِ، مِثْلَ مَدْلِهِ مَسْلُوبٍ يَلَاْحِقُ

المعشوقة النعوب التي تملّص وتتخلّص وتحوّل، مبتعدة، مع كلّ نداء.

ثم بدأ ينهار ويفقد التوازن. ترنح وتبدّت الأشبه في العتمة. حتّى السراب احتجب وكفّ عن اللعب. ولكنّ القبلي تراجع وتغيّر مسار الريح.

ولو لم يهب البحري من الشمال لسقط. تحامل وواص. صعد الرابية مستعيناً بيديه. هجع في غيبوته. ما لبث أن غفا من الغيبوبة، ورعاً من الحلم، رأى نفسه ينهل من غدِير فُصّي، بلون السراب، فلا يرتوي. بل كلّما شرب أكثر كلّما اشتدّ به الظمأ. ولكنه لم يتوقف عن الشرب. استيقظ مع بروز الشعاعات الأولى، ولكنّ النهار لم ييسّر بالصدد. استطاع البحري أن ينعش الخلاء.

ولكن ذلك لم يمنع قلبه من التحجّر، كما لم يسّّل له ريقاً. ظلّ هامداً، مجهداً، مهلهلاً. في النهاية فتح عينيه. فتحهما على الجانب الآخر، المجهول، من الرابية الجبلية، فعاد وأغمضهما. يقيناً أنّ الحلم يتواصل. الغيبوبة مستمرة. دعهما بيديه. وانزع جسده من الحجارة. كانت البحيرة تستلقي في الحضيض، أسفل الرية، يعب السيم الشمالي الرحيم بصفحة مائها الذي تعتم وتكثر ثناء الجريان، فترقص عرّح تحت الشعاعات المكر. فهم في خطة سر البحري. أدرك أن النسيم كان الإشارة التي جاءت بخبر أمطر هطلت في الجبال الزرق فجرى الماء وجاءت لسيول

لتصع له المفاجأة. الغدير. النجاة. نزل المنحدر. سقط. تدحرج.
سحبه الحجارة واقتطعت لحماً من بدنه. ولكنه لم يحس. لم يع.
لم يعق. حتى دس رأسه في المستنقع البشوش. مستنقع الحياة.
حمد الآلهة وشكر السراب. وفي بالوعد، وأهداه
الغدير

ونكنه ما لست أن فهم أن الفوز لم يكن كاملاً. نسي
الزمرمية عند الشجرة فاستحان عليه التزوّد بالماء. طلّ أسيراً
بجوار المستنقع. يربط حول الغدير ويدور كوحش محبوس، في
حين تتمدد حوله صحراء إلى كلّ الجهات، وتمتدّ بلا نهاية.
فهل هي مكيدة أخرى من مكائده الشريرة؟

في قيلولة اليوم الثاني راقبه، عبر المدى، وهو يتعامز
ويتلامز وبطلع له لساناً ساخراً.

الدار البيضاء

1991/2/28

النخلة تصلي لأجل قاتلها

- 1 -

تذكر عندما جاء المسوس بالكتلة العجيبة منذ سنوات.

أقبل مع العشيّة. يجلس داخل مطية نزقة تتدحرج على الأرض كعحاجة الجن. توقفت عند القدم، وسكتت عن الهدير والولولة. خرج من جوفها ممسوسان. عرفت أحدهما، ولكن الآخر كان مجهولاً هرعا إلى مؤخرة المطية وأخرج الكتلة العجيبة. صدوق بجسم أسود برزت منه الأحشاء ! كأن اليد المسوسة امتدت إلى باطنه وأخرجت أمعاءه لتلويها عنى بدنه البراني. 'معاء دقيقة، مصارين غليظة، ملتوية، عروق نائنة، أوردة رقيقة، و.. قلب كبير، خاو. وضعا الجسم المقلوب عنى أنبر. مكث حتى الليل لتثيته على القهوة. في الصباح بكرأ بالمخيء. دلدل المسوس المجهول ساقاً طويلاً مصقولاً ومجوّفاً في قاع البئر ووصه بالجسم البشع الجاثم فوق القهوة. ثم، بعد وقت قصير،

بدأت الكتنة تهدر وتولول، وفوجئت بالماء الحار، بدم لأرض،
يسرف، ويتدفق في الفراغ، فتمصّه الشمس وتلقاه الرملة
الظمأى، ويتبخّر في الهواء.

مذ ذلك التاريخ البعيد لم يتوقف المسوس الجديد، لدي
حبه المسوسان البشريان، عن الجلبة والهدير وإهدار الماء في
الصحراء.

في الأيام الأولى ضئت أن هذا العمل نزوة جديدة من
النزوات المدهشة الكثيرة التي اعتادتها من عشيرة المسوسين.
لعبة. دمية يتسلّون بها ردحاً من الزمن ثم تتعرض لتعطيم
ولرّمي كما يفعلون مع كلّ الأشياء. ولكن الهدير استمر.
والمسوس السيّد، الذي يدّعي ملكية الأرض، وملكيتها هي
أيضاً، حرص، على غير عادته، على الدمية القبيحة، وتولّأها
بالرعاية. راقبته وهو يتفقدّها مع مطلع كل صباح. يتفحص
الأحشاء الذميمة الملوبة على جسمها الأسود. يأتي بزيت خائر
ويدهن الأطراف البشعة. يمسحها بقطعة قماش. بل إنها رآته
مرّات. ويا للعجب، كيف يمزّق قطعاً من لثامه المقدّس ليزيل عن
جسمها طلقات الغبار وحبّات الرمل. وهو عمل أثار دهشتها
من مخنوق يعاف حتّى أولاده، ولم تره يوماً يمدّ يده لمداعبتهم
أو يتنزل ليعطيهم حتّى ابتسامة. ولا تعرف لماذا تُثر فيها هذا
الحنان إحساساً غامضاً بالخطر.
ولم يطل انتظار الخطر.

فبعد أن سيطرت على نفسها وعوّدتها على احتمال
 لتقدمة والهدير المستمر بدأت تحس بهروب الماء في الأرض.
 من هنا عدت لحظة بلحظة كيف يتراجع ويتضاءل ويشح؟
 وكلما عت زغاريد الكتلة الممسوسة فوق الفوهة، كلما ذعر
 السائل ويش. كلما امتصت من الجوف وهدرت في العراء،
 كلما فر الماء وتوغل في سابع أرض.

بدأت نكتشف سر الكتلة الممسوسة، سر الدمية
 خمقاء.

- 2 -

سنت خطّة، وتابعنا الخنة على الجبهتين البرّانية
 ولباطنية. راقبت الاستزاف، وأشرفت على الماء، وهو يجري.
 تابعته من موقعها السماوي، برأسها المنفلفل، المتهدّل كشعور
 انصبّيا. كما تحسّست السائل، دم الأرض، ماء الحياة، بعروقها
 الجوانية التي اخترقت الطبقات السطحية وعبرت إلى الباطن
 البعيد، منذ سوات طويلة. وعرفت أنّ التزييف المهدور يستمدّ
 رصيده من الينبوع السفلي. كلما اتسعت رقعة العراء المروية
 بأديم الباطني كلما تضاءل الماء في المنبع وتراجع وقلّ. وكلما
 رداد هدير الممسوسة المجنونة فوق الفوهة كلما تضعف
 تدفق السلسبيل وراح يتلاشى ويذوب في الصحراء الرملية
 الجداء.

تضعفت دهشتها من أفعال الممسوسين وأرادت أن تفهم معنى اللعبة الجديدة. رفضت أن تصت للوسواس الذي تعودت أن تسمعه دائماً يهمس لها بأن كل ما يفعله هذا المخلوق باطل، لأنه هو نفسه باطل. صدقت في الماضي أن أفعاله باطلة ووافقت الوسواس أيضاً أن المخلوق نفسه باطل استنتاجاً من تجرب عاشتها في الواحة، ولكنها رفضت أن تصدق، هذه المرة، أن الخماقة يمكن أن تبلغ بالمخلوق الممسوس حدًا يجعله يصنع باطله بنفسه، فيحفر مثواه بيده.

في الشهور الأولى التي أعقبت استجلاب الكنتنة، رآته يشقى في العراء. يشوه وجه الأم بالحراث، ويمزق وجهها الجميل، الصبور، الطيب، بسكة موحشة، شيطانية. نثر بذوراً وغرس شجراً عقيماً على هيئة سياج. وظل يروي المساحات الهائلة بالدم النقي، البكر، النفيس، شهوراً. ولكن البذر لم يطعم والشجر أيضاً مات. استدعى حكيماً في الحقول والحراث وحياة النبات فسمعه يدلي بالتعاليم

— هذه رقعة من فئة السبخة. عليك بتجريب الناحية الأخرى. الرملية. لا تبخل على الأرض بالماء والزبل والحراث. الأرض تحب التشطيط والماء والزبل!

بدأ رحلة أخرى في مسيرة الشقاء والباطل. يستيقظ مع القبس الأول ويشرع في شق الأرض بالفأس وتبديل قنوات الدم ليوحه مجرى الريف إلى الناحية الأخرى من الوادي. الناحية الرملية

ها كانت تلال التبر الطماي منذ مائة ألف عام. تنتظر لكسر بجشع المعذنين يعطش مائة ألف عام. وكلما زودها بلسان

من بزيف الأرض النفيس اختفى في غمضة وطالبت بالمزيد
وأنريد احتاج المسوس البائس أن يجبر كتلته الوحشية على
العمل بلا توقف، واحتاج منه ذلك أن يضاعف لعاية بها،
ويهددها، ويمسدها، ويدللها، ويمسح الغبار والعرق عن جبينها
ضوال الوقت. ولكن الصحراء لم ترتو، واليوم، انذني حم فيه
المخلوق أن يسلم وجه الأم ويحفر فيه الأخاديد، مارال بعيداً.

- 3 -

زرع وغرس ولكنه لم يحصد ولم يجن ثماراً. ضع لُقع
متبعدهن وهناك. لم تبنع الشتلات ولم تمت أيضاً. بقي كل شيء
هكذا شاحباً، بائساً، معلقاً بين الحياة والموت لسبب مجهول.
مضى موسم الحصاد دون أن يحصد. ينس وأهمل وترك. ولكن
تدفق الكنز الأرضي لم يتوقف. وسي أن سر الحياة الذي أضفقه
في الصحراء ليروي مروج التبر الرمئية العطشى كان قد منعه
عنها، هي، من حيث لا يدري.

- 4 -

هذه ليست المرة الأولى التي ذاقت فيها طعم الظمأ.
في السنوات الأولى. عندما غرسها الجذ الرحيم، وهي
مازالت فسيلاً، هب القبلي. لفح أعرافها بالصهد وحرق

حدائنها انضالعة بغبار كالسياط. في ذلك اليوم عرفت حيل الماء
 في باطر الأم. كانت عروقها قد قطعت مسافة في مسيرنها
 الأبدية للالتقاء به، ووصلت حدّ النداء. استعارت الحياة من
 الندى واكتفت بالتوقف في البرزخ. وما إن هبّ القببي
 الممسوس حتّى أحسّت بالسائل السريّ الحكيم يتململ ويتراجع
 في الرحم. تلقت الإشارة ولكنها كانت أشاء⁽¹⁾ فلم تفهم معنى
 الإيماء. وصل العدو الجنوبي الأزلي وشرع يصفعها. ولولت.
 صبر جدائنها الخضراء في الهواء. استغاثت بصوت لم يفهمه
 أحد. شجبت. غزا الإصفرار جدائلها السبطة، المسترسة، في
 يوم واحد، في حين استمر السائل السريّ في رحته لبطنية،
 ساحباً من تحتها البساط. في تلك اللحظة بدأت المخاطبات مع
 للريح. استعطفته

— تمهس. آذيتني. نرعت شعري. تكاد تكسر ظهري.
 الرحمة !

تكلم القبلي العجوز بلغة الحكماء الصحراويين
 القدماء

— هيه ! ماذا تعرفين أيتها الصغيرة عن الرحمة ؟ ماذا تعرفين
 عن الحياة وعن القبلي العجوز ؟ ألم تسألي حدّتك من
 العجائز ؟

(1) لأشاء : صغار النخل.

بكت. ونولت. استمر

- اعلمي يا طفلي أن القبلي أيضاً لا يهاجر بدور سب.
اعلمي أن القبلي لا يكسر ساق نخلة في طريقه من باب
التسنية.

ولكني لا أفهم. أنت تؤذيني حقاً.

- سيمضي وقت طويل حتى تفهمي. ستجري في باطن الأرض
مياه كثيرة لتأخذي منها النصيب اللازم الذي سيجعلك تفهمين
أشياء كثيرة في النهاية. ستعرفين أن الحياة مركبة من الذكر
والأنثى. وإذا لم يلتقيا فلن تثمر النخلة ولن تستمر الحياة.
- لا أفهم.

- سيمضي وقت طويل قبل أن تفهمي أن القبلي العجوز هو
رسو يحمل للنخلات البعيدة هبات الذكور، ذرات اللقاح،
ألا تريدن أن تفرحي بعراجين البلح عندما تكبرين وتحتمين
الحمل؟

- وكيف لا أريد؟ أنا أنثى

- عليك أن تحملي هبوب القبلي إذن.

- ولكنني عطشانة. سأموت قبل أن أفرح بالعراجين. لقد أفرع
قدومك حتى الماء في عروقي.

- لا شيء في الحياة بلا ثمن يا طفلي. من أراد أن تنقى النقا
ويحني في المواسم العراجين الثقيلة عليه أن يصبر كثيراً ويتحمل
لصهد وأذى الغبار. اعذريني. لقد تأخرت. إذا لم أسرع وأحنح

فسأ تأخر عن غابات النخيل في الغابات البعيدة. لا أنفي أسي
حطمت في طريقي جذوعاً كثيرة حتى أصل إلى المكاء في
المبعد. لست أنا من خلق المسافات في الصحراء.

احتجّت بعقلها الطفولي. عقل الأشياء اليافع الذي
دحل الحلبة المجهولة حديثاً وكان عليه أن يقف سرات
طويسة في الواحة متفرجاً، متأملاً، متأماً، حتى يفهم
اللغز

ولكن ما جدوى أن تلقح نخلة إذا كنت تصرع في
طريقك أخرى ؟

هزّ القبلي العجوز رأسه على طريقة الحكماء ودمدم بذلك
الصوت الشجنى المكوم الذي لا يتقنه في الصحراء إلا لعذار
والشعراء

- هيه. سيمضي وقت طويل يا طفلي حتى تفهمي أن طبيعة
الأشياء هي التي تقول ذلك. لا يلّح القبلي نخلة إلا إذا صرع في
طريقه أخرى. لا يولد مخلوق إلا إذا تنحى له مخلوق آخر عن
مكانه. ساحيني. عليّ أن أبلغ «آدار» قبل حلول المساء. وعليّ أن
أبلغ الرسالة لغابات النخيل في غدامس بعد ظهر الغد. حر
رأسك قليلاً ودعيني أمراً !

عض بأسنانه على تلايبه. شمّر عن ساعديه. زهر بعمق
و.. مر.

مر فوق رأسها، يجرّ الرمل والغبار والصهد.

وبرعم أنها كادت تموت عطشاً في تلك التحربة، إلا أنه كانت، من بين كل الفسائل المجاورة، أول من حمل بالعراجين في موسم ذلك العام.

- 5 -

طاردت الماء الهارب في الأعماق السفلى.

مضى الأخطبوط الممسوس يدندن ويطنطن فوق الفتحة المستديرة. يسحب الحياة من الباطن فتطلع روح الأرض وراءه. تجري في الفراغ، تغيب تحت ركام السبحة والملح ولرمل، تشربها مروج الثبر بجشع مائة ألف عام، وتبخّر في لهواء كالهباء. كالفناء.

يروق للممسوس الشقي أن يأتي إلى حقل الملح، يتسكّع في السبحة الرجراجة، يلوث قدميه بلا معنى ويعود إلى الكوخ لقضاء هجعة القيلولة. يروق له أحياناً أخرى أن يتسنى بالاعتساف في الجابية. يغمر وجهه وأطرافه وينهر الأطفال عندما يقتربون منه محاولين تقليده.

ولكن الزرع لم ينبت.

تقهقر الماء وبدأت المحنة.

شاهدت آثار الشحوب على أحراش الأشاء السائنة المجاورة لدفوهة. رأت كيف اقترب الممسوس مرة وتفحص

أعرباً أدب في أطرافها الجفاف واليباب. وزحف الاصفر ر
 سريعاً إلى الرأس، ليأخذ طريقه من هناك إلى القلب.
 ماتت أولاً الفسائل التي بلغت من العمر حوْلاً وحوْلين.
 وتواصل الجفاف في الأحراش. ثم...
 جاء دورها.

لم تتوقع أن تلحقها اللعنة بهذه السرعة، وقد وقعت
 تشاهد تحولات الزمان في الواحة أزيد من نصف قرن. وأكثر ما
 أفرغها أنها لم تشعر يوماً أنها يمكن أن تزول. نعم، لمدهش في
 الرحلة أنها ظلت نفسها خالدة، وبرغم أنها كثيراً ما أنصت
 لسكون الجليل وتمتعت بالصحراء الأبدية إلا أنها ظلت تنتظر،
 كل يوم، متى سيأتي اليوم الذي ستعيش فيه. لم تقطن للعبة،
 وسرحت في غيبوبة ألقتها عن الماء وأنستها الحياة الزائلة. نسي
 أن الزوال آت، والفناء حق، والنخلة الحكيمة هي من تلذذت
 بالماء وشربت منه قدر ما تستطيع. لم تصدق أيضاً أن هذه الثروة،
 هذا الكنز المطمور في بطن الأم، يمكن أن يهرب ويذول.
 الآن، فقط، بدأت تفيق من الغيبوبة، وهي تخنصر
 وتحسّر وتقاوم حرارة النزع الأخير.

- 6 -

أقبل الشيخ وحاوره عند الجذع. أنصتت فبدأ الحكيم
 أتت لن تفلح في الأرض لأن قبلك مرهون في مكان آخر
 بعيد. لا تحاول!

قال المسوس يأس التعساء

وهل أستطيع أن أخلق نفسي من جديد وأتنگر
نصحراء؟

استرفت القربة وأضعت الماء. ألا ترى كيف هبط مستوى
الماء؟ انظر إلى النخل. إنه يحتضر. سوف يموت.

- الأرض السّبخة لا تصلح للفلاحة.

- بل أنت من لا يصلح للفلاحة.

- أن يتناول الصحراوي ويمدّ يده للحرث والزرع فهذا من
علامات قيام الساعة !

- صدقت. هانحن نشهدها تقوم في الواحة عسى
يديك. قريباً لن نجد ماء للشرب. اخرج. آن لك أن
تخرج.

- إلى أين؟

- ألم تقل إنك ترك قلبك في الصحراء؟ عُدْ إلى هناك ودع
الفلاحة للفلاح.

- ولكن أنت تعلم أنني لم أترك البرّ طوعاً، إنها جذباء، لعنة نزلت
عليها.

- وأنت لعنة نزلت على الواحة. قتلت النحل وستموت
بالعطش.

- هذه أرضي. ابتعتها من حلائي. من ثمن بعائري. و لم يكن يوماً
ضيفاً عسى أحد.

- لعن الله المال مقابل الماء. ليس الفلاح وحده من يركع ويلتم
التراب عندما يجيء ذكر الماء، ولكن الصحراوي يفعل ذلك من
باب أوّل.

- لا حيلة لي في هروب الماء.

- حئت بآلتك الشيطانية قبلعت من الأرض آخر قطرة.

- لا حيلة...

- اللعنة...

- 7

شهدت المبايعة أيضاً.

السانية كانت مهملة، زحفت عليها الرملة المعاندة، قبل
وصول البدوي. ورثها ولد شقي، مهذار، عن أب فاضل، ناضل
بشجاعة ليزرعها ويسقيها ويقيها على قيد الحياة. وما إن مات
حتى أفت الولد الولهان بالنساء. فأتيج لها أن تتفرج مرّات على
غر مياته مع الفلاحات الصغيرات، بل إنه دعا إلى جذعها مرّة
مطلقة تباوية قضت معه ليلة صيفية كاملة. ولما كان من المستحيل
الإبقاء على ولّه من هذا النوع في طي السر في واحة فقد اضطرّ
لشقيّ أن يهاجر إلى الشمال. وحتى عندما باع الأرض فإنه لم
يكلّف نفسه عناء الحضور شخصياً. بل أوكّل قريباً له لإنجاز
المبايعة.

ولا تستطيع أن تعرف من هو الشيطان الذي دس في رأس
البدوي فكرة ابتياع تلك الكتلة المسوسة السوداء، التي جعلت
منه هو نفسه، فيما بعد، كائناً ممسوساً. وهي الصفقة الوحيدة
لتي فوجئت بها وتمت من وراء ظهرها.

- 8 -

ستجمعت كل ما تبقى فيها من حياة، استدعت آخر
فطرة نداوة من أبعد عرق في الأرض المتيسية، لتؤدي عبادة
الصبح. آخر صلاة، راقبت الفجر البكر حتى انشق الأفق عن
أول شعاع شمسي. لم تعد الشمس الآن جلاداً قاسياً. ففي لحظة
الوداع، لحظة الفناء والانحلال، تستوي الأشياء، وتصبح
الشمس نفسها قبلة. يصبح الخصم طرفاً وديعاً تنهياً للاتقاء بها
لتكون، مع القرص، العدو، جزءاً من كل واحد.

هبت نسمة شمالية أخيرة. نسمة بحرية مثقلة بالرطوبة
والنطر. امتصت منها النداوة النفيسة كلها. ولكنها تبخرت عند
طولع أول موجة من أشعة الشمس المكابرة.

شاهدت المسوس البائس يعدّ جملة ويتأهب للهجرة.
تبعته وهو يتحرك ويدخل الحرم الرملي الرهيب. وكما ألفت أن
تنقي بالرطب في وجه من يرميها بحجارة فإنها صلت من
أحبه واقعة، مرفوعة الرأس، وطلبت له الغفران من الأرض
ولسما.

ظلّ القدّ المديد، الأملس، يقف طويلاً في الواحة. ولكنّ
القبلي العحوز ما لبث أن أطاح به في إحدى مهمّاته العاحية،
فزحفت الرملة وسدّت فم البئر بتلّة رملية عتيّدة.
توسّعت حدود الصحراء، وكسبت موقعاً جديداً في
سفرها الحالد.

الدار البيضاء

1991/2/13

آمغار⁽¹⁾

... معروف كشخصية كونيّة. مطلع على السرّ مرتد جلد
ظبي أسود، مع ذقن طويلة يسافر من المحيط الشرقي إلى المحيط
الشمالي ويخلق العالم».

مرسبها إلياد

«تاريخ الأديان والعقائد»

المجلد الأوّل

- 1

كان علامة محفورة على صدر الصخر إشارة بحسمة
بـ «تافنسست» في كهف نحتته الآلهة في جبل الصلصال. كان
وشماً مخطوطاً بروح الأسلاف. إيماء خفية مجبولة بهمة أهل
الصحراء على الحياة والبقاء. تميمة منحوتة على لحمة الحجر.

(1) معر لأب، الحدّ، كبير القوم. رعيم القبيلة. الشيخ (بلعة الضّوارق)

تقيهم شرّ الانقراض والفناء. أعجوبة خرجت من متاهة السكون
والزول لتقيم في محراب الزمان، لتتبدّل معه في حدوده،
وسيرورته. وغدره، وباطله. وجد نفسه ينفصل عن خمة
الحجر، يذبّ على قوائم. كائن يسعى. يهرع إلى الجبل السماوي
المستحيل ليلتقط أبناء القبيلة من القمة، ويعود بهم إلى قمم
تادرات. يلقّهم في كهوف الأسلاف ليعودوا إلى الحياة ويُعثوا
أولاداً من جديد. ينزلهم من سماوات «إيدينان» المجهول.
يعيدهم إلى الخضوض. إلى الأرض. إلى التراب، قبل أن ينتقوا إلى
أرحام الأمهات، ويتواصلوا في التسلسل الذي يحمي القبيلة
الصحراوية الشقية من غول الفناء.

لأن الآلهة شاءت ألا يتحوّل المخلوق السماوي. الهائم
مع الغيب فوق إيدينان، إلى إنسان، قبل أن يتنقّل ويتبدّل
ويتقلّب في الأرض كما يتنقّل ويتبدّل ويتقلّب الزمان لمكابر
في مداراته السرية، وهو يحهل هذه المدارات. الآلهة التي
أرسلته لم تشأ أن تكشف له حجاب التحوّلات. وجد نفسه
مخلوقاً انفصل عن لحمه الجبل. يجري منذ بدء الحياة ليأتي
بالمخلوقات الأرضية عندما تفقد الأورار التي تشدّها إلى
الصحراء، إلى الأرض، فتتبخّر، وتحرّر، وتنطلق مع الهباء
ولهواء وذرات الغبار، لتنضمّ إلى الغمام المجهول لتجول
دوماً فوق الفوهة السرية على رأس جبل المستحيل. كان يعرف
نه عحوز قديم، يقوم بدور الرسول الذي لا يعرف شيئاً غير
البلاغ.

ولا أحد في الصحراء يعرف متى بدأ أمغار رسالته
لخالدة، ولا أحد يعرف متى تنتهي أيضاً.

- 2 -

وجد آمغار رأسه متوجاً بعمودين قاسيين محوتين من
لصلد كي لا يسي أصله الجبلي. ولكنه اكتشف، مع الزمان، أن
لرسول يحتاج إلى سلاح للدفاع عن النفس، فاستخدمها للبطح
ورددع المخلوقات العدوانية.

كتشف مهمة أخرى للعمودين المكابرين عقب مطاردة
قدسية من الرعاة الأشقياء. فاجؤوه يرتع في وادٍ عميق مع نشاط
الأفق بنور القبس البكر. لا يعرف كيف عرف الأشياء سرّه
فحاذروا أن يأتوه من جهة الريح البحري الذي يتحرك مع
الفجر، وتركوه يبدأ صلاة الاستسقاء. ثم شطر الشمل وتنسم
الماء في الهواء الشمالي الرطيب. فالأعشاب الجافة لم تزده إلا
ظماً، والسماء لم تجذب بقطرة مطر منذ أعوام، فجفت المياه في
شقوف الصخور، ولم يبق إلا أن يؤدي الشعائر القديمة التي ورثها
عن الأسلاف: وقف ليتزود بالماء من النسيم البحري، ويشرب
لندي من فم الرسول الشمالي.

في هذه اللحظة الجليلة، المشحونة بالخشوع والتسليم
والانتهاز، هاجمه الأشقياء من الوراء، وألقوا بالوهق على
لعمودين. قفز إلى الغراء وطار نحو الجبل. نعم. الجبل هو معد

الوذاب، وحرْمُ الصحراء. في كهوفه تولد المخلوقات، وفي قمته
تصعد إلى السماء. الجبل مسقط رأس آمغار وحصنه الحصين.
الجبل: العمود المقدس الذي حفظ وصايا الأسلاف من
الانقراض، ونقل للأجيال أغاني الشجن ومواويس الحزن
وأساطير التكوين. الجبل في حصنه يتلاقى أهل الصحراء بأهل
الحفاء، يستعيدون الماضي المجيد عندما كانوا قبيلة وحدة لم
يفرقها الجشع، ولم يشتت أبناءها العدوان. الجبل صومعة تغنت
بها الصبايا، ونظمت في صبرها شاعرات القبيلة أنبل القصائد.
الجبل عماد الكون الصحراوي المكابر، ونصب الآلهة
ومعقلهم العظيم.

وصل حضيض الجبل. بدأ يصعد السفح والوهق
معلق برقبته. في طرف الوهق استمات أحد الرعاة وتشتت
بالقيد بالأسنان واليدين. ولكن انتظر! سوف أصح حمي
مولاي، وأعتصم بحبله. عندها أرني بطولتك، وأرني قوة
حبلتك!

وصل أول صخرة. قفزها مستعيناً بعموده الهائين،
وتخطأه إلى الناحية الأخرى. أحس بخفة مفاجئة. كأن مولاه
العظيم أزاح عن كاهله صخرة عظيمة. التفت من وراء العين،
فراى أن الشقي، الذي جره طوال المسافة، قد تخلف وراء
الصحرة. ثم يهرع باقي الرعاة لمساعدته، ولكنهم طردوا وراء
الطريدة. طاردوه هو وتسلقوا الجبل من الجانبين ولكن
انتظروا أيها الأشقياء! سأريكم ماذا يستطيع «آمغار» العجور

أن بعض عندما يمثل بين يدي مولاه. تقافز فوق الصخور. تنقل بين حجارة أشرس من مخالب الوحوش. بدأ الأشقياء يهشون رماه أحدهم يسهم فأحارته منه صخرة حطّها مولاه كي نكون له درعاً بدؤوا يستعيثون ويتصايحون. أحدهم تدحرج عبر السفح بعد أن داس على حجر انهار امتثالاً لأمر مولاه. أدرك القمّة الأولى. استدار كي يتفقد ساحة العرائك. وجد شقيبا ممسوساً يقف فوق رأسه ويهم أن يطعنه بالرمح. التفت فرأى الهاوية في الظلمات. سمع صوت مولاه يأمره «افز عني رأسك. عني قرنيك المستعارين من لحمه الصخر وسترى أن في الموت الحياة».

امتلأ الأمر مولاه. سقط على رأسه في الهاوية. سافر في رحلة السر الغامضة. قابل كلّ الأسلاف الذين سبقوه. رآهم وهم ينحتونه في سورة الحجر. في بدن الجبل العظيم. سخرُوا من فجيئته وخوفه من الموت وقالوا له إن في الموت الحياة، والحياة ما هي إلا موت. سمع العراف يقول «أذهب. عُدْ إلى هناك. وتنفس. وما رِس الشقاء الذي يسميه أهل الباطل حياة. وعُدْ لنا بعد عمر طويل وحدثنا عن رحلة تبدأ في الخلاء وتنتهي في الخلاء». سم تشاور العراف المهيب مع السحرة واستوقفه قائلاً: «انتظر. فلقد وجدنا لك عرضاً يجعل معنى لما تسفوه حية. أعطيت الخلود بإذن الآلهة مقابل أن تأتيني بكلّ من اقطع به الخس من الأحفاد. أنت رسولي إليهم، ورسولهم لي في مأواي. ولكن احترس، فالوصية تتبع كلّ أمرٍ مقدّس: إياك من المكابرة،

ومن نظرة الاستعلاء. فالاستعلاء يحرق التميمة ويحعل منث
مرسولاً بديل الرسول. فاترك الاستعلاء للآلهة وآتني بالأحفد». ثم... د... د... د... م... م... م... م...

عاب العرّاف، واختفى طابور الأسلاف، وسمع صوت
رتطام قرنيه الجبارين بالصخرة، في هاوية الجبل. في الرحلة
تخلص من الوهم المعلق في العمودين، ووجد نفسه أبعد ما
يكون عن أيدي الأشقياء، وعن غول الخطر. تفقد سلاحه
فادهشه أن القرنين لم يصبهما الأذى. تلفت حوله وبدأ يصعد
السفح ليخرج من الهوة.

ولكن هيهات أن ينسى شعائر الرحلة السريّة من
عبر برزخ الهاوية. وعاد إلى الملوكوت الصحراوي من
جديد.

- 3 -

في المرّة الأولى ذهب في الهاوية إلى المجهول، وعرف
وظيفة القرنين، وبهما عاد إلى الصحراء مسلحاً بوصايا
الأسلاف.

وفي الجولة الثانية عرف أن العشب دائماً شرك.

انفصل عن القطعان واعتزل في شقوق الحبال. هام
وحيداً. اعتصم بظلمات الكهوف. أعاد قراءة الوصايا المبرورة
عسى الجدران الصخرية. فكّر في عدوان أهل الشقاء، وراحع في

فنه آيات الخطر مستعينا على الهوى بالصيام. استعداد رحمة
 مُعرج لتي استغرقت من عمر الوجود غمضة. وقطع فيها
 مسافة شاهد فيها منابع الزمان في الأزل، وطاف بها كَرَّ
 لأركان و لأكوان. في غمضة عرف قدراً كان أقرب له من
 حبيل الوريد فعاد. تمحرد أن طوى العرّاف كتاب السر
 والحدود، فنطح الصخرة في الهاوية، ليجد أنه قد وُلد من
 جديد.

قرأ في صومعة الاعتكاف نصوص الكتاب السري، ومثل
 نبوءة العرّاف الذي طوّق رقبته بتمائم الرّسل، ليؤذي الرسالة
 الأبدية.

قتل الهوى بالصبا، تطهّر من الرّجس بالاعتصام.
 نزل إلى الأرض كي يقيم أوده، ونسي أن من خرج من
 زحمة القطيع، عليه أن يدبّر أمره، ويصنع من نفسه ربّا على
 مصيره.

- 4 -

عسى باب العشب رابط له الأشقياء بالمكيدة.

وهل يستطيع أشقياء الأرض أن يربطوا على فتح آخر غير
 العشب؟ هل يستطيع المخلوق الأرضي المسبوك بالطّين، المجبول
 عسى لئهم، أن يراهن على شرك أقوى من اللقمة التي تقيه
 الحوف الشيطاني؟

ولكنه لم يقدر أن يقتنع نفسه بهذه الحقيقة الكريهة في ذلك العهد المبكر.

كان حذراً دائماً. ولا يستطيع أن يقول إنه تحنى عن هذه الحكمة التي رضعها في حليب الأم والتقطها من سلوك الأسلاف، ولكن حيل الإنسان غلبت، دوماً، حذر دكي المخلوقات، بما في ذلك الودان.

نزل السهل في الظلمة. بعد منتصف الليل بكثير. قُبِيب الفجر الأول بقليل. تشمّ التراب، شرب من نداوة لنسيم الشمالي، فسكر من رحيق البحري مستعيناً بالهواء الندي عن الظماً الأبدي، مستنشقاً أنفاس الفردوس السماوي البعيد. فيبقى النسيم الفجري البكر بلساً للظماً الأزلي، عزاء في القبط الصحراوي الخالد. .. ثميمة أخيرة للحياة.

ولكن هل يطعم النسيم عشياً؟

لا ليس بالنسيم وحده يحيا الودان، حتى لو كان النسيم مستعاراً من فراديس الشمال.

- 5 -

بحث في أنفاس الماء عن الرائحة، رائحة المخلوقات لمسوسة التي لا تنام إلا إذا اقترفت أذى. لا تهجع للنسيم، ولا ترصى أن تريح الرأس الشيطاني على صدر الأم الأولى، على صدر الأرض الصبور، إلا إذا قطفت زهرة رتم، أو حزّت رأس

حجة وسكرت بقلبها، أو أجهضت غزالة بريئة تركض في البرية، أو.. أو تعاوت في قتل ودان يعتصم بالجبل، ولا يريد من الخلق إلا العرلة والمنفى والنسيان. ولكن هيهات، فال مخلوق الممسوس لن يهدأ إلا إذا ملأ الجوف بلحم ذوي القربى، لأنه لا يستطيع أن يسام طالما كان الشيع هو القرين الأول للنعاس والخنمول والاسترخاء.

بلوى أخرى سلطها القدر على رأس الودان هددته دئماً بالانقراض، لو لم يهرع الأسلاف لإنقاذه بحصن اسمه حاسة الشم. لقد تفقد كل الأراضي المجاورة بخطمه قبل أن يجرؤ على الاقتراب من عشبة الوادي.

- 6 -

قاده قسره إلى الطعم الأبدي الممسوس في الطعام. اقتطف فروة الحفاء وطفق بمضغ بحذر. يطحن العشبة الحريرية لحظة، ثم يتوقف فجأة لدبيب المخلوقات. صمت. سكون مقدس. تعب. حتى الجن توقفوا عن محاوراتهم الليلية في الكهوف ومشارف الوديان. تعب حتى التعب وهجع للاسترخاء ولكنه لم يطمئن. كيف يطمئن من ورث ألف ألف وصية سلفية تبدأ كلها بـ«إذا..» وتنتهي بتحذير أصبح شريعة بسبب التكرار.. فاحترس من المخلوقات التي لا تنام، ولا تكف عن قتراف لأذى».

ولكن حاسة السمع حصن آخر ضد حركة المخلوقات.
فإد كان يستطيع أن يرى العدو، بخطمه في نفحة الهواء اندي
يشربه عى مسافة أيام، فإنه يستطيع أيضاً أن يبصر الخطر بالأذن
على مسافة أيام أخر

ولكن من يستطيع أن ينافس المخلوق العاوض في اختراع
المكاند ؟

رأى الأثر المشبوه تحت شجرة الخلفاء قل أن يتبع النعمة
الأولى. هل هو أثر عشبة برية جرحها الريح، أم ضلالم سحرية
رسمتها يد المخوق المسوس بعرجون نخلة ؟ وحتى إذا كانت
العشبة البرية بريئة من صنع الأثر الخفي، فإن الرموز الغامضة
رُسمت ببراعة حتى لا يتقنها إلا السحرة من فئة المخوق
المسوس.

حاول أن يتبين الخطوط في الظلمة. تقدم ليقرأ رموز
المجهول. ونسي وصية الأسلاف التي تحذر من الفضول، وتنهاى
عن التعمادي في المعرفة. لأن ما يسيء كامن في الغيب، والنبوءة
تطق بلسان الخطر، ولولا الفضول الشيطاني لما تلقى المخوق
لمقدس لعنة الشقاء، فطرد من فردوس النعيم ليحد نفسه وقد
تحول من ملاك سماوي رحيم إلى إبليس أرضي رجيم.

تقدم خطوة أخرى فوق في الفخ.

جر جر الشرك واعتصم بالجبل. ركن إلى الصخور
واحتمى بالعزلة. استعان على الأذى بالمنفى، وتحصن من
الشرك بالصوم. خسر العالم حقاً، ولكنه أدرك أن هذه الخسارة
هي لشرط الأول الذي يتكبده كل من شاء أن يعرف خاتمه
ويكسب نفسه.

ثم بشر المهمة، وبدأ المسيرة السرية.
طاف الحلوات، وتنقل بين ربوع القبائل. يجمع
الأخيار الذين تحرروا من قمقم البدن، ويعود بهم إلى
مغاور الظلمات، كي يمثّلوا أمام الكاهن الخفي. هناك
يخضعون للحساب. يعلمهم لغة الولادة كي يفهموا أخيراً أن
الكابوس سيبقى، قدر الإنسان ما ظلّ يبحث عن الخلاص
خارج نفسه.

إلى أن قدّر المقدّر وأرسله إلى جبل الجنون كي يعود
سعيد لأجيال إلى أرض السكينة لتتظر له الجبال أمر الولادة
عندما يمثّل للمساءلة بين يدي الكاهن الأعظم.

في طريق العودة اعترضه الدرويش، وحاوره بلسان أهل
السر ولم يكن صعباً عليه أن يخاطبه بنفس اللغة ويحبره بالسر
بلسان أهل السر.

- 11 -

ولكن المخلوقات الشقيّة التي لم تقنع يوماً بالهزيمة،
اعترضته في سفوح القمم، وطاردته عبر العراء المفروش بحجارة
أقسى من ألسنة السكاكين.
كان متعباً.

أنهكته الرحلة الأبدية، وناء تحت عبء الأمانة الأزلية.
ولكن شرائع النبل الصحراوي تقضي أن يعترف بأن كل هذه
الهموم لم تكن السبب الذي مكّن منه الأعداء، ليجد نفسه وقد
أصيب بالرمح القاتل في النحر. نعم. فليعترف الآن بأن
الاستعلاء هو السبب.

فيعترف أنه خائف وصيّة العراف السري ورفع رأسه إلى
السماء مكابراً. نعم. ضربة القدر القاصمة لا تنزل إلا في غفلة
الزهو وتيه المكابرة.

وهي وصيّة ورثها عن الأسلاف أيضاً، ووجدتها خيراً
مخطوطة على جدار المغارة، ولم يفعل عراف الهاوية إلا أن ذكره
بها وأعادها على سمعه في معراجة القديم.

بعد أن نجا من أيديهم، واستطاع أن يتحصن بالصخور
 للإلهية، شعر بزهو النصر، وغمرته الرغبة الشيطانية في أن يتباهى
 بالتفوق. وعليه طبع الودان الفاني، فتوقف عن الركض في القمة،
 ولتفت إلى الأشقياء ليسحقهم بنظرة الاحتقار التقليدية لم يدر
 أنه تشبه بالآلهة، ونسي المهمة الرسولية الخالدة، وغلب فيه طبع
 المخوق لوضيع الفاني، تطبع المخلوق السماوي الخالد. صار
 الجزء في الحال، وهوى من قمة الجبل المستحيل إلى حضيض
 الأرض، ليقع بين يدي الأشقياء.

بدأت دورة أخرى من دوائر القصاص.

- 12 -

جاؤوا به إلى «واو».

هناك انتظرتة مفاجأة أخرى.

فما أن مثل أمامه «آخموك» الفائز بلقب «المستغ» حتى
 عرف ولده القديم. ابنه الذي حمله على ظهره وعبر به
 الصحاري كي يمثل في حضرة الكاهن، ويحفظ سيرة لولادة
 ويحتمه على ذاكرته بالنسيان قبل أن يحين الوقت ويعود إلى
 الصحراء من جديد. ويبدو أن ذاكرة هذا الابن العجيب كانت
 أقوى من النسيان، فتمردت على القانون السري وتذكرت
 الأب لقد اضطر أن يخبره بكل شيء في نظرة واحدة. فهم ابن
 الحجر لغة الجذ الحجري وانهار بالحصى قبل أن ينبغ السيطان

بالرحاء. ولكن آخموك المسكين لم يدرك أن آمغار لا ينزل
السهل، ويقف أمام الحفيد، إلا إذا أخذ معه الأمانة إلى الجبل.
لأن الأمانة هي القربان الوحيد الذي سيكفر به آمغار عن إثم
الكبرياء الذي صرعه. وشرعية الأسلاف هي التي تقول: إن عني
آمغار أن يضحّي بابنه إذا شاء أن يكفر عن السيئة، ويكسب
رضوان الآلهة.

لأنه الوحيد، في النهاية، الذي يعلم أن في نجاته حياة
الصحراء، وفي اختفائه زوال القبيلة وفناء الأجيال.

ليماسول - موسكو

1991

الفة

- 1

- اخنوخن. أنت قتلت أمي !

سمع الاتهام بوضوح. وسمع صده يتردد في القمم
الحفية، البعيدة، العارية. توقف وأصاخ السمع. ثم بحث في
الجبال المجاورة فلم يقع بصره على مخلوق. مشى بضع خطوات
أخرى. تكرر النداء

- اخنوخن. أنت قتلت أمي !

ألقى الصوت المجهول بالاتهام فوق رأسه. رفع رأسه إلى
عنى فوجد فم الكهف في مواجته. ضلمة كثية، موحشة،
نصح لإقامة أهل الخفاء. وقف في المواجهة لحظات، ثم استدر
ومضى. خيل له أنه سمع أقداماً تدحرج حجارة خلف ظهره،
ولكنه مضى دون أن يلتفت. انتظر أن يتكرر الاتهام، ولكن
لسكون الحيل عاد إلى تاسيلي. فكّر في الاتهام. أين ومتى قتل.

لا يذكر أنه قتل أحداً حتى في المنام فمن أين جاء المجهول بهذا الاتهام القبيح ؟

ليس الهتاف، ولا النداء مدهشاً بالنسبة لرجل مثله عاش حياته كلها في وطن الجن والأشباح تاسيلي، ولكن اللغز هو في الاتهام البشع. فهل تعلم أهل الخفاء المزاح أيضاً ؟

بغ السفح. بدأ يصعد. انتصف النهار. مسح العرق عن جبينه بذراعه. ألقى بحزمة الخطب في مدخل الكهف. أنصت مرة أخرى. ارتفع لحن السكون الخالد. انتزعت الصحراء لمبادرة واستعادت سكيتها الأبدية. شمس منتصف النهار تجر حتى الجن على الانسحاب.

- 2 -

تفقد الحدوش في ذراعه. تناول حفنة من الرمل وذرّها فوق الجراح. نهش الملح اللحم فتأوه. ابتسم وهو يتابع شقاوة الملوحة وهي تتبّع آثار الخطب، تأكل اللحم، وتلعق الدّم.

تسكّع في المدخل. استطلع الحضيض فرأى كيف يتمادى انسرب ويمد أعرافاً من اللهب على الروابي البعيدة، صانعاً مع السكون، الجلال الخفي.

ز العرق. عاد يمسح الجبين بكمّ الجلباب. تفقد الحدوش. كانت ذراعاه موسومتين بخطوط صنعها الرمل تشبه القلاع الذي تحطّه عروق الأشجار الرية فوق وجه الرمل. عند طوق

التراب الذي تقيمه الريح حول الجذوع. ملوحة الرمل امتصّت
 الزيف وأوقفت تدفق الدّم. جراح المعصمين قدر الخطّاب. لا
 يذهب لاستجلاب الخطب دون أن يعود بجروح في المعصمين.
 وكانت أمّه ترشّ الرمل على يديه وتقول بتسليم «ماذا تظن؟
 الخطب يريد نصيبه أيضاً. الخطب لابدّ أن يأكل نصيبه أيضاً لابدّ
 أن يأكل قبل أن يؤكل، لابدّ أن ينتقم قبل أن يؤكل، لابدّ أن يستقم
 قبل أن تحرقه بالنار». تقول ذلك بلهجة جادة وكثيبة إلى حدّ
 يجعله يشعر بالشفقة والنّدم. يشفق على الخطب المسكين الذي
 سيُحرق بالنار، ويدم لأنه تسبّب في وقوع الجريمة. في البداية
 كان يضحك من لعنتها ويسخر من قدرة الخطب على المناورة
 والمقومة والانتقام فيسأل الأم «وهل تستطيع خطبة يابسة أن
 ترغب في النصيب يا أمّي؟ هل يقدر عود ميّت أن يعارك ويدفع
 عن نفسه؟» فتجيب بنفس اللهجة الجادة، الكثيبة، الغامضة
 «وماذا تظن؟ كل شيء في الصحراء يتألم ويفرح. حتى الأرض
 الحرساء. حتى الحجارة. حتى ذرات الرمل. ألا تستمع إلى درات
 الرمل في نسهل عندما تفرغ الطبول وتردّد الألحان في الليالي؟
 إنها تفعل ذلك احتفالاً بالنسيم الشمالي، وفرحاً بالخلاص من
 حرّ النهار. انظر كم تدو يائسة وشقيّة في منتصف النهار. إنها
 تفتح صدرها وتتعذب في صمت. إنها تستسلم للقدر ولا تشكو
 أبداً ولكن التسليم بالقدر في النهار لا يمنعها من أن تفرح وتغني
 وترقص بالليل». وكانت تبدأ بشعائرها. ترمّ شفيتها، وتحّدق في
 الحلاء لموحش، الفسيح، الممدود في مواجهة الجبال، كأنها تظر

في الفراغ، ثم تبدأ في التمايل، مع شكوة الحليب، يمياً ويساراً تستمر هذه الصلاة زمناً طويلاً، تمتد حتى القيلولة أحياناً. عندما كان صغيراً ظن أن مخض الحليب وتكوّن الزبد هو الذي يستدعي هذا الزمن الطويل الذي تتفقه العجور في الشعائر اليومية، ولكنه فهم، فيما بعد، أن تحصيل الزبد لا يستغرق ربع هذا الوقت. ومضى زمن أطول حتى فهم السر. فهم أن صلاة لعجائز حقيقية تبدأ بعد نهاية الصلاة. العبادة الحقيقية هي التي تصاحب الإيقاع الرتيب الذي يحدثه اندفاع الحليب في الشكوة إلى الجانب الأيمن، ثم إلى الجانب الأيسر، حسب حركة الأم إلى الجهتين. وقد لاحظ أنها لا تحرك يديها فقط، ولكنها تتحرك بكل جسمها. تميل بالجزء العلوي حتى تكاد تلامس لأرض، ثم تميل إلى الساحة المعاكسة حتى تكاد تتوسد الشكوة. كأنها ترقص. كأنها تمارس الحذب الذي يتقنه الرجال عندما يقعون في الوجد. الرجال الذين تستفزهم الأخان وتوقظ فيهم قوى الجن؟ والشبه بينها وبين المجدوبين لا يقتصر على الحركة والترنح يمناً وشمالاً فحسب، ولكن في حالة الغيبوبة أيضاً. فهي، إذا بدأت العمل، لا ترى، ولا تسمع، ولا تفهم، ولا تنطق، ولا ترد على سؤال. تظل واجمة، كئيبه، جيبه، كأنها تصلي. عندما تكبر للصلاة أيضاً لا ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا ترد على سؤال.

في ذلك اليوم عندما حدثته عن عذاب الأشياء في لصحراء راقب موقد النار. أنصت للأنين في أعواد الحطب.

تأملها وهي تحترق في ألسنة النار ورأى كيف ينز منها سائل معتم كالدم. قال في نفسه «إنها تنزف ! إنها تنرف !». كان الأنيس موحعاً ولزيف يتواصل بلا توقف. مده يده وأخرج عوداً سرفاً من الموقد. تحسّس السائل فوجده لزجاً، قانياً، حاراً. نزيف حقيقي. دم حقيقي. أحس بالغثيان. امتنع عن الطعام في ذلك اليوم. وفي الليل حاول أن يتصيد الفرح في ذرات الرمل الحزينة. أنصت طويلاً. نامت الأم. ارتفع شخيرها في الساحة الأخرى من العراء، ولكه واصل السهر. ارتفع القمر. تسلى بمراقبة انقرص السري الغامض. و. فجأة سمع نشيداً. مولاً أغنية حقيقية. فاجعة. تقرب وتبعد، يصاحبها ضجيج خفي. بعد قليل تبدى الضجيج واتضح في قرع منتظم، حزين، للطبول. كان فرحاً حزيناً.

تابع القرص السري، وأنصت للفرح الحزين. فلم يشعر كيف فزت من مقلتيه المفتوحتين دموع حارة، كبيرة.

- 3 -

يروى الرعاية الحكماء أن الصحراوي لا بد أن يموت بالأسباب الثلاثة الظمأ، السيل، الأمراض الخفية. ويؤكدون أن من لم يمت بالأسباب الثلاثة نال عمراً طويلاً. وتقول عجائز تاسيلي أن هذه حكمة لا تخص الرعاية، ولكنها وحدث مزبورة

في حدران الكهوف حيث حفرها الأسلاف الأوائل لقلا عن
«آهي» المفقود.

الأب مات بالسبب الأول قبل أن يعي معنى الموت
والحياة. ولأم ماتت بالسبب الثالث. وهي ميتة أجمع أهر
تاسيلي أنها أحمل ميتة يمكن لصحراوي أن يطمع بها. نهض في
الصباح فوجدها ما تزال نائمة، مكومة في مدخل الكهف
كقطعة قماش بالية. تسند رأسها الصغير بمعصمها وتتم شطر
انقبية. ناحية الشرق. كانت الشمس ناضل للخروج من الأسر
وتحفز لتعذيب الصحراء بأشعة النار. أدهشه أن يرى قرن
الشمس ولا يجدها تترنح فوق الشكوة في طقوس وجدها
اليومي. أرجع السبب للسهر ورجع عن نيته في إزعاجها. قرر
أن يتركها تتمتع بالأحلام حتى يعود من تفقد الإبل. ماذا يحدث
في تاسيلي لو أشرقت الشمس وعجوز بانسة، متعبة، ما تزال
نائمة؟ تتمد ألا يوقظها. ابتسم وهو يتناول وعاء الحليب وينزل
إلى النوق في الوادي. تذكر ما تردده دائماً من أن طلوع الشمس
على امرأة نائمة أمر يفوق حلول الوباء شوماً. الأرض التي
تشرق فيها الشمس والنساء نائمات لن ترى الخير أبداً. لن تسقط
فيها قطرة مطر، ولن تشقها السيول. فكيف ستر غفوتها؟ ماذا
ستقول لأشعة الشمس عندما تطلع على رأسها وتضبطها متلبسة
بالنوم؟ أي شوم ستره تاسيلي وهي التي لم تر سوى الشوم منذ
عشرة آلاف عام؟ أي شوم يمكن أن يجره شروق الشمس فوق
رأس نتي نائمة على تاسيلي التي عانت من العطش والمجاعة

والأويمة وقساوة الشمس ؟ أي مصاب آخر يمكن أن يدعى به
القدر تاسيلي التي ذاقته على يديه كل المفاجآت ؟

عدد بالحليب من الوادي فوجدتها ما تزال تتوسّد معصمها
الهيرس. نفذت الشمس وعيدها وسلّطت على وجهها أشعة
بحاسية وعدة بالحريق. انعكست دفقة من الضوء في عيها
اليمسى التي اكتشف فجأة أنها بقيت نصف مفتوحة. لا يعرف
ماذا أحس بالقلق. ربما لأن السبب يرجع إلى هذا التعبير المهم
لذي أثاره فيه انعكاس ضوء الشروق في بياض المقلة. تعبير رآه
في مقلة الشاة الذبيحة. تعبير الفجيعة. اقترّب خطوات. تحسّس
يدها فوجدتها باردة، كسولة، مثل قطعة حطب. أراد أن ينطق
باسمها. أن.. لم يستطع. تصاعد القلق. ركع بجوارها وهزّها
بكلت يديه. اختلّ توازن الجسد الهزيل ومال إلى الوراء. هجعت
على الظهر، وارتفع رأسها إلى السماء. تفتّح الجفدن عن كل
المقسة اليمنى. رأى التعبير الخفي واضحاً الآن. استسلام،
ووداعة، وتساؤل أكثر طفولة.

فهم ما حدث.

أدرك أن لدى القدر دائماً شوماً آخر يخبئه حتّى تحين
اللحظة المناسبة. أدرك أن لدى القدر مفاجآت يستطيع أن يبال
ه حتّى تاسيلي التي عرفت كل المفاجآت. مفاجآت يناله بها
حتّى هو الأعزل، المعزول، المقطوع من صخرة في كهوف
تاسيلي.

شعل النار في الخطب وترتفع في ظل فوهة الكهف. أعد وعاء الشاي وانتظر أن يخمد اللهب. رفع رأسه إلى السقف ونهّى بمشاهدة الجموع التي أتقن الأسلاف حفرها في لصحر رسوم منوّنة لرجال مرّدة يرتدون أقنعة، يطاردون حيوانات احتفت من الصحراء. .. أشباح. تقنن الأجداد وأبدعوا في حفر خيالات الجن على الحجر. أول تعرّفه على هذه المحبقات كن عني صخور الكهوف. في الصّغر، عندما طارد لجديان الشقيّة في الكهوف وبين شقوق الجبال اكتشف معارات كثيرة موسومة بهذه الأشباح والعمالة والغيلان. ولكن الأم ما لبثت أن كشفت له السر. قالت يوماً بعد أن انتهت من وجد الصباح «لا تستعذ منهم ولا تلعنهم فهم ليسوا سوى أهلك أيضاً». احتجّ «أهلي؟ الجنّ أهلي؟». رمقنه باستنكار. قالت بغموض العجائز «ولم تستنكر؟ كلّ سكان الصحراء أهلك. بل هم السكان الأصليون الذين سبقونا إلى الصحراء. ألا يسمّيهـم الحكماء «كبل أسوف»؟». سكت يومها وفكّر طوال الأيام التالية في صلة القرابة بأهل الخفاء. كان يتقل بين المغارات ويزرع الأتربة والأملاح والطين عن وجوههم المحفورة في الحجارة ويستعيد ما قالته العجوز. عاد في إحدى الليالي وسألها «ونكر لماذا يحيفوننا إذا كانوا أجداداً؟» وكان الجواب على شعيتها حازم دائماً: «الجنّ لا يخيفون أحداً. لا يخاف الجنّ إلا مخلوق

شرير لا أنكر أنهم مرححون وميالون للمداعبات في بعض الأحيان، ولكنهم لا يؤذون إلا الأشرار». يذكر ليلتها جيداً كيف سألها «ومن هم الأشرار يا أمي؟» هنا سكنت، فساد سكون الصحراء لسري. ظن أنها لن تتكلم فتهياً لأن يعيد السؤال. في النهاية أحببت «الأشرار هم الذين يقتلون الودان ويبيعونه لتخار القوافل. الأشرار هم الذين يصطادون أنثى الودان وهي حبي. الأشرار هم الذين يقطعون أعراف الشجر وهو أخضر. الأشرار هم الذين يشوهون وجوه الأسلاف المنقوشة على الصخور، ويخربون خطوط الأولين ويزيلون وصاياهم، أو يسخونها من أصلها ويبيعونها للأغراب. الأشرار. الأشرار، يا ولدي، كثيرون هذه الأيام». سكنت فعاد السكون السري إلى الهيمنة. ارتفع القمر وفكر. فكر وفكر، ثم سأل «وإذا كان الصياد حوعاناً، ألا يبيع له ذلك أن يصطاد أنثى الودان حتى لو كانت حبي؟». قالت بوضوح انطبع في ذاكرته إلى اليوم، إلى الأبد «لا يا بني. لا لا شيء يبيع صيد أنثى الودان. لا شيء. حتى الجوع» عاد يعاند «ولكن ألا يستطيع المهاجر أن يقتنع عوداً أخضر إذا كان البرد قاسياً؟». أجابت «لا يستطيع. البرد لا يترر قطع الشجر الأخضر مهما كان قاسياً. لا يحب على المهاجر أن يتدفأ بالشجر الأخضر كما لا يجوز له أن يأكل اللحم الحي. هل يجوز للإنسان أن يأكل لحم أخيه الإنسان؟». حاججها «وهل يجوز مقارنة لحم الإنسان بأعواد الشجر؟» هل الشجرة إنسان؟». أجابت بيقين «شجر حيوان. إنسان

نحس من صنع هذه الألقاب الغيبة. وما تسميه شجراً محبوق
مسالم لا ينطق ولا يتكلم ولا يبادر بسوء، ولكن هذا لا يعني أنه
ليس ذكياً ممي ومنك ومن أي إنسان». و.. سكنت. انظر أن
تكمل، ولكن السكوت استمر. التفت. رأى، على ضوء القمر،
دمعة كبيرة تتلألأ في أهداب عينها اليمني.

- 5 -

انصت لتوجع الحطاب في النار. أنين أليم مكتوم. الحن
الحزن والشكوى. أغنية الانفصال عن جسد الأم الأخضر. الأم
تقول إن هذا التوجع هو لغات تنطق بها الأغصان الخضراء
وتشكو بها الإنسان إلى الخالق. التوجع يعقبه النزيف. رأى
عص الطلح ينزف دماً قانياً. دماً موجعاً أيضاً. فكر أن الحطاب
لا بد أن يقترب الإثم وينزع عوداً أخضر. أعواد كثيرة تبدو من
الخارج يابسة، ميتة، في حين تخفي تحت طبقة السحاء حياة
حقيقية، وعندما تلقي بها في النار تبكي وتشكو وتتوجع. إنها
مثل الضب الذبيح. يبدو ميتاً بعد أن نزع وفقد الدم، ولكنه
يقفز من الموقد بمجرد أن تلقيه في النار، ويجري في العراء.
فكيف يستطيع الحطاب أن يميز العود الأخضر من العود اليابس؟
كيف يستطيع الصياد أن يعرف أن شاة الودان التي تتفاخر بين
الصحور كالشبح أنها أثى تحمل جنيناً؟

الأم قالت إن الحكماء الذين يحبون الصحراء يعرفون.
الحكماء الذين يعشقون تاسيلي ويحرصون أن يحكوا لرمور

عنى الححارة، ويكون على «أنهى» الضائع، ويلشمون أحساء
الأسلاف في جدران الكهوف يعرفون، لأنهم لا يعقبون الطلح
أو الودان، أو وصايا الأولين بعقولهم، وإنما يحسوها
ويتحسسونها بأبدانهم. سألتها في ذلك اليوم «وكيف يمكن
لأن تسيى أن يكون حكيماً مثلهم؟» فكان جوابها جاهزاً
«لن يكون ابن تاسيلي حكيماً ما لم يحب تاسيلي. لن تحس
بالحياة الخبيثة في العود اليابس إلا إذا أحببت الطلح. لن تحس أن
السبح هو أنثى الودان إلا إذا أحببت الودان. ولن تحفظ حكمة
الأسلاف وتعرف سر وصايا الأولين إلا إذا أحببت أنفسهم في
الحجر وثرهم في الصخور. ولن تحب تاسيلي إن لم تبث حب
على تاسيلي. لأن تاسيلي كانت في يوم من الأيام جزء مدهش
من السماء. تعايش فيها الجن والإنس والودان والضب والطلح
والأثل في فردوس تجري في وديانه سيول خالدة. ولكن لإنسان
هو الذي بدأ. الإنسان هو الذي خان العهد ورفع يده على أخيه
الإنسان. ثم كاد للجن، واصطاد الودان، وذبح الضب، وقطع
أوصال الطلح والأثل ففقدت السماء بالفضب وتزلزلت
الأرض، وانفصلت تاسيلي عن السماوات. جفت الينابيع
الخالدة. ووجد الإنسان نفسه وحيداً في العراء. فابك. ابك على
تاسيي وتوسل أن تعود جزءاً من السماء. واعلم أنها لن تعود إلى
السماء ما لم تتوقف أنت عن صيد أنثى الودان الحبيلى، وتراجع
عن قطع الخطب الأخضر. .. ابك أيضاً. لا تتوقف عن البكاء.
لإنسان لذي يحب لا يجب أن يكف عن البكاء».

كانت تبكي. ووجد نفسه يبكي أيضاً. وعرف ماذا تسكي دائماً وتمز عيونها بالدمع، كلما جاء ذكر الحيوانات الصغيرة، أو الأشياء الخفية، أو الأسلاف، أو الماضي البعيد لصحراء أو أبطأ، عندما تسمع همهمات الجن في الكهوف، أو تكتشف عوداً أخضر ينزف في النار، لحظتها تقهرها العبرة، وتشارك الأشياء في البكاء.

- 6 -

في الليل زاره الجنّي لأول مرة.

نزل من الوادي ليقضي الليل بحوار الجمال. نام في العراء المشرف على الوديان الشمالية واستيقظ على حركة الاستنفار في الإبر. كانت قلقة، متوترة، ترفع رقابها في العنمة وتتلقت في عصبية. ولم يقرأ الإشارة في الوقت المناسب لأنه نسي وصية الأم القائدة إن للجمال قدرة خفية على الإحساس بوجود أهل الحفاء. فإذا ساوره القلق ودبّ فيها الاستنفار فاعرف أن كائناً خفياً قد أقبل.

أحس بقشعريرة. وكانت القشعريرة هي الإشارة الثانية التي تجاهلها أيضاً قبل أن يتلقى ركلة قاسية على عجزه اليمنى. هبّ واقفاً فتلقى صفعه أقصى على خده الأيسر. تحسّس الحد فهوى لجني على منكبه الأيمن بهراوة ثقيلة. وقع على الأرض، وركع على ركبتيه، محاولاً أن يتقي الضربات بيديه وذراعيه. تواصلت الضربات. تأوّه. توجّع. تلوى على الأرض. صاح بصوت وحشي ردّده الجبال «كفى! كفى! هذا يكفي!».

توقف العدوان.

سمع خطواته وهو يتصرف. انكفاً على وجهه وطفق يلهث. بدنه كله يتوجّع، يحترق بحرارة كالحمى. رحف إلى المتاع وتجرّع الماء من الزمزية. استلقى على قفاه وبذت عنه آهة فاحعة. قال في نفسه «ما أقسى يده ! ما أشرس يده !». وفيه لماذا يخاف الرعاة من الجن، ومن سيرة الجن، ومن انتقام الجن. حبس أنفاسه وأنصت. عاد السكون الحالد يتلغ كل شيء في الصحراء. الحمال هدأت واطمأنّت. بركت بعض الرؤوس وشرعت تجترّ بسكينة واطمئنان. أيقن أن الشبح ابتعد. واستغرب التزامه الصمت طوال انهماكه في تنفيذ العقاب.

لم يتكلم. لم يتهم. لم ينطق بالوعيد. لم يعد عليه تهمة النهار «اخنوخن. أنت قتلت أمي !». أم أن الجنى الذي اعتدى عليه هو مخلوق آخر؟ جنتي من قبيلة أخرى؟ ولكن لماذا لم يهاجمه جن قبل اليوم؟ لماذا لم يتعرضوا له بسوء طوال السنوات الماضية؟ وهل يعتدي جن على إنس بلا سبب؟ الأم تؤكد أن ذلك مستحيل. تقول إنهم مسالمون ولا يحتكمون إلى العدوان إلا رد عى عدوان، ولا يؤذون إلا مخلوقاً شريراً. فمتى ركب الشر؟ أين ومتى قتل أمه؟ أين ومتى قتل أمّا؟

و.. فحاة، وكما يفعل الإلهام، انكشف الغموض. وكشف برحي سماوي وانثق في الذاكرة كالضوء صبح فخا ونصه للودان منذ ثلاثة أيام في وادي «أميهرو» ! نصاعت نار

الحمى. تحولت أوجاع البدن إلى قلق خفي تكتل في قفص الصدر وخقه بالعبرة. بدأ يرتجف.

- 7 -

في الفجر وضع السرج فوق ظهر الجمل وسافر إلى وادي «أميهر».

وصل مع القيلولة. هددت الشمس بعذاب النار. وضقت السراب يسرح في الخلاء. ترخل عن المهري. ترك الجمل يرتع في أشجار الوادي. تتبّع آثاره عندما جاء منذ أيام وقرّر أن يتسلّى بصنع الفخّ. ولا يعرف الآن سبباً لهذا العمل غير التسلية. فالوّدان فازت في أواخر الشتاء بالسيول. النوق توالدت مضيفة إلى قطيعه إثني عشر حواراً. وحمل له الرعاة بشارة أخرى من المراعي وقالوا له إن ماشيته تكاثرت وتكاد تنضعف بأجديان. تاسيلي تفيض بالحليب والسمن والزبد والأحبان هذا العام. مؤونة السنة الماوية من الحبوب والتمور لم تنفذ من لمطامير. فماذا دفعه لصنع الفخّ غير الملل والتسلية ؟

وما يثير دهشته الآن ليس صنع الفخّ وحده، ولكن الشمس لذي دفعه في صنع الفخّ. أطاح بشجرة كاملة حتّى يتمكن من تركيب لعبته المشؤومة. فقد العقل، وأضاع الذاكرة، وخلف زلّ وصية نطقت بها العجوز. وجد الوادي يحري بالسيل. والسوق تتوالد، والبشائر تتوالى فتكاسل وركن إلى الاسترخاء.

سها فزلّ وحاكى الأشرار . وإلا من يسي وصايا الأم، ويحالف
تعليم الأسلاف لمجرّد أن الخير فاض في تاسيلي وعمّ ؟ من يعص
عن تقلّبات الصحراء . ويستسلم للاسترخاء دون أن يقرأ حساب
يوم يشيح فيه النعيم بوحه فتعمّ المجاعة والأوبئة والجفاف ؟ من
تغريه وفرة الخير ويصنع فخاً للصيد بدل أن ينحر شاة قرباناً
للأسلاف وشكراً للآلهة هو الشرير !

- 8 -

وقف فوق الحفرة فدقّ قلبه بشدة.

كانت الحفرة خاوية.

أطبق فم الشرك على الشاة، ولكنها استطاعت أن تخرج
من الهاوية وتجرّجر المصيدة إلى الجبل . اقتفى الأثر . على بعد
خطوات خلف الحيوان بعراً . تناول بعره وهرسها بين أصابعه .
بدأت تحف وتتييس . البعرة تعود إلى يومين أو ثلاثة أيام . الأرجح
أنها ثلاثة أيام . الحيوان وقع . نزل من الجبل ووقع في الشرك في
نفس ليوم الذي نصب فيه «لعبته» . في مساء نفس اليوم . قطعان
لودن لا تنزل لترعى في السهول إلا في الليل . تنزل في قطعان
عدة . وتعود لتعصم بالقمم قبل انبثاق قبس الفجر . ولكن هذه
الشاة لم تكن عضواً في قطع . ربما انفصنت عن القطيع في
لودي المجاور وقررت أن تجرّب حظّها وحيدة . الودان المسكين
لا يعرف العرلة . لا يعرف أن المجازفة تبدأ لحظة اختيار العرلة .

الخطر في العزلة. والحرية في العزلة أيضاً. الخطر والحرية إذن رقيقان. قرينان. توأمان. وهذه هي الحيلة الوحيدة، الحكمة الوحيدة التي لم يسمعها من الأم، ولم يتعلمها من الأسلاف، ولم يقرأها في رموز الكهوف. هذا هو المبدأ الوحيد الذي تعلمه بنفسه في الصحراء. المعتزل قوي حقاً لأنه لا يستطيع أن يعتمد على أحد يهرع لإنقاذه عندما يقع في ورطة. عندما يقع في الخطر. عندما يهاجمه ضبع. أو يتف حول رقبة ثعبان. أو يعويه الشراب ويرميه بعيداً عن صراط القوافل، فيجد نفسه أسير غول سمه الظلم.

ولكن هل يستطيع القطيع أن يفعل شيئاً؟ هل يفيد التواجد بين الجماعة حسب شريعة الصحراء؟ لا لا يفيد ولا ينفع. بل يؤذي أكثر مما يفيد. لأن الأذى إنما يأتي، أغلب الأحيان، من الجماعة. العنصر في قبيلة، أو قطيع، يسترخي معتمداً على الجماعة، وما أن تحل لحظة الامتحان ويحتاج لمساعدة أعضاء القطيع يكتشف أنهم أضعف من أن يساعدوا حتى أنفسهم. يكتشف أنهم إنما كانوا، طوال الوقت، ينتظرون يد المساعدة منه هو لا أن يقوموا هم بتقديمها له. يكتشف أنه غريق يتعلق بقشة. يكتشف أنه مخدوع. والمصاب إن لم يجرب الانتماء إلى الجماعة، القطيع، لن يستطيع أن يختصر الطريق ويتولى أمر نفسه نفسه.

وشاة الودان التي اختارت أن تنفصل عن القطيع وتبحث عن الكلاء في وادي «أميهرو» بدل الوادي المجاور. هي عصو

تتحرك قرّر أن يصنع مصيره ويتولّى أمر نفسه بنفسه. وما وقوعها في الفتح إلا شهادة على هذه الشجاعة، وبرهان على مسؤولية الاختيار.

- 9 -

مضى وراء الأثر الشاة تعارك الشوك، وتستमित في الوصول إلى الجبل قبل ميلاد القبس. أثر الصراع يتضح كلما عبرت الشاة ألسنة الرمال التي تشطر الوادي المفروش بطبقة رقيقة من الحصى، تتبعثر فوقه الحجارة الرمادية المحروقة بالشمس. ويبدو أنها تحد صعوبة شديدة في جرّ الفخ. ضاق عنق الوادي، وبدأ يتشعب كلما صعد إلى أعلى واقترب من الجبل. اشتدّت كثافة الحجارة الرمادية الكثيرة وساعدت في ضياع الأثر. مشى مسافة عبر الوادي الذي انحرف يمينا، ولكنه عد على عقبيه. تذكر أن مسيرة الودان تتجه نحو حصنه لأبدي. نحو الجبل. قطع الوادي صعد المرتفع. المرتفع قاده إلى لسفح الموخش، المتوخش، القاسي، المفروش بالحجارة العدوانية. ولكن القبلي انتصر، بعد مسافة، وقصم ظهر الجبل بلسان رمي عنيد. هناك، على الفراش الذهبي اللّمس، عثر على الأثر مرة أخرى. على الرمل عثر على قطرات دم يابس. واصلت مسيرة إلى أعلى. نحو قمم الصلصال والمستحيل. بدأ يستعين يديه في الصعود. تحاشى الوعورة وصخور الصلصال فانعطف يمينا، نحو جيد الحن. استمر يتسلّق الكتل الحجرية الجليلة مستعينا يديه، يتسلّى قرّة رموز «تيفيناغ» المحفورة على الأحجار حتى انترعه

من عفوته نعيق غراب. رفع رأسه فرأى الشاة معلّقة بين قمتين عاليتين. متقاربتين في الرؤوس، متباعدين في الأسفل. عند قاعدتيهما المصوبتين على شعفة الجبل. الفخ استقرّ في حجارة القمتين في الفجوة الفاصلة بينهما بسبب حجمه، فهوت الشاة إلى الهاوية، وظلّت معلّقة من قائمتيها الخلفيتين ورأسها بتدلّى إلى الأسفل. على رأسها يحوم غرابان. و.. على بطنها الممتلئ استقرّ عقاب نهم، يقر البطن. بل.. يا ربّي. استطاع الوحش الجارح أن يقر البطن حتّى برز رأس الجدي وتدلّى من أحشاء الأنثى. من البطن تدلّت أيضاً خيوط المخاط والدم. في عيني الأم الفارغة رأى الفجيعة. كانت الشاة نتوجاً.

انحنى وشرع يتقيأ بصوت عال كأنه يريد أن يتقيأ أمعاءه.

سمع أنصوت ينطق بوعيد القدر، من فم القدر

- اخنوخن ! أنت قتلت أمّي !

- 10 -

لم يحدث أن وقع سوء تفاهم بينه وبين أهل إخفاء قبل اليوم، بل إن علاقته بهم، فاقت علاقته بالرعاة انسجاماً طوال السنوات الماضية.

طبيعي أيضاً أن العلاقة لم تبدأ بين يوم وليلة، ولكنها كبرت معه وتطوّرت مع نموه، وتوطّدت مع اكتشافه لتاسيلي ورمور تاسيلي الأخرى. تكوّنت مع الفهم الطويل، القاسي، لأسرار الحجارة، ووصايا الأجداد المخطوطة على حدران

الكهوف. ثم بدأت لغة الأم تضيء له الظلمات. ظلمات الأشياء والكهوف وما خفي على عقله الصغير من سلوك أهل الخفاء والظلمات. وكانت لا تكلّ من تكرار أسطورتها عن لرباط المقدس الذي يجعل من كل كائنات الصحراء إخوة ينتمون إلى الأصل الواحد. وطبعي أن يمضي وقت ليس بالقصير حتى يفهم عمق العلاقة وقداصة الأخوة. اكتشف الأسرار بعد أن وقف على قدميه ودبّ بين الوديان والصخور. رأى الجن على جدران الكهوف، ثم سمعهم كثيراً. وهم يترابطون ويهمهمون بغنهم الغامضة، ومضى وقت أطول قبل أن يقابلهم في الوديان مشكرين في ثياب الرّحل وتجار القوافل. عندما قابلهم أول مرة في وادي «أميهرو» وهو يرعى الجديان، عاد وحدث الأم بما حدث. قل لها إن صيوفاً نزلوا الوادي وأعطوه حفنة تمر وقطعة كبيرة من خبز الشعير. أكل الخبز، ولكنه أخرج لها حبّات لتمر من جيبه. تأملت حبّات التمر وظلت تبسم في غموض. لم تخبره في المرة الأولى بهويتهم. جاءها بعد شهور وأخبرها كيف قضى القبلولة في نجع كبير نزل السهل المجاور. سقوه ماء وأعطوه قطعة قماش جديدة. ابتسمت بنفس الغموض ثم قررت أن تفتحه في أمرهم. قالت «أنت كبرت، ويجب أن تعرف أننا صيوف بؤساء على أهل الصحراء الحقيقيين. هل تعرف من هم أهل الصحراء الحقيقيون؟». لم يجيبها. أثاره التعبير الصارم الذي سيطر على وجهها فظلّ يرمقها بفضول. أضافت «أهل لصحراء الحقيقيون هم الجن. إنهم قبيلة كبيرة وقوية وطيبة مثلاً. هم أطيب منّا. ولكهم لا يتساهلون أبداً مع الأشرار. إذا

ارتكبت في حقهم شرّاً نلت الشر مضاعفاً. وإذا فعلت خيراً نلت عني يديهم خيراً مضاعفاً. ألم يعصوك القماش ؟ ألم يستضيفوك بالتمر والحبز منذ شهور ؟ إنهم أخيار فاحرص على صداقتك بهم». سكت طويلاً ثم قال «ولكنهم لا يدون مثل الجن. إنهم بشر لا يختلفون عنا في شيء». قالت «ومن أخرك أنهم يحتفون عنا ؟ إن لهم وجوهاً كثيرة. ولو أرادوا بك سوءاً لضعوا لك في هيئة غيلان. ولكنهم خرجوا بوجوه بشعة. إنهم حكماء يا ولدي». في تلك اللحظة انتبه لخيال يقف فوق رأس أمه. رفع عينيه فرأى رجلاً طويل القامة. يرتدي لباساً شفافاً فضفاضاً، ملفعاً بعمامة بيضاء أيضاً. يتسم له ويهز رأسه علامة الموافقة. ابتسم أيضاً وهز رأسه موافقاً.

- 11 -

في نفس الليلة، بعد العشاء، روت له تاريخ القرابة التي تربط أهل الصحراء بأهل الحفاء. هجعت في عراء المدحل وطلبت منه أن يعدّ الشاي. شهد الأفق ميلاد البدر فبدأت روايتها «في الزمان القديم لم تكن الصحراء مسكونة إلا بهم. الجن هم أهلها الأوائل. ثم جاءت قبيلة الإنس، ونزل أجدادنا ضيوفاً عند أجدادهم. وجدوا الصحراء آمنة ومسألة وصالحة لسكن قطاب لهم المقام. تقدّموا إلى السكان الأصليين وطلبوا السماح لهم بالإقامة في الفردوس الصحراوي. قبل الجن بيوء أجدادنا شرط الالتزام بميثاق. أتدري ما هو الميثاق ؟»

سكنت لحظة ثم واصلت «الميثاق يقضي أن يوافق أهلها
 ألا يسمكوا دماً، وألا يصطادوا أنثى تتوجاً تحمل جنيناً، ولا
 ينزعوا عشباً من جذورها، ولا يقطعوا غصناً من شجرة خضراء.
 قبل لضيوف حكم المضيف ووافقوا على الالتزام بالميثاق.
 استقرّوا وتزوجوا مع قبائل الجن وعاشوا في الصحراء الكبرى
 الآمنة في سلام. ولكن هبوب القبلي سبب الجفاف وعمم المجاعة
 فقام الإنسان إلى أنثى الودان وقتلها وهي تتوج في شهرها الرابع.
 ونزع العشب من أصله وأكل جذوره. قام إلى الأشجار الخضراء
 وكسر أغصانها اللينة. وتشاجر إنسي مع جنّي حول الحساء
 فكمن له الإنسي في الظلمة وقام إليه وقتله. خان الإنسان العهد
 وصنع بينه وبين أهل الصحراء الأصليين عداوة مازالت قائمة إلى
 اليوم. انسحب الجنّ إلى الخفاء والظلمات وتركوا الصحراء
 للإنسان. فلا تنس، يا بني، أن الجنّ هم إخوانك في الدّم. واذكر،
 دائماً، أننا أول من خان العهد وبدأ بالعدوان».

قدّم لها كوب الشاي فرأى في عينها اليمنى دمة كبيرة
 تومض تحت ضوء البدر.

- 12 -

عاد إلى الإبل.

هجع على الرابية. راود النوم. ولكن الأرض انقضت.
 هيمن السكون الخالد ولكن صوت النهار قرع رأسه :

«اخوخن ! أنت قتلت أمي !». وشبح الشاة المعلقة من قنميتها
 لخلفيتين في الفراغ لا يقارق عينيه. وأسوأ ما في المشهد ليس
 وصع الشاة المدلاة في الهاوية، ولا هجمة الطيور الخارجة على
 الجثة المعلقة، ولكن في شيء آخر لن يستطيع أن ينساه، وسيبقى
 مطبوعاً في ذاكرته إلى الأبد. ليس في شيء واحد وإنما في شئين
 اثنين البطل المبقورة وقد تدلّى منها رأس الجنين الميت المصروف
 في قماط من المخاط والدم، وفي النظرة الغريبة، الفاجعة، التي
 رآها في عين الشاة. نظرة مستسلمة للمصير. ولكنها تخاطب
 شيئاً خفياً وراء المصير. ترفع أمرها للجن والصحراء والقدر.
 تشكو بفجيرة ممزوجة بتسليم حكيم.

عاد بدنه يفز بالقشعريرة. بالغثيان. بالحمى. تقياً من
 جديد. تقياً بوحشية أفرغت الأبل.

استمرّ المشهد. تمادى. تبدّى. حرق قلبه. قالت له الفجيرة
 في عين الشاة «أنت السبب !». واستعاد صوت لنهار
 «اخوخن ! أنت قتلت أمي !». تذكر الآن أن صوت اليوم كان
 حزناً، يائساً، فاجعاً أيضاً. صوت كأنه أنين مريض، أو هذين
 محموم. الصوت ضاعف من بشاعة المشهد، وراد الفاجعة
 فجيرة. صوت اليوم جعله يحس أنه آثم، قاتل، شرير اليوم
 حالف وصية الأم ووجد نفسه عضواً في عشيرة الأشرار. اليوم
 حار العهد، وحنث بالوعد، وفتح على نفسه باب العدوة مع
 سكان الصحراء الأصليين.

في النهار، عندما هجع تحت طلحة لقضاء القيلولة، هتم
الصوت فوق رأسه
- أخوخن ! أنت قتلت أمي
كرّر الاتهام ثلاث مرّات بصوت واضح، صارم، يتوعّد
بالحساب.

وبالفعل، جاء الليل، ولم يتأخّر الحساب. وكما حدث،
في المرة الماضية، فإن الإبل أوّل من أحسّ بوصوله. أجفّلت
ودبّت فيها حركة قلق. وقفت وهي تتلفت حولها كأنها تراقب
المخلوق الخفي. لم يحاوره. لم يكرّر تهمة النهار. لم يضيّع وقته في
مخاطبته. وجهه له ركلة قاسية أسفل السرة جعلته يتلوّى طويلاً. ثم
انهال عليه بالهراوة. كان مخلوقاً مدرباً، حريصاً أن يندلّ المواضع
الموجعة في البدن متحاشياً، أبضاً، المواضع الخطرة التي قد يسبب
نيهاً بالكسور. كان مخلوقاً إنسانياً أكثر من الإنس.

ستمرّ العذاب الليلي ثلاثة أيام متتالية.
يجيئه في النهار ويقرأ على رأسه التهمة، ويعود لينفذ
العقاب في الليل.
هذا لنظام أدهش أخوخن. فما معنى الإصرار على
المحاطة في النهار وجعل الليل أرضاً للقصاص ؟ هل تقصي

شريعتهم بإدانة الخطاة في النهار وتنفيذ الأحكام بهم في الليل ؟ وهل صاحب الصوت هو نفسه جلاد الليالي ؟. هو لا يشك أن لكل عشيرة في الصحراء شريعتها. لم يستعر هذا اليقين من تعاليم الأم. ولكنه اكتشفه بعلاقته بكائنات الصحراء.

للمنمل طريقته، وللسراب مسلكه، وللطيور نظامها، ولدوحش أخلاقها، وللمسكون العظيم تقاليده. فكيف لا يكون لشعب أعظم، وقبائل أعرق وأنبل مثل الجن شرائع خاصة ؟ وأن يجهل معنى الشريعة، معنى نظام هذا العقاب، فهذا لا يعني أنهم لا يخفون وراء ذلك سرا أو حكمة. وهو يشك أيضاً أن يكون صاحب صوت النهار هو نفسه جلاده الليلي. الصوت النهاري بائس، يائس، فجيع، وجلاد الليل عنيف، قاس، عدواني، لا تنقصه الثقة بالنفس. صوت النهار هو القاضي، ورسول الليل هو الجلاد.

- 15 -

استمر القصص ليلياً.

فرض أخنوخن بالأم. ليست آلام الجسد هي التي أخرجته عن طوره تلك الليلة، ولكن شيء آخر. ألم آخر. الألم الناجم عن الإحساس بالإثم. الألم الناتج عن الإحساس بخيانة العهد، ومخالفة وصايا الأم، وقيامه بقتل أم. قتل أمًا مجرد التسوية. لو فعل ذلك لأنه جاع كبقية الأشرار لوحد لنفسه مبرراً ما. لو

قتل بطريق الخطأ لوجد حجة تقع الأم في قبرها وتطفئ في صدرها نار الألم.

ولكنه لم يجد لجريمته مبرراً واحداً سوى الشبع.

الآن عرف سرّ كراهية أهل الصحراء للشبع.

الشبع هو الشيطان الذي يصنع الشر. إذا شبع الإنسان فلا يُرجى منه خير. إذا شبع الإنسان تفرّغ للمكاند، وبادر بالظلم، وأبدع في اختراع الشر. إذا شبع الإنسان بشع كل شيء وحول حتى التسلية البريئة إلى جريمة.

هو أيضاً سار في هذا الطريق.

شبع، فاسترخى، فتسلّى، فارتكب جريمة.

ما الذي سينزع من صدره الندم الآن ؟ ما الذي سينزع من صدره الجمرة ؟ كيف سيكفر عن خيانة العهد ؟ كيف سيمسح من عيني الأم - الشاة فجيعتها ؟ كيف سيمسح الدمعة المعلقة الآن في عين الأم اليمنى وهي تهجع في قبرها ؟ كيف سيمسح الدم ؟ كيف ؟ كيف ؟

- 16 -

ركلات الجلاد الليلي لا تكفي.

ركلات الجلاد الليلي تذكره بجريمته وتزيد من شقته. هراوة الجلاد لم تعد تؤلم. فشل حتى الجن في أن يغسلوا قلبه من

الألم، أو يطهروا روحه من المرارة. بل إن القصاص لليدي ضاعف من ألمه، ومن إحساسه بقبح جريمته. وكلما بدأت شعائر القصاص، وبدأ الجلاد في تنفيذ الطقوس الليلية تصاعد العذاب وصعد إلى حلقه. وفي ليلة من الليالي فاض به العذاب فوجد نفسه يصبح بلا وعي في وجه الجلاد

- هل تسمع؟ أنا لم أقتل أمك وحدها. هل تسمع؟ أنا، أنا قتلت أمي أيضاً. هل تسمع؟ هل تفهم؟

واصل الجلاد عمله فهتف دون أن يحاول اتقاء ضربات:
- هل تظن أن عقابك يفيد؟ هل تظن أن عصاتك تؤلمني؟ ها. ها. أنت تضيع وقتك وجهدك. جسدي مات ولم يعد يحس بالضرب. أريدك أن تخترع عقاباً أسوأ من الهراوة. ما هو العقاب الذي يليق بمخلوق قتل أمه؟ قل لي ما هو أسوأ عقاب يستطيع أن يخترعه الجن للقصاص من قاتل الأم؟ ها. ها. ها. توقف الجلاد فجأة.

ناح أخنوخن وتوسل بصوت باك
- اقتلني! هل تستطيع أن تقتلني؟ الموت هو القصاص الوحيد.
انهار على الأرض. قبل التراب، وناح بصوت طفولي عال:

لم يعقب الجثي. ولم ينصر. الجلاد لا يتكلم أبداً. الجلاد أخرس. الجلاد رسول جاء للبلاغ المين. الجلاد يناقش ولا يدلي برأي. الجلاد وسيلة لتنفيذ الحكم.

رفع أحنوخن رأسه. أحس بوجود الجلاّد بصدنه. بدأ
يكتسب خاصيّة الجمال في الإحساس بحضور الجن. صرح
أحنوخن

- أجبني. لماذا تتخبأ وراء الحجار كالنساء ولا تجيب؟ كتمني!
صارعني! لماذا لا تظهر؟ لماذا لا تبدى وتظهر وتصارعي كما
يفعل الرجل مع الرجل؟ أرني وجهك!

وقف على قدميه. لم يجب الجلاّد. تراجع أحنوخن مرة
أخرى

- ولن ما فائدة المصارعة؟ هل تستطيع المصارعة أن تخصّصني
من الألم؟ لماذا لا تخبرني بسرّ الألم إن كنت جنياً حقاً؟ لماذا لا
تخترع دواء آخر غير الضرب الغني؟ لماذا لا تسخر قدرتك
الجنيّة لاختراع ألم أكبر يقدر أن يتلع ألمي؟ افعل شيئاً أقوى من
الجلد إن كنت جنياً حقيقياً!

انحلت عقدة الشامة فتدلّى على الأرض وبقي طرفه الآخر
منفوفاً حول الرقبة. تمشى في العراء دون وعي. لم يتبه لسقوط
الشام. لم يلحظ حالة الاستنفار الشديد في قطيع الابل. لم ير لم
يسمع. لم يحس بشيء غير الألم. لم ير غير النظرة الفاجعة في
مقلة لأم، ولم يسمع غير نعيق الغربان فوق الجنة. لم يحس بشيء
غير الألم. عاد إلى الموقع في حركة وحشية. وجّه خطابه لدجن
- هب نبكي. دعنا نبكي أمتنا. لماذا لا تشاركني البكاء على الأم؟
إنها أُمي أيضاً!

وحد اُخنوخن نفسه یرکع ویکي بصوت فاجع

...ع ..ع ..ع ..ع ..ع

تردد الصوت الغريب في القمم كأن قبائل الجن كلها تردد

معہ انواع

...ع ..ع ..ع ..ع ..ع ..آ ..آ

ولكن أخنوخن لم يتوقف عن بكائيه الفاجعة.

- 17 -

الظهور.

التبدي.

الخروج من حجاب الظلمات، من القمقم المدفون في

المغارات.

الخفاء مزية خستهم بها الصحراء ليدافعوا بها عن أنفسهم من شرّ الإنس، ولا يتبدّون إلا إذا أنسوا للإنسي. الأمّ قالت له في الطفولة «لا يتبدّون لك في الصغر خوفاً عليك. ولا يتبدّون لك في الكبر خوفاً منك. يتحاشون أن يُفزعوك طفلاً، ويخشون شرك وأنت رجل. فلا تكن رجلاً شريراً إذا أردت أن تكسب صداقتهم». يومها سألتها قبل أن تبدأ في شعائر الوجد الصباحي مع الشكوة «وماذا أفعل حتى لا أكون رجلاً شريراً؟^٩ ماذا أفعل حتى أكسب صداقتهم!». قالت وهي تستعدّ للطقوس وتتهيأ

لغيباب معهم في الملكوت «ألا تكون رجلاً شريراً يكفي ألا تقتلع الأعشاب من جذورها، وألا تكسر الأشجار الخضراء، وألا تفسد تعاليم الأجداد على الصخور، وألا تفكر في صيد نثى لودان وهي تحمل في بطنها جنيناً. هذا يكفي كي تكسب صداقتهم. واعلم أنهم إن صادقوك فلن يخونوك أبداً. إنهم أوفى من عاهد في الصحراء، فلا تخنهم أبداً». ثم قترت منه وحذرتة: «وحتى تكبر وتكون عند حسن ظنهم إياك أن ترمي الحجارة في الظلمات حتى لا تصيب أحدهم بسوء. إياك أن تحديق في المرأة اللعينة حتى لا تقع عينك على أحدهم عن غير قصد من جانبهم. اصبر وانتظر ظهورهم. سوف يتبدون لك بأنفسهم حين يحين الميعاد».

انتظر الخروج.

خروج وراء الجديان إلى المراعي، ولكثهم لم يخرجوا إليه. سمعهم كثيراً وهم يهمهمون في المغارات، ويتمتمون بنفة لم يتبينها أبداً. ولكثهم لم يتبدوا. حاول مراراً أن يفاجئهم في الكهوف، أو عند حضيض الجبال، ولكنهم ينسحبون إلى الخفاء ويأخذون لغتهم معهم. بمجرد أن يحسوا به وهو يقترب من بجائسهم. في مرة فاجأهم فتناهروا وتنادوا للسكرت. تحول الكلام إلى همس وسمع وقع أقدامهم وهي ترتطم بالحجارة أثناء انسحابهم. وفي إحدى الأمسيات، بعد المغيب بقليل، سمع عناء شجنياً حزيناً في السفح. سبي أن يكون جيران أهل تاسيني في الوحود، وظن أن أحد الرعاة أراد أن يتسلى بموال المساء. ترك

الجديد في الوادي وصعد السفح. عند مقابر الأسلاف غرت أنفه رائحة لشاي والدخان. استعان بيديه في الصعود حتى بلغ صخرة كبيرة. خلف الصخرة، في الجانب المقابل لتقمم العالية، وحد موقد النار. ولكن لا أثر للراعي، ولا للشاي. أصت طويلاً فلم يسمع شيئاً. وقف يراقب السفح فنزلت عليه وصية الأم كلوحي. ابتسم ونزل إلى الوادي. استمرّوا يتخفون ويهربون من وجهه إلى أن شبّ ورأت الأم أنه أصبح لهلاً لأن تسلمه الحمال. بعثت بوصية إلى الرعاة في «تادارات». أعدت له زاداً من التمر ودقيق الشعير وقربة ماء وودّعته في أوّل رحلة يقوم بها في لصحارى البعيدة. الرحلة التي عليه أن يبرهن بها أنّه ودّع الطفولة والصبيّة مع الجديان ودخل مرحلة الرجولة. سافر إلى «مسك صطفت» التي جاء منها الرعاة بأنباء السيول منذ شهرين.

هناك اكتشف أنّ الفور بالرجولة ليس أمراً سهلاً، ورعي الإبل ليس أيسر من رعي الجديان كما حدّثه الرعاة. ربّما كان أيسر حقاً، ولكن الاسترخاء نصب له فخاً. وجد أنّ الجمال وديعة المسدك، بالمقارنة مع الجديان الشقيّة، ولا تستدعي ليقظة طامد يستطيع ألاّ يخاف عليها من الذئاب كما هو الحال مع الجديان. سبي أنّ البقطة قدر الصحراوي. إذ من أين له أن يعلم أنّ البقطة هي الشرط الأوّل للرجولة التي حاء من نسيبي كي يقدّم فيها امتحاناً أمام الصحراء. اطمأنّ إلى العقال في سيقان الجمال، ولم يعرف أنّ الجمال المقيد بعقال يمشي مسافات أعد من الحمل الطليق. الجمال المقيد يمشي إلى الأمام ليل نهار ولا

يتوقف عن الحركة، لأنه يشعر بالقيد فيحاول أن يتحرر من القيد -لتنقل، بالحركة، بالسعي المستمر إلى الأمام. يصبح القيد له هدساً، وحماً، سيفاً مسلطاً على الرقبة، فيحاول أن يقهره -السعي، يحاهد بقطع المسافات في سبيل الخلاص. يعبر الصحراء ليال، في العبور، الحرية. لم يعرف أخنوخ حتى ذلك الوقت أن الحمل المقيّد يغفل حتى عن الكلال الذي جاء من أحده. يخترق الوديان الخضراء دون أن يتوقف. يدخل السهول المفروشة بالعشب ليعبرها إلى العراء. إنه لا يرى سوى الأفق. لأنّ حريته في الماضي إلى الأمام، وخلاصه في الأفق. ولكنّ لأفق لا ينتهي إلاّ ليبدأ أفق آخر. فيجد الجمل نفسه وقد قطع مسافة خرافية بين يوم وليلة، لأنّ الجمل لا يسعى، وإنما هو في سباق جنوني مع الأفق. وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يفهم أخنوخ أنّ الرجل الحقيقي هو الذي يترك جماله ترعى في المراعي طليقة. لأنها لن تحتاج، في ذلك الحال، لأن تسابق الأفق كي تتحرر من القيد. الوصول إلى هذه القناعة كّفه ثمنٌ غالياً.

قيّد الجمال الثلاثة وكذلك الناقة. ولم يترك، في ذلك اليوم، إلاّ الشئ. وهذا خطأ آخر في عرف الرعاة الحكماء. فالثني الطليق يستفز الجمال السجينة ويضاعف شقاءها بالقيّد. وإذا تضاعف شقاء الجمال بالقيّد فإنّ هذا سيجعلها تضعف هروبهم من نفسها ظلماً منها أنّها تهرب من قيدها.

خرج ليتفقدّها في اليوم الثاني من هروبها، وارتكب خطأ ثانياً كان أسوأ من كلّ الأخطاء. ترك قرية الماء ظلماً منه أن الإبل

لن تبعد كثيراً مطمئناً نفسه بأنها لن تستطيع أن تقطع مسافة طويلة وهي مكبلة بالقييد.

مشى يوماً. مشى يوماً آخر. لم يدرك الإبل. فأدركه الظمأ.

ترنج واحتجبت الشمس وراء ظلمات الظمأ. انهار في عشية اليوم الثاني وسقط على الأرض. لم يعرف كم ظل في الغيوبة.

أفاق بين يدي قبيلة صحراوية رحيمة. طاف حوله الرجال واعتنت به النساء. سقوه حساء لم يذق في حياته مثيلاً له. وشرب ماءً سلسبيلاً لم يشرب أعذب منه، وأكل طعاماً لم يأكل ألذ منه. في الصباح أحس بالشفاء فوجد أنهم جاؤوا له بحمالة أيضاً. شيخ مهيب ختم أنه رعيم القبيلة، أهدى له رستاً جلدية مزينة بثلاث حلقات نحاسية، وقدم له نصيحة لا تناسب إلا الزعيم الحكيم. قال «الرجل النبيل لا يقيد جملة أبداً». ثم صافحه ومضى. بعد ثلاثة أيام من عودته اكتشف أن الحلقات الثلاث، المثبتة في طرف الرسن، كانت ذهبية !

ليس هو من اكتشف الذهب في الرسن، ولكن الفضل في ذلك يرجع إلى أحد الرعاة العابرين. نزل في ضيافته وهو في طريقه إلى وادي «ابرهوه»، أعد له خبز الملال في الرمل، وأوقد النار لتحضير الشاي. في ذلك الوقت كان الضيف يعث بالرسن ويتسنى بالحلقات النحاسية. وفجأة سمع أخوخن ضبعه يقول:

«عمل عجيب. عمل مدهش. هل تلقيت هذا العمل العيس هدية من زعيم الجن؟». التفت أخنوخن فوجد الضيف يقلب الحقائق المتعلقة في الرّسن بفضول الخبراء.

قال الراعي «انظر إلى الزخارف. إنها عمل يفوق رسم الكهوف في الإتقان. يفوق نقوش الحجارة في القدم». اقترب أخنوخن وسأل بدهشة «ولكنني لا أفهم». حدّجه الراعي، تحت ضوء البار، بغموض. قال «هذه أندر أنواع الذهب. من تقيته هدية من زعيم؟». سرد عليه أخنوخن قصّة الرّسن، فهز لراعي رأسه بجلال وردّد «ألم أقل إنه هدية من زعيم الجن؟ من يستطيع أن يمتلك ذهباً بهذا القدم، بهذا الإتقان في النقش غيرهم؟». سأل أخنوخن ببلاهة «هل تظن أن الجن هم الذين نقذوني؟». راقبه الراعي زمناً. هز رأسه وقال بيقين «وهل تشك في ذلك».

- 18 -

فشل في أن يوقف البكاء.

تلوى في العراء. يشهق بصوت غير إنساني، بصوت حيواني، محاولاً أن يطهر صدره من الوجع، ويلقظ، مع لصوت الوحشي، الألم. بكى كطفل تيتم. بل إنه لم يك بهذه العجيعة حتى عندما سافرت الأم إلى المجهول، وتركته له جسدها الهرين كي يواريه الحجارة ويطعمه للتراب. يتيّمه اليوم أقسى من يتيّمه

لما فقد الأم. فَقَدْ الأب قبلها ولكنه لم يحس بضيا ع اليتامى . رى
لأن ذلك حدث قبل أن يعى معنى الضيا ع والعزلة والحياة . وفقد
الأم، ولكنها تركت له الصحراء. أو تركته أمانة فى عى
الصحراء. عهدة فى يد الصحراء. خان العهد فتكررت له
الصحراء. أمه الثانية، أمه بالتبني. قتل الأم الأولى. لأه لتي
جعلته يحس بصلة القرابة بينه وبين الصحراء. بينه وبين كائنات
الصحراء. بينه وبين الجن. بينه وبين الودان. بينه وبين شجرة
الطلى . بينه وبين طائر الوقواق. أحس أنه لا يكي عزله، ولا
يتمه، ولا فقدان الأب والأم، ولا الأم التتو ع بأخيه اللذين
قتلها معا حباً فى التسلية، وإنما.. يكي غضبة الصحراء. يكي
ضيا عه الأبدى.

لم يعرف كم مضى من الوقت. لم يعرف متى انصرف
جلاده الليلي. ولم يعرف متى تسلل القبس السرى وشق الأفق
بخيطة شحى من ضوء مديراً مؤامرة فصل السماء عن جسد
معشوقته الخالدة: الصحراء.

نهض. ترح خطوات. سقط مرة أخرى. زحف على يديه
وركبتيه. شق الوادي زاحفاً. صعد المرتفع المزروع بمقابر
الأسلاف. تنقل بين الأكوام المستديرة زاحفاً. اهتدى إلى قبرها.
القبر الذى شيده منذ سنوات ونسي حتى أن يسقيه بالماء بين
الحير والآخر. انكفاً فوق القبر ولثم الحجارة. احتضن الحجرة.
وشعر كيف يتدفق الدمع الحار على انتي احتضنت بحر النهار.

ثم يعرف الحكمة القاسية التي تقول إن القبر الذي تتساهل
بريته بالماء سيأتي يوم تضطر فيه أن ترويه بالدموع.

- 19 -

انقضت ثلاثة أيام قبل أن يعود صوت النهار وتليه ريارة
الخلاد في الليل. استسلم لقدره وترك الجلاد يمارس عمه. انهال
عليه بالهراوة حتى أحس بالغثيان. انكفاً على بطنه وشرع يتقيأ.
ما أدهشه أن الشعور بالإهانة هو ما أيقظ فيه الغثيان وليس الألم.
في الصحراء لا يضرب بهذه القساوة حتى العبد المعاند، حتى
الحمار الكافر. في تاسيلي لا يضرب الرجل رجلاً حتى بقشة.
حتى يعود أخضر. فهم الآن حكمة الجن. فهم الآن أنهم يريدون
إهدائه. إذلانه. الذل هو ما يليق بمخلوق يصنع فخاً لا صطيد أم
لمجرد أنه شعبان ولم يبق له عمل آخر إلا أن يتسلى. الإذلال هو ما
يسبق بالصحراوي إذا اختار، بلا سبب، أن ينضم لعشيرة
لأشرار. وها هو يسمع الإذانة في النهار ليتلقى الجراء في الليل.
الحزاء للائق بالعيد. بالحمير. بالأشرار. لأن الذل، في عرف
الصحراء، أشد من الموت. الذل عار، والعار أسوأ من الموت. فبلى
متى سينحمل أن يظل عبداً؟ إلى متى يرتضي أن يهين ويضرب
كالحمار؟ هل تستحق الحياة تحمل العار؟

في تلك الليلة لم يتوقف الجنّي عن ضربه حتى احتمى منه
بقبر الأم.

اكتشف سرّاً آخر.

كَمَا قَبِلَ الْجَلَادَ، واشتدّ عليه الضرب هرب إلى لسمع، واعتصم بقبر الأم. كلما جأ إلى القبر تراجع الحثي عن مطاردته. فهو هو إجلال للمقابر والموتى من جانب الجنّ، أم تقدّيس للأُمّ؟ وهل يقدّسون أمه لخصال الفضيلة والخير أم لأنها ممّت لدجن بصلة قرابة؟ لقد أخبرته عن أخوة أهل الصحراء بأهل الخلاء، وحدثته مراراً عن رباط الدّم بينهما، كما لم يأت ذكر الجنّ إلاّ وتنبّري تتحدّث عن فضائلهم وخيرهم وطيبتهم. ولحقّ أنهم كانوا معه رحماء دائماً، ولم يخلوا عليه بالعطيا في صباه. ظلّ يفكر في صلوات القرى بين كائنات الصحراء حتّى توصّل إلى أن كون جلاّده هو أحد إخوته هو أمر جائز. بل إنّ شعوراً خفياً خامره بأن يكون جلاّده الليلي أخاً له من قبيلة أهل الخفاء.

ولكنّ الاكتشاف لم يجبر الجلاّد على التراجع. كأنه يؤدّي واجباً مقدّساً. كأنه ينفذ حكماً إلهياً. كأنه رسول القدر. كف لقدر.

احتمى من حملة التعذيب بقبر الأم مرة أخرى

ثم أصبح يقضي ليلاته متوسداً قبر الأم.

حوّل القبر إلى مأوى يعتصم به في النياي.

محر الوديان والكهوف وصنع من المقبرة بيتاً يأوي إليه في الليل. كان صوت الإدانة يزوره في الوديان نهاراً فيعرف أن الجلاّد سيزوره في الليل. ينتظر حتّى المغيب فيترك الإبل في الوديان ويحنكم إلى الحرم. يوقد النار بجوار القبر ويصنع شاي المساء. يتعشى بالتمر أو يقضم من خبز الملال الذي تبقى من رغيف القيلولة. يعدّ الرغيف في رمل الوادي مستمراً أمان النهار. وعندما يقترب الظلام يحمل ثومونه إلى الحرم.

استمر على هذه الحال إلى أن اضطرّ أن يلتجئ إلى طرق القوافل لمقايضة أحد الجمال بالشعير. غادر السهل مبكراً عازماً أن يتحيل على الوقت ويختصر المسافة التي تعود أن يقطعها في أربعة أيام إلى يومين فقط.

ولكنّه عاد من منتصف الطريق.

جاء رسول الإدانة بمجرّد أن قطع وادي «أميهرو». وفي الليل جاءه على يدي الجلاّد أعسر حساب. اعتدى عليه بضرب وحشي فاق كلّ توقّع. واستخدم في عدوانه أسوأ الأدوات المتداولة في الصحراء لتأديب العصاة وإهانة الحمير والعبيد بدءاً باستعمال قبضته. تعب فاستبدلها بالعصا. ثم استبدل العصا بسوط حرّ من الجمر. أدرك أخنوخن أن الجلاّد اختلى به بعيداً

عن حرم القبر وقرّر أن يضاعف العقاب انتقاماً لنياي التي قصاه
بدون حزنٍ محتماً بالحصن المقدّس. ليلتها لم ينجُ من يدي اختي
سهولة. ترك الحمل وهرب. ظلّ يجري عبر العراء دون أن
يتوقف الحان عن مطاردته. عاد إلى الحرم في آخر الليل. ممزق
الثياب. ملوثاً بالدم. بدنه مغسول بالعرق والذلّ.

- 22 -

اكتشف حقيقة أخرى.

اكتشف أن فرجه بالحرم لم يطل. الحصن تحوّل إلى سجن.
وهو، أخنوخن الطائر، الطليق المتنقل بين الكهوف والقمم
ولوديان، تحوّل، فجأة، إلى أسير في هذا الحصن، في هذا السجن.
اكتشف أن النهار وحده لا يكفي حتى لردة الإبل على عقابها
دون أن يدركه الليل في منتصف الطريق، فكيف بالوصول إلى
طريق القوافل، أو بلوغ منتجعات الرعاة ؟ وإذا استمر مهدداً
بالجلاد حتى حلول الشتاء فإن قامة النهار لن تكفي حتى
لاستجلاب الماء من البئر. وكلّ الدلائل لا تشير إلى أن الجلاد ينوي
أن يتراجع في الوقت القريب، فما العمل ؟ كيف يستطيع أن
يستعيد احترامه لنفسه ويغسل عن جسده غار الضرب الذي
حوّله من مخلوق نبيل، مكابر، إلى حيوان أسوأ من حمار كافر ؟

ولكنّ هاجساً شقيّاً قال له «أنت لست حماراً. أنت
قاتل. أيهما أبشع في عرف الصحراء أن تكون حماراً عبداً، أم

قاتلاً للأُم ؟ أليس الحمار أكثر نبلاً من قاتل في شرايع الأرض
وأعراف السماء ؟».

سرت في بدنه رجفة، هام بين القبور . تفرقت مقتناه
بالدموع.

أجاب الهاجس بصوت مبحوح «لا فرق بينهما،
لأنهما، كليهما، جديران بالموت».

- 23 -

وجد نفسه مشدوداً إلى حجارة القبر مثل معزاة مقيدة إلى
الوتد بحبل . أصبح الحرم سجنًا بعد أن كان خلاصاً وملاذً . وإذا
كان للمعزاة سيد يأتي لها بحزمة عشب، فإن القدر جعل منه
عبدًا بدون سيد . هرب من عودية العصا وعار الضرب ليجد
نفسه طفلاً يحتمي بتلابيب الأم، وعبدًا للحجارة قبر

فكر أياماً في هذا المأزق، ثم توصل إلى حيلة أخرى .

قضى ليلة كاملة يبكي فوق الحجارة يتوسل الغفران،
ونهب في الصباح وبدأ يحفر القبر . تذكر عندما سافرت الأم
وقام بحفر اثوى في مقبرة الأجداد، وقال لنفسه إنه لم يتخيل أن
يضطر ، بعد سنوات، للاستعانة بالرفات ونبش الحفرة من جديد .
مسح الدمع من عينيه والعرق عن جبينه، واستمر يريح الحجرة
وثراب حتى حل الصبح .

بلغ الرفات.

تغذى التراب بأجزاء من الكفن وتولت الديدان أمر
الحسد. حرّدت من اللحم وتركت هيكل العظام. أدهشته ضالة
العظام ونحافة الأطراف. الهيكل في حجم طفل حديث
الولادة. وقص الصدر كأنه لجدي أو ماعز. بلغ الجمجمة. أزاح
التراب عن جزئها العلوي. مازالت خصلات بائسة من الشيب
تمسك بالعظم. فوقها تيس الطين وقطعة بائدة. متآكلة باهتة،
من الكفن. أزاح مزيداً من التراب بيدين مرتجعتين. بلغ الطرف
الأيمن من الجمجمة. مسح الغبار عن العين اليمنى. عين الشفقة،
والرحمة، والحب. العين التي تنزف بالدمع عندما يستجيب
قلب الأم للانفعال، والمحبة والحنين.

فوجئ.

حدقت فيه مقلة المحبة بنظرة خاوية، عمياء، قاسية.

ظلّ ينحني في فوهة القبر في ذهول، خيل له أن قلبه أيضاً
توقف. التنفس أيضاً توقف. جاهد لالتقاط الهواء واستعادة النفس.
قفز خارج القبر بأعجوبة. تلوى في العراء كالجذوب. دنس حرم
السكون بأصوات عريّة، غامضة. ثم استولت عليه نوبة من القيء.

-24-

عرف أنه لا بد أن ينقل القبر في أمتعته إذا أراد ألا ينزل إلى
الأم، ويشاركها الإقامة في القبر. ولما كان المحاب بين الأحياء
والأموات قائماً كما قام يوماً. بسبب الخيانة بين أهل الصحراء

وأهل الحفاء، ولما كان طريق الوصل بينهما مقطوعاً إلى الأبد كما
كُتبت له الأم بنفسها مراراً، ولما كان الإنسان على استعداد أن
يصنع المستحيل في سبيل استمرار الحياة ما دام على قيد الحياة.
فلا خلاص إلا بالمعجزة. إلا بإخراج الأم من رقدتها القاسية
لتهاجر معه وتنتقل، وتعيش حياة الصحراء. لا بد أن تحرج إليه
من لقبر إذا أراد هو أن يستمر في الحياة. لا بد أن يعود لميت من
الموت إذا شاء الحي لا يخرج من الحياة. القدر شاء أن يُحكم
إغلاق الدائرة وصنع له أحد الخيارين. القدر هو الذي رسم
الخط. القدر قال له: إما أن تذهب إلى حضن الأم، أو تأخذ معك
أمك معك في حضنك. لا خيار ثالثاً. نفس القدر الذي ساقه إلى
هذا المصير بلعبة. بتسلية. بشرك بانس صنعه من الشجر لقتل
الوقت. الوقت النفيس الذي لم يحرو صحرأوي على الاستهتار
به يوماً فكيف به «قتله». ولولا الترف. لولا السيول والخيرات
التي غمرت تاسيلي، لولا امتلاء المطامير بالتمور والحبوب، لولا
النعمة والشبع لما نجاسر على «قتل» الوقت بهذه الطريقة الغبية.
الشريرة التي يستنكرها عرف تاسيني. وتستفظعها شريعة
الصحراء. وما هي النتيجة. بدل أن يقتل الوقت قتله الوقت.
بدل أن يصطاد طريدة، ليس في حاجة إليها أصلاً، اصطاده
القدر. وبدل أن يهنأ بالسكينة والسكون لاحقه حلال ليل
وصنع من جسده دابة تتلقى الهراوة والعار

فكيف لا يمدّ يده إلى أمه ويأخذها معه إلى الصحراء ؟
كيف لا يحتمي بها كما احتمي بها دائماً ؟ بل ومادا سيفعل في

تاسيبي بدون أمه ؟ ماذا فعلت به الوحشة طوال الأعوام الماضية التي عُقت سفرها ؟ في الأيام الأولى هام بين الكهوف كُنْشباح الجن. غالب الإحساس بالضياء. ضياء أشرس من ذلك الضياء الذي أحس به أهل الصحراء عندما فقدوا كتاب الحكمة المقدسة «آهي». كان يكي بصوت طفولي عالٍ وتردد لكهوف الصدى. سمع الجنّيات تنوح أيضاً. وشاركه الجن الحزن والمأتم. قابل بعضهم في الجبال الجنوبية المشرفة على وادي «اميهر». وجاء آخرون في المغارة، وسهرو. معه اللين كله. ناحت الجنّيات مهدلات الشعور، ولكن الشيوخ التزموا الصمت في وقار وشرعوا ينصتون للسكون المقدس. تنقلوا حوله. أشعلوا النيران وأعدّوا الشاي. جاءت العجائز بأطعمة شهية الرنحة، ولكنه لم يستطع أن يأكل برغم الإلحاح. تقاطر الجن على المغارة ثلاثة أيام متتالية. ثم ارتدوا لباس المهاجرين وذهبوا إلى «تاسيلي ناهجار» وأخبروا الرعاة بالوفدة. في اليوم الرابع ازدحمت المغارة بالمعزين من قبائل الإنس. تقبل منهم التعازي صامتاً أيضاً.

ولكن لا تعازي الإنس. ولا تعاطف الرعاة استطاع أن يغضب الضياء ويقتل فيه الإحساس الوحشي بالوحشة.

ثم..

ثم عادت إليه الأم.

بدأت تزوره كل ليلة. تجلس في المدخل وترفع صوتها بالأعالي الصحراوية الحزينة. بالمواويل السجنية التي تتحدث عن الضياع. ضياع «أنهي»، ضياع «واو»، ضياع المعشوق الذي لم يعد من رحلة القوافل. وفهم أن الضياع هو قدر الصحراوي. الضياع هو قدر الإنسان.

استمرت تزوره بانتظام حتى طلب منها دت ليلة «أريدك أن تمخضي لي الحليب يا أمي كأيام زمان. الشكوة جفت في الزاوية وأنا لا أريد اللبن إلا من يدك». والحق أنه كذب عليها. لم يكن اللبن هو الغاية، ولكنه أخفى عنها رغبته في أن يراها وهي تهيم في الوجد. كان يقع في الوجد دائماً عندما يراها ترنح وتهيم وتجذب وهي تمخض الحليب المقدس.

ذهبت في تلك الليلة ولم تعد أبداً. فكر فيما يمكن أن يفضيها، ويسبب في هذا المسلك المفاجئ. فكر طويلاً.

لقد نسي ما قالته له يوماً من أن الأموات إذا ذهبوا يستطيعون أن يعوا، ولكنهم لن يستطيعوا أن يمخضوا حليباً للأحياء دون أن يستدرجهم إلى الموت أيضاً.

- 25 -

سيرة التميمة عبرت تاسيلي إلى الشرق والشمال فوصت «آرحر»، واجتازت القمم الغربية فبلغت «آهجار». وحمدها تخار القوافل إلى «آير» و«آضاع» في أقاصي الجنوب.

لم يقل الرعاة، الذين تناقلوا السيرة، أن الجحّي الذي احتار
 للإفامة مع الجن في تاسيلي قد اتخذ من جمجمة الأم ثميمة
 تحميه من اعتداءات جيران الظلمات، لأنه لم يح لأحد بسرّه،
 لم يحجر أحداً بأمر التّراع مع أهل الصحراء القدماء، ولكن
 الرعاة قالوا، إن الجحّي أخنوخن لم يطق فراق الأم ليس لأنها أم،
 ولكن لأنه لم يعرف في حياته إنساناً غيرها، فبحقها إلى القبر
 وأخرج عظامها واحتفظ بها في جراب السّرج كي تؤنسه في
 وحدته.

كّما سمع الشائعة من عابر جّوال، أوراغ مهاجر، يتسم
 بكآبة والتزم الصمت.

ظنّ يتنقل بها في رحلاته كلّها. بل حرص أن يحمل
 الجراب معه حتّى في تغّلاته بين الوديان ساعياً وراء قطيع الإبل.
 يجلس في المراعي. يخرج الجمجمة من الجراب. يحرّرها من
 علاّات القماش، يرشّها بالماء، يمسحها بعناية بطرف لثامه. في
 العين اليمنى الفاجعة وضع قطعة من وبر الحمل كي يخفي
 الفجيعة من العين. ولكّنه حرص أن يترك خصلات الشعر
 الأشيب، السّاحب، الذي نجا من شراهة التراب، مشدودة إلى
 قمة الجمجمة. وعندما ينتهي من الطعام ويحتسي الدور لثالث
 من الشاي، يلفّ الجمجمة بغلاّات القماش، ويعيدها إلى مئواها
 الخديد في الجراب.

استمر على هذه الشعائر إلى أن سلها منه السيل.

السيل أيضاً لم يهاجمه عبثاً.

السيل أرسله القدر كجزاء، كقصاص جديد على إثم
حديد.

هجع في وادي «اميهر» في ليلة شتوية قاسية. في المساء،
عند الغرب، لاحظ كيف تراحم غيوم عاضية وتزحف على
القمم البعيدة. قمم تاسيلي ناهجار. ولكته لم يتوقع أن تدركه
بأنفسها بهذه السرعة. في الليل نزل البرد. استيقظ فوجد الندوة
تزرع الوادي بطبقة جليدية بيضاء. كان يرتجف. أطرافه
جمدت. فقد القدرة على تحريك أصابع اليدين. مضى وقت
طويل وهو يدفنها بأنفاسه. ثم تحرك ببطولة حتى بلغ أقرب
شجرة. تحسس الأغصان ولكنه لم يثبثها في العتمة. وربما ساهم
الجليد في تجفيفها فبدت يابسة. انتزع كوماً وأوقد النار. ارتفعت
اللسنة اللهب. ظلّ يحتمي بالنار ويحوم فوقها كفراشة بهاء.
اقترب أكثر فتشبث لسان النار بكم الحلباب. دس الكم في
الأرض وأهال عليه التراب باليد الأخرى. كاد يحترق فيما
استمر يرتعد من الجليد. ثم يسمع الأنين الفاجع في الأغصان
الخضراء. لم ير دموع الشجر. لم ير نزيف الدّم في أعضاء
الشجر. لم ير بركة الدم التي استنزفتها النار، وسالت على الرمل
بجوار الموقد.

أيقظه الفحيح. حشيرة الجمر في الموقد لحظة هاجمها الغمر. حشيرة مكتومة، فاجعة. هبّ واقفاً فاكتشف أن السائر، السلسيل، الوديع الذي يعبد أهل الصحراء، قد تحوّل إلى عول في البدء حفر تحت قدميه بشقاوة الأشقياء. تخلّت عنه الأرض فسقط على قفاه. تلقّفه اللسان الوحشي وفرّ به عبر الوادي. دحرجه الموج المجنون مسافة طويلة. تجرّع الماء المزوج بالطين والبر والقشّ أمسك بشجرة حنفاء ملساء، وأحسن كيف دفعه اللسان المتوحش إلى الأمام فاقتلع الشجرة من جذورها، ورافقه في رحلته إلى المجهول.

في الرحلة اعترضته أشجار، وحجارة، وأجسام لم يميّزها في قعر الوادي، ولكنّ السيل لم يتح الفرصة ليتشبّه بها. كلّما مدّ يده وحاول النجاة انتزعه الموج المجنون وقذفه بعيداً عن يد النجاة. الصحراء تسخر الأشجار والحجارة والأجسام الخفية لإنقاذه، والسيل يقاوم لإبعادها عنه، وأخذ بعيداً عنها. استمرّ العراك.

اعترضته شجرة كبيرة. طلحة كبيرة. تشبّث بحذعها بكلتا يديه. التفّ حولها بجسمه كالثعبان. التصق بها. التحم بها. أصبح جزءاً منها، وأصبحت جزءاً منه. حاول أن يثبت قدميه على الأرض فسحب السيل الأرض من تحته وحرف الرمل. بدأ يتفكك الروث والطين والقش، دون أن يتخلّى عن التحامه بالطلحة. بشجرة الخلاص.

ففي يجاهد طوال النهار. مع العشيّة هدا الموح ونزل
مستوى الماء. قبل حلول المساء تراءت قمم الأشجار مع انخفاض
مستوى السيل، فتحلّى عن شجرة الحياة وقطع الوادي إلى
الشاطئ. استلقى على الضفة ونام.

في صباح اليوم التالي اكتشف أن الشجرة التي أنقذته من
الموت ووهبته الحياة نفس الطلحة التي جرّدها من الأغصان
الخضر، وأطعمها للنار كي يتدفأ بها.
الشجرة أعادت له الحياة، ولكنها أخذت منه ثميمة الحياة.

- 28 -

صمّم أن يستردها ولو طارت إلى السماء.
انتظر حتّى جفّ الماء في الوادي. بدأ بحثه في الأشجار
المجاورة. فتشها شجرة شجرة، كما تفقّد حجارة الوادي
وصخوره. لا أثر للجمجمة ولا للأمتعة.
جلس على المهري وسافر عبر بحرى الوادي. هاجر وراء
السيل في مسيرة اثني عشر يوماً.
في لهيات انقسم الوادي وتعدّد المجرى في أودية صغيرة،
تتوارى وتتجاوز حيناً، وتتأفر وتتباعد في مواقع أخرى.
قضى شهراً كاملاً وهو يتفحص الوديان، ويفتش الشعب.
بعد ثلاثة أسابيع عثر على طرف السرج الأمامي مشدوداً إلى

شجرة حلفاء كثيفة على ضفة إحدى الشعب، ولكن الحمجمة طارت إلى الأبد.

أحيراً يس.

وعندما يس، وعرف أهل الخفاء أنه يس، زره رسول الإلانة في الليل وسرد على رأسه قصة مفاجئة. لم يأت في السهار، ولكنه تعمّد الإخلال بالخطّة فجاءه بالصوت بدل السوط. لم يعرف سرّ التحوّل إلا بعد أن تكلم الصوت

- هل نسيت يا شقي أنك طلبت منها الحليب؟ هربت لتأتي لك بالحليب، ولم يكن أمامها إلا أن تتحوّل إلى أنثى الودّ ن. لا بد أن تتحوّل إلى أم إذا أرادت أن ترضعك الحليب. هل نسيت يا شقي أنك لم تتوقف عن وضع الحليب من ثديها حتى بلغت السابعة؟ كنت وحيداً، ولم يكن أمامها إلا أن تدلّلك. كنت وحيداً المدلّ. وعندما أرادت أن تدلّلك مرة أخرى صنعت لها شركاً وقتلتها.

سكت الصوت لحظة بنفس النبرة الواضحة، القاسية

- نسيت أن أقول لك أنها أُمّي أيضاً. لم تخطئ عندما ناديتني بـ«الأح» لأنّ الدّم هو الذي تكلّن فيك يومها. لقد قتلت أمك وأُمّي يا أخنوخن. ورحمت تحتمي من جريمتك بحممتها. ما أشقاك يا أخنوخن! ما أشقاك يا أخنوخن!

ردّد «ما أشقاك يا أخنوخن» عدّة مرات وهو ينسحب ويستعد. ثم سمعه ينشج في العراء ويشهق بأعين موجه.

وحد بدنه مبللاً بالعرق. بسائل لزج لا شئ أنه عرو.
لثامه مبلل. لزج. و... سكين من نار تستقر في صدره. أحس
بصيق في التنفس. وقف على قدميه. ترنح. سقط على الأرض.
ترحرت السكين النارية وصعدت ببطء إلى أعلى. نحرت
الصدر ووحدت الطريق إلى الخلق. عبرت البلعوم شقت البلعوم
بحريق. توقفت في الخلق. تدفق النريف. جوف كله ينزف. ما
أرحم الجلاذ القديم بالمقارنة مع زائر الليلة. ما أقسى الصوت
بمقابل السوط. ما أسهل تعذيب الجسد بجوار التشكيل بالروح.
ما أهون نريف البدن بالمقارنة مع نريف الروح.

لم يع. لم يحس. لم يتعب. ظل يركض حتى انشقت
الصحراء وولدت الفجر حتى وحد نفسه يتسلق القمة. حاول
أن يسحب الهواء، أن يتنفس، أن يزحزح السكين إلى أسفل،
أو إلى أعلى، ولكن السكين تشبث بالخلق، تحرق وتذبح وتسد
التنفس. احتجبت الجبال. تاهت الصحراء، غاب العراء الأبدي.
اختفى الإحساس بالسكون الخالد. و انفصل أخنوخ عن
لصحراء. وجد نفسه في منفى لا يعرفه. في أرض أخرى غير
الصحراء. وأحس أنه كائن غير الصحراوي.

حاول أن يلتقط الهواء.

سدت السكين النارية كل المنافذ، والأوعية، والفنوت،
والأوردة. جحظت عيناه. دارتا في محجريهما في تحية وداع
مهداة إلى الملكوت الصحراوي في الأفق. أحاط لثامه برقبتة. لم

يحط كيف سقط طرف اللثام وتعلق بتوء بارز، شرس، في
الصخرة، أطلق أنيناً طويلاً، موجعاً، كأنه جمل يُدبح. و قفز
قفز من انقمة.

لم يسقط إلى الأرض. القدر الذي حوّل اللثام، في رمشة،
إلى فتح، تنفّفه قبل أن يبلغ السفح.

لم يهبط إلى الأرض. إلى الحضيض.

شدّت الصخرة طرف اللثام فوجد نفسه معلقاً في برزخ
بين السماء والأرض؛ وطرف اللثام الآخر ملفوف، كثعبان
الأدغال، حول رقبته.

لحظتها، فقط، أحس بتزحزح السكين وانزلاقه إلى مكان
ماء، تنفس. شهق. طلق التنفس، ودّع النفس، فاستقرّ في مقتلته
تسليم، وخلاص، وبسمة غموض. نفس الغموض الذي نطقت
به مقننا الأم المشدودة إلى الفخ، المعلقة من رجليها الخلفيتين، في
الجبل.

موسكو

1991/5/2 م

المبتدأ في سفر السّقاء

- 1

دخل الجمل الصحراء يختال مزهواً بقامته الهيفاء ورقبته
المديدة فاستوقفته الصّحراء وقدمت له عرضاً. قلت المعمرة
الحكيمة

- عزمت أمري على الاعتزال بعدما رأيت على يدي الخلق.
هربت وتفضأت وآثرت العري. تعاهدت مع غول السماء
ليحرق كلّ ما يغري الإنسان ويشجّعه على ملاحقتي. تصحّرت
وضاب لي الخلاص والخلاوة. ملأنتي السكينة بالوجد وناجيت
الله في مكوث السكون. ولكن النعيم لم يدم طويلاً. إذ فوحت
ذات يوم باين آدم يقتحم علي خلوتي ويفسد فردوسي، يسلم
جسدي بالمحاريث ويمزق وجهي. يدقّ أوتاداً في بدني ويشقّ
قسي بحثاً عن الكوز. بل بلغ به الطمع والجشع حدّاً حمر فيه
أحاديث مخيفة ليشرب من دمي دون أن يشفق علي من النزيف.
وأنا لآب أعرض عليك صفقة ترتحك وتقيني شر هذا المحروق

فحد لإسان واحمله على ظهرك بعيداً مقابل حصانة أهمها لك
ضدّ لظماً، وصبراً على الماء أخصّك به من دون الحيوانات كلّها.

ضرب الجمل المكابر صدره بخفّة وخاطب الصحراء
أعلى استعداد لأنّ أحمل الكون كلّه على ظهري إذا صمت
لي الصحراء الحكيمة ألاّ أصاب مرّة أخرى بهذا الداء. ويبدو أنّ
عموزنا الجلييلة عاقبتني بالعطش أول مرّة في نيّة مبيته كي
تستدرجني إلى العهد.

ضحكت الصحراء قبل أن تقول
- رأيت كم أنت مكابر ومفاخر ولكنتي لم أظنّ أنّك حكيم
(أو فننقل لثيم) أيضاً.

ثم رفعت إلى قامته نظرة حزينة وأكملت
- أنا لا أحبّ المخلوقات المكابرة التي تشبّه بالإنسان، وإذا كنت
سأبقى عليك في أرضي وأتركك ترتع فوق جسدي فنن أفعّل إلاّ
إذا قبست العرض وخلصتني من العبء الأكبر، من وزر الإنسان.
- أعرف أنّك طردت كلّ الحيوانات المكابرة. الزراف، الأسود،
النمور، الفيلة..

قطعت الصحراء
- وتركت الوديعه. تركت العزال والأرنب والفأر. ولكن يجب
أن تعرف أنّك لا تنتمي إلى هذه الفئة.

هرّ الجمل رقبته المديدة، وعاد يضرب صدره بحفّة
ويسأل :

- هن جعلتك قامتي ورقبتي وهيئتي تضعينني في حساب
المكابرين المتشبهين بالإنسان ؟

ليس الهيئة وحدها. في مشيتك نفسها روح من استكبار. أن
أحس بحسدي، وأنت تمشي على صدري. فلا تنس.
- ولكن عقاب العطش أقسى عقاب الحرمان من الماء سوءاً
عذب حترعته الآلهة، ولا أعرف سرّ القساوة في هذا العقاب.
- ليس صعباً أن تعرف سرّ الظلم إذا عرفت سرّ الحياة، بل إن سر
الظلم مستعار من سر الحياة. فالآلهة التي خلقت كل شيء من
الماء تعرف أن الحرمان من هذا السائل هو حرمان بطيء من
الحياة. وقد خصّنتي الآلهة بهذا السلاح مكافأة لي على عزلي
ومخالفة هواي.

طأطأ الجمل رأسه وخاطب الصحراء

- هنيئاً لك يا عجوزنا الحكيمة. فلا أحد غيرك استطاع أن يقدم
حياته كلها قرباناً مقابل أن يختلي بالله !
- هل قبلت العرض ؟

فكر الجمل ثم قال

- إذا كان سيعفيني من العطش فأنا على أهبة الاستعداد لحمل كل
أثقالك.

- ليس لدي ثقل أثقل من الإنسان.

أنا ضويل وعريض ومهيب ولكنني مخلوق ضعيف ولا أطيق
صراً على الماء. سأحمل على الإنسان مقابل الحصانة ضدّ الظلم.
- إذن فقد قام بيتنا العهد !

راق الجمل للإنسان ورأى أنه مكابر وجليل ومناسب
للمركوب. حرق فخذته بالنار لطبعه بسيماء قبيلة بني آدم. ثم
صمّم أن يتخذة مطية قبدأ يروضه ويعدّه لقدرة الحديد. أحاط
صدغيه بقطعتين شرسيتين من حديد كأنهما ترك، شارعاً في
صناعة شكيمة قاسية لم يسبق للجمل أن رأى مثيلاً لها على
حيوان. طفق يجرّه بالشكيمة الحديدية القاسية ويعبر به الصحراء
أياماً فيما بدأت فخذته المحروقة بالنار تلتهب وتنز بالدم
والصدید. وعندما تعب الإنسان من الهرولة والجرجرة والركض
ذهب إلى سدره وحيدة شقة وافنطع منها هراوة أقسى من
الشكيمة.

بدأ فصل جديد من سفر الشقاء.

كان يضربه بالهراوة الوحشية مع الشروق ولا يتوقف ولا
يتعب حتى يحلّ المساء. استنجد الجمل بالصحراء فأجابته بلغة
السكون المكابرة. استغاث بالآلهة وطلب النجدة من السماء
فهربت السحب وغابت الإشارة في السماء. أزد وناح
واستصرخ الملائكة فتلقّى علامة غامضة من القدر توصيه
بالتسليم والتعلّق بالصبر.

واصل الإنسان طقس القصاص. تحطّمت الهراوة ولكنه
لم يتعب. ذهب إلى السدره واستبدلها بأخرى. استمر يستبدل
الهراوات حتى خرّ الجمل البائس ساجداً.

قفز فوق ظهره وانطلق يحق السراب.

مد ذلك اليوم انطبعت في الذاكرة الإشارة: كلما أرد
الراحل أن يمتطيه لَوَح في وجهه بالهراوة فيختر له راکعاً.

- 3 -

ثم شاء أن يعود على حمل المؤن وقرب الماء والأثقال.
كان عاماً مجدياً تسقط فيه صاحبه أخبار المطر وما إن تنقل
الرعاة ورجال الاستطلاع خبر فوز الحمادة الشمالية بمياه سحابة
ضائعة حتى أناخه وبدأ يضع على ظهره الغث كل القيود التي
تشد كل المخلوقات المصنوعة من طين إلى صدر أمهم الأرض:
الفسطاط، والرّحى، والجوالق وأكياس المؤونة وقرب المياه
والمفرش والأوتاد وأغطية سميكة كالبرادع وحجارة أخرى
صقينة وملساء ورثها عن أسلافه دون أن يعرف المهمة التي
استخدمت من أجلها ودون أن يتوقف عن التنقل بها أيضاً. وقد
حاول أن يسدي له النصع ويحثه أن يبقى بالأصفاد بعيداً، إلى
الأرض التي تحمل كل شيء، أو إلى الشيطان الذي اخترعها،
ولكنّ النطق أعجزه وهو الذي لم يتعلم من اللغة الناطقة سوى
لتوجع والشكوى.

انتهى «الرفيق» من عمله فلوح بالعصا الوحشية في
وجهه. حول أن يهض ولكن هيهات. أحمال الأرض وأصفاد
الشيطان كانت أثقل من جبل، وأقوى من الهراوة الوحشية،

وأقسى، ربما، حتى من الظماً نفسه. أنزل السلاح الوحشي على
 رفته فلم يحد في نفسه إلا العجز. أنزلها على صدغه الأيمن فتأوه
 ورفع شكوى أليمة، طويلة، موجهة إلى السماء
 - آ.. آ.. ع.. ع.. ع.. ع..

استولى الغضب على «الرفيق» فسدد إليه ضربات متتالية
 أصابت الرأس والعينين والجبين والفكين. استمر يرطن بالآهات
 ونداءات الشكوى. ولكن الإنسان لم يرحم. بل ازداد وحشية
 وصعد من الهجوم. يشده من الرسن فتحفر شكيمة الحديد
 أخاديد في الصدغين. انبثق دم وهوت على الأرض لطخات
 كبيرة، ناصعة، من الزبد الكثيف. ولكن لا شكوى نفعت، ولا
 الدم شفعت. ارتفع جنون الإنسان إلى درجة أخرى. ذهب إلى
 شجيرة برية بائسة أماتها العطش الطويل واستعار منها كوماً من
 الحطب اليابس. أحاط بدنه بأعواد الحطب دون أن يفهم في
 البداية ماذا ينوي أن يفعل. ثم..

ثم أوقد تحت لحمه ناراً.

مدّت النار لساناً جشعاً، جائعاً، والتهمت الحطب
 اليابس. وامتدت تنتقل من عود إلى آخر حتى وصلت إلى البدن.
 أكلت الوبر فشم رائحة الشياطين. ثم تسللت إلى أبعد. اجتارت
 الرزح وأدركت اللحم الحي. فتح فكّه على الاتساع، ورفع
 شكواه إلى المجهول

.. .. .

ردّدت الجبال الزرقاء نداءه، وبلغت الرسالة إلى السماء.
بعثت إليه قوّة خفيّة مكنته من أن يقز ويقف على ساقيه بالحمى
اخترافي، الشيطاني.

- 4 -

ورأى الإنسان الغزال يتقاذف في الهواء كالطيف، يعبر
مراعي الحمادة مرحاً، طليقاً، فأراد أن يتحرّر أيضاً ويصبح
مثله. نسي التسمية البريّة القديمة التي تقوم إنّ كل مخلوق
مسؤول عن اختياره، والقدر لن يكتب الحرية لمن اختار القيد
واستسلم، منذ البدء، لأورار الأرض وأحمال عدوّ لكائدت
إبيس. وغلب الظن أنّ إبليس هذا هو نفسه الذي قرّر أن
يسخر من المخلوق المملوك فسخر الجن لتقل له وحي المجازفة في
الليل. نهض الإنسان في الصباح وشرع حالاً في تنفيذ لוחي
الجنوني.

أوقد ناراً شرهة ودس في لهيبها وتداً مهيباً ثبتت في
نهايته إبرة أطول من عقلة السبابة. وعندما التهب واستعارت
خصائص النار أناخه وقيد يديه الأماميتين وأحاط رقبتة بجسمه
وربط الرأس إلى الذيل. جاء بألته الجنونية وغرسها بوحشية في
شفتيه لعباً. سمع فحيح النار وهو يلتهم اللحم وشم رائحة
الشیط. مضت ومضة خاطفة قبل أن يتلقى ضربة الألم في
عصب الرأس. فتح فكّيه ورفع عقيرته بالشكوى :

رَدَدَت الصَّحراء نداء الأَلَم. تناقلته الجبال الزرقاء وبلغته إلى السماء. نزلت الرحمة السماوية وحجبتة عن الأَلَم. خطفته بعيداً عن الإنسان فبقي بلا وعي زمنأ. وعندما عاد إلى الأرض وحد الإنسان قد انتهى من مهمته. استبدل الشكيمة الحديدية لتي كانت تحيط صدغيه بلجام متوحش يخترق طرفه السفلي الشفة العليا.

كان انرأس مازال يسطع يوميض الأَلَم.

- 5 -

انتظر أن ينتهي الأمر عند هذا الحد، ولكن لشيطان أرسل لقرينه الإنسان جنياً آخر ونقل له فصلاً جديداً من سيرة العذاب. وجده يقفز في الفجر الصحراوي البتول ويشعل ناراً أخرى. انتظر حتى همدت. تناول سكيناً مخيفاً ودسه في أحشاء الجمر الشره. أحس بالخطر فتملص محاولاً أن يتخلص من العقال. ولكن جبل المسد كان أقوى. تقدم نحوه وشده من اللحام بشراسة فأفلتت من صدره شكوى فاجعة. ولم يكن يدري أن طقوس الفجيرة لم تبدأ حقاً إلا في اللحظة التالية التي استل فيها الإنسان سلاحه المخبأ في خوف لمار وجز العضو المندسوس بين فخذتيه الحلفتين. لم يحز العضو وحده ولكنه نحر الخصيتين أيضاً. ولول الجمل وصاقت بألمه

الصحراء الكبرى كلها. عوى بالفجيرة كذئب يتوقع
لمجاعة⁽¹⁾

ظلّ يتلوّى ويرغي ويرطن بلغته المجهولة. حدس الإنسان
أنه ربما يعن يوم الميلاد فعزاه قاتلاً:

- هذا ضروري كي تبرا من همّ الجري وراء النوق. هذا
ضروري كي تتفرّغ للرقص والسباق. بدون التضحية بهذا
الشيء بئس تقدر أن تتحمّل وتحترم قواعد اللعبة !

- 6 -

قواعد اللعبة لم تنته عند حزّ «الشيء».

في إحدى الأسفار المدهشة وقع الإنسان في قبضة
العطش.

ترنح وتضرع إلى السماء وقرأ التعاويذ وجاهر بالتندور
قبل أن يقهره الوهن ويتدحرج من فوق السراج. زحف على يديه
وقدميه وبطنه طويلاً. دس رأسه في بسات التربة الحمراء،
الرامضة، وقبّل أمه القديمة التي نكرها دائماً وداسها برجليه ورفع

(1) تقول الأسطورة أن الدب يعوي ضاحكاً عندما يحوج، لأنه على يقين من
الحرج لا بد أن يعقه شبع، ويعكس الحال عندما يقوز بوليمة، ويملاً لصحراء
غويلاً وصراخاً، خوفاً من العقابة وتوقعاً للمجاعة.

أمامها 'نفه استكياراً. ولكن الأم أشاحت عنه بوجهها ولم تعطه
المدء. ولا يعرف الجمل متى وصل المبعوث الرّجيم ووسوس في
صدر الإنسان بالاختراع الجديد. راقبه وهو يزحف نحوه كالحيّة
ويتسّق ساقيه الأماميتين. استعان بهما حتّى وقف ثم أخرج من
كمّه مديّة بشعة رشقها، برشاقة، في صدره. انهمر الدم وطفق
الإنسان يرضع من التّبع الدّموي. بدأ الجمل يغيب ويتراجع في
النسيان. قطع مسافة في النسيان. اختلى بالصحراء في برزخ
الفناء. قال لها:

— ثمة شيء واحد أقسى من الظّمأ: إنه الإنسان!

ابتسمت الصحراء بحزن كأنها توقعت نتيجة المسيرة،
ولكنّها لم تعلق. أكمل الجمل وهو يقطع مسافة أخرى في صراط
الفناء:

— خذي عني الإنسان وأعيدي لي ظمئي!

ولكنّ الجمل لم يعلم أنّ الأوان قد فات مرّتين. مرّة لأنّ
القدر خطّ العهد في اللّوح المحفوظ. والثّانية لأنّ المخلوق لا ينبغي
أن يضع وزناً لحساب الرّبع والخسارة إذا اجتاز البرزخ وسار في
طريق انقضاء.

طرابلس - مالطا

بين 14 و 24/3/1991

جرعة ماء دم

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾

سورة الأنبياء، الآية: 30

لم يعد وانس الصغير يحتمل العطش. فأخير أخته تانس كيف نسي أحجته حيث كان يرعى قطع الغزلان، فبكت تانس ورجته ألا يشرب من بول الغزال، ولكن وانس لم يعد يحتمل للذهب واعتطف أحجته، وشرب من بول الغزال بعد أن ألقيه حجراً. فعاد إلى أخته تانس وقد تحول نصفه الأعلى إلى غزال وأحجته معلقة على قرنيه.
«من أسطورة للطوارق».

الناس والبحر

كعأت الشمس في مظاهرة من اللون الأرجواني، لفظ معها النهار أنفاسه الأخيرة. هبت نسمة هواء شمالية حبلت بماء والحياة لأول مرة بعد ثلاثة أيام من القيظ ورياح القبلي، ملأ بها صدره فتسملت لتغمر روحه وجسمه بالانتعاش والشباط. لاشك

ألها سمة قادمة من جنة الله.. من البحار البعيدة، هالك.. حيث يعيش بشر مسحورون في مدن كبيرة.. أخيراً زار رحى المدينة ورأى أن ماء البحر أزرق كألبيسة الطوارق المستوردة من كايو وحجمه.. حجمه كبير.. كبير.. كالصحراء. ما أسعد حظ هؤلاء الناس. وههم الله ماءً وفيراً ووضع تحت أقدامهم، فماذا يقصهم؟ ولكن الرجل أحبره أنهم أشقياء وشريريون برغم البحر يسرقون ويتشاجرون ويقتل بعضهم بعضاً. كيف يجرو هؤلاء البشر أن يركبوا نعمة الله بأقدامهم ليشقوا ويسفحوا دم بعضهم، ويعثوا في الأرض فساداً برغم الماء الوفير الذي ينساب تحت أقدامهم، فأي إنسان يجرو أن يهين النعمة ويكفر بالماء لو لم يكن شيطاناً رجيماً؟

الأفعى تقتني أثر قاتلها

شرع الظلام يهجم وانهزم النهار. ترجل عن الجمل وقاده عبر الأعشاب البرية اليابسة باحثاً عن مكان مناسب يقضي فيه ليلته. عند شجرة سدر كبيرة أناخ الجمل. نزع عنه السرج والسندقية والمؤن وقربة الماء وبقيّة الأثقال. ذهب يبحث عن حطب بعد أن أحكم العقال حول ركبة الجمل.

شرع ينزع أغصان شجرة برية ماتت، بعد أن نزع منها الحفاف الروح والحياة لتقوم الشمس ببقية المهمة. هم بأن يجمع أعواد الحطب المتناثرة عندما سمع ذلك الفحيح الكريه الذي يقشعر له لبدن دائماً، ويُسعره بالتقرّز ويبعث في نفسه الجنون والعدوان. رآها مكومة عند جذع الشجرة قرب عش من أعشاش

الطيور البرية مهددة بلسانها. تذكر أنه نسي البندقية فهجم عليها بعصته في جنون ناتج عن غريزة الدفاع عن النفس. مطهرها الكريه لا يدع فرصة للتفكير أبداً. كان حزامها متنفخاً. تكتشف أنها ابتعت الطائر.. فتم يبق في العش سوى ثلاث بيضات صغيرة. أتى بحجرين كبيرين.. نزع رأسها عن حلقها.. حفر حفرة صغيرة بعصانه ودفن الرأس. كان لا بد له أن يفعل ذلك.. فإذا قتلت أفعى وأهمست، تنزع رأسها، جاءتها بقية الأفاعي بعد أن تمضي مباشرة لتعيد لها الحياة، وتمضي تقتفي أثرك حتى تقتلك أينما كنت.. هكذا يقول الطوارق، وهو لم يؤمن في حياته بشيء كما آمن بقدرة الأفعى على المطاردة والانتقام من قاتلها إن لم يجتث رأسها عن جذعها. رى لأن خوفه من الأفاعي أقوى من كل شيء.. من طغيان الأشباح والصحراء وكل الأعداء.

شباب الله وماؤه

أشعل النار في الخطب، وتناول الدقيق من جرابه الجدي.. صبت ماء من القرب في الإناء.. بدأ يعجن الدقيق في انتظار أن تخبو النار. الماء تضاءل كثيراً في القربة. يومان خائبان في الخلاء.. والأولاد لم يذوقوا طعم اللحم منذ ثلاثة أشهر.. المعيز لتهمها الجفاف.. وما تبقى غث جائع تنأفف الدئاب من حمله.. يومان لم يقابل فيهما سوى غزالة واحدة فشس في صبتها. أين تلك الأيام التي كان يصيب فيها الغزاة من الطلقة الأولى؟ أين تلك الأيام التي راهن فيها على إصابة غزال يركض في عينة وهو يمتطي ظهر المهري؟ تلك أيام الشباب.. يد الشباب

الثبتة كالحديد تصيب غزالة طائفة في الهواء وتظل ثابتة حتى وهو يمتطي ظهر المهري يعدو.. الرصاصة تمضي إلى هدفها دائماً. أما يد الشيخوخة هذه.. فترتجف بلا سبب.. ترتجف وهو راقد على الأرض المنبسطة، راكن إلى قمة ربوة. وقطعون الغزلان ترتع أمامه في هدوء، ومع ذلك يخطئ الهدف.

الشباب. الشباب كالماء نعمة من الله يهبها لمن يشاء، ثم لا يلبث أن ينتزعها متى شاء.

الخبز والملح

أزاح الجمر جانباً، وألقى بالعجين في الرمل المنتهب. أهال عليه التراب وعاد يغطيه بالحرمر مرة أخرى. صب الماء في إناء الشاي ووضع فوق الجمر. ينبغي الاقتصاد في الماء. وإذا لم يرسل لله غداً نسيماً بحرياً وسحباً شمالية تلطف من لهب الشمس وتنعش النهار فإن هذه القطرة لن تصمد ضد رياح القبلي يوماً آخر. انتشل الخبز من الأرض.

دفنه في التربة الرملية وشرع ينظفه من الرماد والجمرات الصغيرة العالقة به. نفخ عنه الغبار وهم بأن يعسله بالماء كالعادة، ولكنه استدرك. تناول السكين من الجراب وشقّ الرغيف نصفين. بدأ يلتهم النصف الثاني، نسي الملح.. لا يهم.. الأرض قامت بالهمة.. ملّحت الأرض من تلقاء نفسها.. منح الأرض أئذ طعماً. يا الله! ما أطيب ملح الأرض.. ما ألدّ الخبز عندما يُدقن في أحشاء الرمل اللاهب.. ما أطعم الخبز الباضع في

أعماق أمنا الأرض.. الخبز المسحور الذي يعبق برائحة الجنة،
هذا الخبز، لإلهي الذي يشبه طعمه رائحة تلك السمة العيقة
القادمة من الشمال.. من البحر الكبير كالصحراء.

الفكرة الحكيمة

أكل الخبز وشرب الشاي وتوضأ بالتيَم، ويتم شطر القبلة
ليجمع صلوات أوقات اليوم الخمس في وقت واحد. تهيأ لسوم
عندما تذكر «الأشقر».. نسيه.. نسي أن يداعبه قبل النوم حسب
العادة. اقترب منه توقف عن الاجترار.. وشرع يلحق يديه بشفتيه
بحثاً عن أعشاب أو قبضة شعير، وعندما أدرك أنه أنه يبدن
فارغتين حك رأسه بقامته ثم مَذ رقبته وعاد يجترُّ في صبر مستمراً
أمره لله. هذا جمل ليس ككلّ الحمال. مهري نادر الوجود في
الصحراء الكبرى كلها ورعا في الدنيا كلها. يتمتع بروح مرة
ويفهم معنى الصداقة.. رباه يديه مد كان صغيراً ليذكر في نفسه
العاطفة الإنسانية، ويتزع الخبث من رأسه.. بعد أن أرتبه الجمل
التي يشتريها من الغرباء بنجوم الليل في عزّ الظهر. أحد هذه الجمل
ابتاعه من بدوي ينتمي إلى قبيلة الأمغاد، فورث عن صاحبه الحينة
والخبث وكنّ الرذائل التي تتمتع بها هذه القبيلة الشقية. فقد حاول
أن يترك عليه ويسحقه عندما كان نائماً في إحدى رحلاته. أما
الثاني فقد قاىضه بخمسة رؤوس من الغنم، من مواضع تشادي
يتاجر بالعطور المحلية الكريهة الرائحة. ويبدو أن هذا التاجر أوصى
جمه أيضاً بتمارسة بعض الطقوس السحرية، التي تعود أمثال
هؤلاء لتحرّ أن يرتزقوا منها عندما يتعرّبون عن بلادهم.

في البداية حاول أن ينتحل الأعذار لحرافته وحماقته ونزواته، وأرجعها إلى غباء موروث في دمه.. ولكنه ما لست أن كشف عن معدنه اللئيم. فقد انتهز هذا الحيوان الكريه فرصة انشغاله بالحراث، عندما كان يحراث الأرض بعد نزول أمطار موسمية غزيرة في وادي الجعيفري فالتهم يده اليمى وشرع يمصعها.. نهال عليه بالنلكمات بكفه اليسرى بلا جدوى، فمدا تستطيع اليد اليسرى أن تفعل إذا كانت توأمتها اليمى تحت رحمة فكّي جمل هاتح كذاك الجمل. أنقذه رجل كان يحراث الأرض بجواره بعد أن حطّم فكّي الخيوان المسعور بكعب البندقية. من يومها وما زال يؤمن أن ذلك الجمل كان ثمرة مؤامرة دبّرها أعداؤه. شدّ يده اليمى التي اكتسبت سمعة وشعبية في الرماية أثناء الحروب الأخيرة مع الطليان والقبائل المعادية.

وقد أكد هذا الاعتقاد فقيه من غدامس.. زاره مرّة لعيادته بعد هذا الحادث.. وقد قرأ الفقيه على رأسه بعض الآيات القرآنية والتعاويد، ودس حجاباً بين أحجبه بعد أن أغرقه في حمام من البخور، ولم يطلق سراحه بالطبع إلا بعد أن انتزع من جيبه عشرة فرنكات فرنسية. ولكنه عرف كيف ينتقم لنفسه من هذا الجمل المسحور الذي دشّه نه أعداؤه كما أكد له ذلك الفقيه لساحر.. فقد حاصره العطش ذات مرة في الخلاء، فتذكّر تلك الفكرة الحكيمة التي وُجدت منذ وجود الطوارق والصحراء على الأرض: ذبحه وارتوى من دمه. أما يده فقد برئت، وعاد قدرتها على التصويب والرماية، ولم يقتنع بشفاؤه إلا بعد أن أصاب عزلة طائرة في الهواء وهو يمتطي ظهر مهري يعدو. حمل واحد

احتصر له قل «الأشقر» ولكنه التهم دوداً مع الأعشاب فانفجحت بطنه، وبعد أن هاجمته سكرات الموت ذبحه ورفض أن يأكل لحمه. أما «الأشقر» فقد صنعه بيده المعروقة المرتجفة هذه.. حمه على ظهره وعبر به الصحراء طويلاً وعرضاً، دون أن يشكو أو يتبرم برغم الجوع والعطش ولهب الشمس. قضى معه من الوقت أكثر مما قضاه مع زوجته وأولاده. يفهمه أكثر من امرأته.. ورتما يحبه أكثر من امرأته. فكيف لا يعشق المرء حيواناً وديعاً ومطيعاً كـ «الأشقر» بعد هذا العمر الطويل من العشرة والملح.

الإثم هو أن تطالب بالجنة

حمل «الأشقر» أثقاله.. وثبت على ظهره السرج. داعب رقبته بحنان وهو يعدده بالحشائش الخضراء في وادي «عوينة ونين» قبل أن يقفز على السرج بوثبة واحدة، انطلق به قس الشروق عندما انتصف النهار بلغ وادي «عوينة ونين» (كانت الشمس تندفق كالألهب). أبصر قطعاً من الغزلان ترتع في بطن الوادي.. شدّ رسن «الأشقر» وقفز إلى الأرض بهدوء، نزع الزمام حول رقبة المهري وتركه يهجم على الأعشاب البرية الخضراء. انطلق نحو الوادي منتقلاً من شجرة رتم إلى أخرى حتى أطلّ على القطيع سبحانه الله ما أجمل الغزلان.. عيّن صعيرتاب كحللاوان، قوائم رفيعة أنيقة.. سحنة ساحرة. لم يحلق الله حسماً كالغزال في تناسق لا تراه إلا وتشعر برغبة في أن تحتضنه وتقبله ومملاً عينيك من رؤيته وتطلق سراحه. كم هو

حميل أن يرى المرء غزالاً أمامه. ولكن الأجل لو يطمش لعرال
للإنسان الغزال.. جسّد الله في خلقه أجمل صورة للجمال
البري.. فكيف عجز في شبابه عن اكتشاف هذا الجمال الحارق
الذي يشبه هذا الحيوان الصغير؟ كيف استطاع أن يقترف هذه
الخطيئة في شبابه، عندما كان يعود إلى البيت وحمله يوء بحمل
العرلان لمقتولة بيده؟ أم أن الله يفعل ذلك كي يعاقب الإنسان
عن كلّ خطايا دفعه واحدة، بأن يجعله يكتشف الحقيقة مرّة
واحدة في حياته، ولكن بعد أن يكون الأوان قد فّت.

في شبابه كان طائشاً معطل العقل، وقادراً على صيد
لغزال وامتلاكها حتّى وهي حيّة، ولكن عقله لم يكن يسمع
له بإدراك حقيقة الجمال الكامنة في هذا الحيوان الوديع.. والآن
بعد أن غزته الشيخوخة وامتلك عقله يعاقبه الله بكتشاف
الجمال في الغزال، دون أن يكون قادراً على الاستيلاء عليه.
فكيف يستطيع أن يطلق عليه النار حتّى لو لم يكن عاجزاً؟
كيف؟ كيف ولكن.. الأولاد.. الأولاد يكون عندما يستولي
عليهم الجوع.. فكيف يطيق الأب أن يرى أطفاله يكون من
شدّة الجوع، دون أن يفقد عقله ويسبح ضدّ إرادته تشبّث
بظهر ربوة صغيرة تطلّ على الوادي.. سدّد فوهة البندقية على
عزلة متوّحة بقرنين طويلين، عاوده العذاب وغزاه التشاؤم
للمحظة. ورغم ذلك ضغط على الزناد.. تبدّد القطيع في سرعة
السهم خلال لحظة واحدة. هرع إلى الوادي وأعماقه تردّد
«كسا خاطئون. ليس بين الناس أبرياء، فمن الذي يحقّ له أن
يطمع في الجحّة؟ أن يطالب الإنسان بالجنة فهذا هو الإثم».

لعنة الغزال

اكتشف آثار دماء مسفوحة على الأعشاب حيث كان يرى القطيع. تدفق العرق فوق جبينه وغمر وجهه وقمه.. سقطت قطرات مه على الأرض وامتزجت بدم الغزال الحريح تذكر أنه نسي أن ييسمل عندما أطلق النار آه.. هذا نذير شؤم لعزال أيضاً مسحورة.. إذا أطلقت النار عليها فيجب أن تتأكد من إصابتها إصابة فائقة، فتقتل شياطينها معها.. وإلا فإن لعنتها قادرة على أن تلحق بك الأذى، خاصة إذا حدث ونسيت أن تذكر اسم الله عند الضغط على الزناد. عرف رجلاً جرح غزالة حاملاً فركبته شياطينها وفقد عقله.. وبعد ثلاثة أيام مات.. وحدثه رجل من أوراغن، كيف ظل يطلق النار على غزالة مسكونة منذ الصباح حتى انتصف النهار، كانت تقفر في الهواء مع كل طلقة وتعود إلى الأرض لترتع بهدوء، دون أن تعباً بعياراته النارية حتى تغد رصاصه في نهاية الأمر وتأكد أن الشيطان يسكها.

أطلق عنان الأشقر في أثر الغزال الجريح مهتدياً ببقع الدم المسفوح حتى هجم الظلام. بات ليلته بلا عشاء اقتصاداً في الماء، واستيقظ عند الفجر وواصل رحلته في إثرها. لم يبق من الماء في ثقبه ما يكفي لصف يوم، ولكنه مضى يطاردها في عناد حتى أدركها رائدة عند سفح الجبل بعد أن تخلى عنها القطيع ونزفت كل دماها. ذبحها وسلخها وتعشى على رأسها وأحشائها في تلك الليلة نفدت آخر قطرة من الماء.

جرعة الدم

لم يكن في وسعه أن يختصر مسافة أربعة أيام ونصف في يومين. دون أن يقتل «الأشقر»، عَدُوًّا. قاد المهري ومشى عبي قدميه طوأل الليل ليدع له فرصة الخلود للراحة، ستعدداً لمواجهة مسيرة نهار مهتد بجحيم الحرّ في اليوم التالي امتصر جلد القرية بعد أن مزقه يديه. وفي نهار اليوم الثالث عجز عن الجلوس فوق السرج.

ترجل وجلس يستظلّ بـ«الأشقر» من الحرّ المتدفق في الخلاء المغطى بالحصى العاري حتّى من الصخور. تأمل الصحراء المنبسطة أمامه كراحة اليد. وفي النهاية.. هناك كان السراب يتراقص فتذكّر البحر

كان كلّ شيء ساكناً، هادئاً مستسلماً لسيطرة الشمس المقدسية. حتّى الذباب لم يعد يطن حول الغزاة المعلقة على طرف لسرج، شفتاه تزدادان جفافاً.. حلقه يابس بعد أن فقد المقررة على استحلاب لعاب.. قلبه تكوّر وتخشّب. وفي هذه اللحظة لمعت في رأسه فكرة.. المفكرة الحكيمة، ولكنه ارتجف رعباً «الأشقر».. لم يبق له إلّا أن يذبح الأشقر ويتجرّع دمه. أناخه وأحكم العقال حول قائميه الأماميتين. فعل ذلك بحماس أذهبه. إنها العاطفة الجنونية التي تدمر العقل مرة واحدة في سبيل فكرة الحياة.. التشبّث بالحياة ولكن جرعة واحدة.. واحدة وحسب، لن يصطرّ لأكثر من ذلك. ربّت على رقبة المهري يداعبه.. فتحسّسه «الأشقر» بشفتيه وقبل يديه كأنه يبارك فعله ثم رفع رقبته نحو لأفق

المعيد حيث يتراقص السراب في كبرياء واستسلم لمصيره إلى الأبد،
في هذه اللحظة اضطرب الشيخ وانهار على الأرض الرمضاء.

السكين

حاول أن ينهض.. لكنه عاد فسقط عند ركبتي
الأشقر. غرس يديه في الأرض. لسعته الرمضاء فانزعها،
أجال ببصره حوله، لم يعد شيئاً.. لم يعد قادراً على رؤية الخلاء
الممتد إلى ما لا نهاية.. عجز حتى عن رؤية السراب. كل شيء
يتراقص.. يتراقص.. يتراقص.. ويختفي في الظلام عينيهِ. عاد
يحلم بجرعة الدم. قدح صغير من الدم يملأ به ريقه ويعيد له
الحياة.. الحياة.. الحياة. نهض مستداً على «الأشقر» حتى بلغ
رقبته.. ثم رأسه احتضنه طويلاً.. استسلم «الأشقر» بين ذراعيه،
شمشمه بخياشيمه. يستحسّه على الإسراع.. لم يعد يطيق
الانتظار.. كان شاهراً رقبته الطويلة منتظراً أن يدس فيه السكين.
قرّر أن ينتشل السكين.. دس يده في الجراب، فلم يجدها.. فتش
عنها بين أحجبه بين ثنايا البطانية.. في كل مكان، اختفت..
ضاعت.. نسيها. حيث سلخ الغزال. الغزال.. الغزال.

رحلة الأشياء

هذه خطيبتى.. كنت أستطيع أن أتمتع برويته وأعود. كان
في إمكاني ألا أطلق النار.. أو أبسمل باسم الله على الأقل..
ولكن. هل خطيبتى أيضاً أن يكي الأطفال عندما يحوعون ؟

هل خطيئتي أن الله خلق مخلوقاً جميلاً وزرع فيه روح البحر
والشياطين؟ حقاً إن الله لا يخلق شيئاً بلا سبب.

مدّ يده وحلّ وثاق الأشقرّب وفي أعماقه صدى ضحيح
يترّد: هل أنت أول جثة ابتلعها الصحراء؟ هل أنت آخر حنة
ستتلعها الصحراء؟ الآن لم يعد يخشى الشمس.. والعطش.. أو
الصحراء. أو أي شيء.. آخر شيء استطاع أن يراه قامة
الأشقرّب الفارمة وهو ينهض.. ثم وهو واقف فوق رأسه،
يتحسّس جبينه ويشمشم ملابس به بخياشيمه. يرك إلى جانبه
ليحجب الشمس القاسية عن جسمه.. حبات الرمل في فمه لم
يعد لها طعم، أو أن طعمها لا يذكره شيء. ومتى كان ثمة طعم
لشيء، أي شيء. لم يفكر بعدها بشيء. لم ير شيئاً. تلاشى كل
شيء في لا شيء.. لتبدأ رحلة جديدة مجهولة من التلاشي و.. اللا
شيء.

بابا جاء.. بابا جاء

بعد يومين رأى الأولاد جملاً قادماً يصارع الأفق..
تراكصوا نحوه وهم يتصايحون كالعادة «بابا جاء. بابا جاء».
تحقّقوا حول «الأشقر» الذي مضى في طريقه كأنه لا يعبأ بهم. لا
يعبأ بشيء.. ولا يرى شيئاً سوى الأفق. يجرجر زمامه خلفه
والعزل معنّى على السرج.. ولكن السرج نفسه كان.. حالياً.

تحولات الضبّ بوحدة القياس الفلكي

«إذا أردتُ أن أحيأ عليّ إذن أن أسي أن جسمي ينتمي إلى التاريخ، وأغرق في الوهم بأنني معاصر للأجسام الحاضرة الصغيرة السن لا جسمي الماضي. والخلاصة أن عليّ دورها أن أبعث من جديد وأكون أصغر سنّاً مما أنا عليه».

رولان بارت

- 1

في البدء كان سيّد الصحراء. يسير في السهول لمحاورة
لُوادِي مكابراً، متباهياً بفتنته وشبابه، قرآه سلطان الظلمات في
إحدى الحولات. أكلت الغيرة قلبه وتحرك في نفسه الحسد. قال في
نفسه كيف يجروء مخلوق وضع مصروع من ماء وطين عني
منافستي في البهاء ؟ جلس فوق صحرة تطلّ على ودي الماء
المقدس وفكر في حيلة يوقع بها المخلوق الطيني المكابر. استدعى
السعلاة وأوكل لها المهمة. خرجت الجنّة القديمة إلى السهل في

بدر حورية لم تر الصحراء نظيراً لحسنها. غنت بصوت يليق
 بحوراء الفردوس، عرفت نشيداً على وتر الأشجان والأحزان.
 سكر سيد الصحراء ووقع في الوجد. جذب في العراء، تحت ضوء
 القمر، طويلاً. نفس عن صدره الصحراوي المشحون دائماً بالحين
 إلى واو الضائقة وحزن البحث الجليل. ثم خرجت إلى لوادي
 فسار وراءها. انقاد بحسن الصورة وبهاء الروح الذي رآه في
 المعزوفة والعاء. كانت تتقل بعقة وخفة وتتوقف لتلتفت بين حين
 وآخر. تنفت وتبتسم بسحر لا تخبره إلا حسان الفردوس.
 بسمات الاستدعاء والحياء والإغواء بلغت الوادي. في الأسفل
 جرى الماء المقدس جليلاً، صامتاً، حاملاً سر الحياة والصحراء.
 ينعكس عليه ضوء البدر فيومض بالإشارة وينحفز لبوح. ولكنه
 يعود للانكفاء مهموماً، متكئاً على سرة. عبرت الحورية المجرى.
 حصلت أعجوبة. رآها بنفسه تمشي فوق الماء المقدس، العكر،
 المخطوط بالطين والبحر، وتعبره إلى الشاطئ الآخر دون أن تفرق أو
 تبطل حتى أطراف ثوبها الفضفاض. رفع رأسه نحو البدر متسائلاً
 فحذره الكوكب بإمالة كئيب. ولكن هل يفهم إشارة السماء من
 رهن فؤاده في يد سعادة تتنقل في هيئة حسناء من الفردوس؟

- 2 -

تذكر التحريم. اكتتاب الكوكب ألهمه بالوصية بالمريرة
 على جدران الجبل، الوصية الموروثة عن الأسلاف التي حرصت
 كل أم في الصحراء أن تلقنها للوليد قبل أن يدب على قدميه

ويقترب الإثم في حق النهر قالت العجوز في ضياء لقمـر
 «اعلم يا ولدي أن الماء مقدس، والوادي الذي تراه هو آخر نهر
 جارٍ على وحه الصحراء الكبرى كلها. ويل لمن تجرأ واغتسل في
 مائه. مزبور في حجارة الأولين أن من يدنس الماء المقدس سيصح
 مسحاً جزاء له. فهل تريد يا ولدي أن تتحول إلى حية أو خفس
 أو صب؟ إياك. إياك. ثم إياك». هذه لغة لم تقتصر على الإنس
 في الصحراء، ولكن عرفها أولاد كل المخلوقات البرية. الجن
 والحيونات والنبات. سلطان الضياء والسموات حرم
 الصحراويين الأنهار لقاء آثامهم. فكان، في الزمان القديم،
 يجفف ينابيع الوادي كلما ارتكب الخلق إحدى الكبائر. وعندما
 تبقى هذا الوادي وضع عهداً بينه وبين المخلوقات البرية يتوقف
 بموجبه أهل الصحراء عن ارتكاب الحرام، ويترك لهم السلطان
 لسماءي الماء يجري. ولكنه وضع شرطاً يحرم الاعتسال في
 النهر فإذا دنسوه رفعه إليه وحرّمهم منه. فكان عليهم أن
 يحفظوا الوصية جيداً ويتقيدوا بنص العهد.

تذكر المكابر هذا العهد بإيحاء من القمر ولكن ذلك كان
 لحظة خاطفة. إذ غمرت الحوراء بعينها من الشاطئ الآخر
 فنسي الوعد وختم على عقله بالسيان. قال لنفسه إنه يستطيع
 أيضاً أن يتخطى الجرى بقفزة كما فعلت الحسناء، والدليل أنها
 تقف أمامه في الناحية الأخرى والماء ما زال يعدو في محراه ولم
 يرتفع إلى السماء. شمر على ساعديه، رفع سرواله إلى ركبته،
 وقفز إلى الشاطئ الآخر بحيوية الفرسان عندما يقفزون على
 ظهور المهاري. خيل له أنه طار طويلاً، وعندما هوى وقع في

قُب الماء. أشاح القمر بوجهه وهرب من الصحراء. قهقه سطار
الظلمات في مملكة الخفاء وتلاشت الحسناء متحوّلة إلى طائر
اعتصم بالحلل. تزلزلت الصحراء بغضب سلطان الضياء. تلاشى
لهر وتساعدت أبخرة الماء في الغيب. رقصت الجنيات في جبل
الحسونة وناحت الخوريات في الفردوس. بدأ التحوّل.

وجد نفسه يزحف على يديه وركبتيه. استطار وجهه ثم
ستدار حتّى استقرّ على هيئة جديدة كوجه الضفدعة. نبت في
دبره دب مسنن، خشن. تقلّصت الركبتان واليدان ونبت لها
في أطرافها مخالب شرسة. حاول أن ينهض ويقف على قدميه فلم
يقدر. زحف فسمع الصوت المهيّب

- خنت العهد وخسفت بآخر ينبوع ماء. كتبت عليك أن تعيش
خالداً في بدن ضبّ. وسأضع بينك وبين الماء عداوة، إن ذقت هلكت.
وسوف تهرب من وجه المخلوقات وتعيش في الجحور معتزلاً، خجلاً.

لبس سلطان الظلمات ثيابه وذهب في جلد أفعى لزيارة
الضبّ. وجده بانساً، حزناً، في بدنه الجديد، يخرّ خاشعاً يتوسّل
الشمس أن تتدخل للوساطة. قال سيّد الظلام بفهم الحية

- نلت الجزاء أيها المكابر. تنباهي بالفسة وتدوس على الخلق. سحققت
بيضتي بعقبك القبيح. وها أنت تزحف، حقيراً، على الأرض مشي،
أخير جدعي الزمان بالعدالة. ما أسعدني إذ أراك شقيّاً، محروماً من الماء.
ولكنّ الضبّ ظلّ واقفاً فوق حجر في فم الجحر، مواصلاً
صلاة غامضة نحو الشمس، في كبرياء.

قل سلطان الظلمات المندس في جلد الحية

ترفع أفك ولا تتنازل عن المكابرة حتّى وأنت ضبّ حقير ٩

أصابه الاستفزاز، أجاب بغضب

- تعير وعاء الطين ولكن هيهات أن يتغير الأصل. في هذا المقصّر تخفى أنفـس جليـلة لسلطان الضياء.
- تكذب ! أنت عبد حقير في جلد ضبّ أسود.
- لن تنال من قضية الضياء مهما سخرت من السّعالـي.
- ها.. ها.. ها.. ألم أجبرك على الزحف على البطن ؟
- ولكنّ عصفور النور أبعد لك من النجوم.
- لا ترفع رأسك أيها القبيح. رفع الرأس لا يليق بالعبيد.
- أنا عبد مغضوب عليه وأنت ملعون كـريه إلى الأبد.
- أخرس يا ضبّ !
- امش يا رجيم !

نشب العراك بين الضبّ والحية. فجلدها بذنبه المسنن،
الحشن، حتّى أذى جسدها البشع.
لأوّل مرّة تهزم أخية في عراك ؟

- 3 -

عاش في الظلمات آلاف الأعوام. يعتزل في الجحر ستة
شهور في الحول، ثم يخرج مع نهاية الربيع ليقف، في خشوع،
على الحجر المنصوب في فم الجحر، ويبدأ في انشعائر الأبدية.
يرفع رأسه نحو الشمس كلّ صباح ويستجدي الوساطة مع
السماء، حتّى ينتصف النهار. يتفقّد المكان، يستطلع الصحرء
خوفاً من أن يراه الحلق في ثوبه الأسود، القبيح. فإذا اطمأن برل

الوادي القديم الذي حفّ بالغضبة السلطانية العليا، وطلّ عاريًا،
 ظمآن، منذ عشرات الآلاف من السنين. تنبت في حواشيه
 أعشاب شحيحة في مواسم متباعدة تتساقط فيها الأمطار من
 بعض الغيوم العابرة دوماً إلى الشرق. يتغذى بالأعشاب
 لشاحبة، البائسة، ويعود إلى مغارته الظلماء ليمكث في منعه
 حولاً آخر بعد أن يغيّر جلده في كلّ يات جديد.

- 4 -

عرف سر الخلود بالصدفة.

كان يرتع في الوادي عندما قبض عليه عدد من الرعاة.
 ذبحوه بالسكين فغشيته غيبوبة ظنّها إغفاء أزلية في ظلمة
 الجحر ظلّ راقداً في المخلاة وهو يستمع لحوار الرعاة في برزخ
 بين لضياء وانظلمة، اليقظة والغيوبة. سأل الأوّل
 - هل خرج منه دم غزير ؟

أجاب الثاني

- قليل جداً، قطرات معدودة.

عاد الأوّل

- إذ لم ينزف كثيراً فلن يموت أبداً. لا بد أن تتركه طويلاً حتّى يموت.
 لا يدري كم مكث في برزخه الخفي. ولكنه لا ينسى
 لحظة الحساب التي ذاق فيها طعم النار.

ألقوا به في اللهب فبدأ يتقلّب ويتململ ظناً منه أنه شعاع
 شمس. فتحت عينيه ليخرج للصلاة ويتمتع بدفء الربيع فوجد نفسه

في النار الموقدة. قفز من الموقد وركض في العراء. وظل يركض حتى
قصر في أول جحر هجع في ظلماته وسمع الراعي الأول يقول
- ألم أقل لك؟ كان عينا أن تتركه أياماً أخرى حتى يرد دمه ما
أصعب أن يموت الضب!

- 5 -

أعيه الدهر وتعب من الخلود. كره الحياة وتمنى الموت.
خرج للعبادة للمرة المليون. وصمم أن ييوح للشمس بسرّه أثناء
الصلاة. قال لها

- لا أضمع في الغفران ولكّني تعبت وأريد الراحة الأبدية.

دهشت الشمس

- أول مرة أسمع مخلوقاً أرضياً يزهد في الحياة. ها أنت ترتفع إلى
درجة وليّ.

فقال بيأس وتسليم

- لا أرجو سوى غفران السلطان فمتى يأذن لي بالزوال؟

هشّت الشمس سحابة طائشة أمام وجهها وقلّت بعجب:

- ألم تدر أن الخلود في جلد ضبّ هو قصاص؟

سقطت من عينيه دمعان كبيرتان.

- 6 -

جاءته الشمس بعد مائة ألف عام أخرى بالبشارة. قالت:

قَبِلَ سلطان الضياء صلاتك وأقرّ لك بالخلاص.

رقص الضبّ في العراء فكشفت الشمس عن السر
— افتح فمك للسماء !

فتح فكّيه نحو السماء وأغمض عينيه. سقطت قطرة مطر
من الماء المقدّس في فمه فغاب عن نفسه. حلّ الحو وُختم عليه
بالنسيان. وجد نفس يسعى سعيداً في جلد ضبّ. وسوف يقضي
دهر فكي آخر حتّى يشكو لمولاه التعب فينفيه بحلاص آخر.

— 7 —

وتمرّ دورة جديدة في الزمان الفلكي فيرحمه رُحم
الراحمين، يحرّره من جسر الزمان ويأذن له بالخروج من
الجسد. منذ ذلك التاريخ بدأ التبدّل الدوري. يخرج لشمس في
ربيع كل عام فيسلخ جلده القديم، ليود في الجديد.

— 8 —

ولكنه ظلّ يمارس طقساً تلقائياً كان له سبباً في هلاك يوماً
ما، فيخرج إلى المرعى مكابراً، مرفوع الرأس، كأنه يريد أن
يخرق الأرض أو يبلغ الجبل طولاً، فالجسد وحده محكوم
بالنسيان. أما الجوهر، كتلة الضوء، فهيهاث أن تنسى

الدار البيضاء

1991/2/19

البرزخ

اشتعل الفضاء في الواحة.

بقيت في القمة، وسط فروة السعف، فوق العش، تحتمي
بالنخلة، وتحمي الفرخ.

في الأسفل، عند الجذع، كمن مقاتلان خلف تنة رمية
صغيرة. يرتديان ثياباً فضفاضة، ناصعة، معّمان بلثامين ناصعين
أيضاً كأنهما أقبالاً للمساهمة في فرح أو عيد وليس للمشاركة في
اشتباك. أحدهما بحيل، طويل القامة، يمسك بسلاح قصير
الذراع. أما الثاني فمكتنز، عريض المنكبين، يمسك بسلاح أطول
ذراعاً. زحف الحيل على مرفقيه حتى رأس التلة. سدّد الأداة
إلى الشمال و...

- طاخ.. طاخ.. طاخ..

ثلاث مرات. فزعت، تكوّر القلب وتدحرج إلى أسفل.
صفقت بحناحيها دون أن تدوي. وجدت نفسها تتخلّى عن
الفرخ وتطير. اخترقت الفروة وخرجت إلى الفضاء، روفت

بهلع وهي تتجه صوب الأحراش البعيدة. ولكنها سمعت النداء
الناس
- صو صو صو..

تذكرت الفرخ، عاد لها العقل الطائش فحلقت في دائرة
طوية وعادت باتجاه النخلة المكابرة. في اللحظة التي مرقّت فيها
داخل الفروة تزلزلت الواحة بالدوي
- بوووم!

اهتزّت النخلة وشاهدت أفراداً من العشيرة ينتشرون فوق
لأحراش الشمالية، ويتشتون في الفضاء. ظلّت ترفرف داخل
لفروة في احتيار. حلقت فوق العش. ظلّ الفرخ المزغب يرفرف
بجناحيه في عجز، شاهراً رقبته البانسة الصغيرة في الهواء، باحثاً
عن صدرها. حطّت فوقه وغمرته بريشها الدافئ، الكثيف.

دس رأسه في الريش، هرشها بمنقاره الشقي في الصدر.
ظلّ الصدر يعلو ويهبط. في الساحة الأخرى ارتفعت سحابة من
الغبار. غطّت قرص الضحى وأخفت سرب العشيرة. في
الأحراش ارتفع ذيل طويل من دخان.

هدأ الدوي المتبادل. توقف حوار البارود. ولكنّها
استمرت ترتجف. في ريشها ارتجف الفرخ وازداد بها لتصاقاً.
نلاحماً. تداخلاً، فأصبح نبضهما، رجفتها. إيقاعاً محموماً
واحداً. ظلّ الغبار يتصاعد في الفضاء. تبعه دخان الأحراش
الشمالية في ذيل شفاف. انتهكت أشعة الشمس. تخاطب

لحاربان عند الجدع. استند التحيل على النخلة وتلّهى بالتمنّص
 من العبر. في حين انهمك الآخر في الاعتناء بالسلاح وشحه
 بقطع الدخيرة. راقبتهما من خصاص السعف وتمنت أن تبلعهما
 الأرض. لو بلعهما الأرض أو طارا في الفضاء، مع حبيات
 العبار. لاستعادت قلبها وذقت طعم الخلاص والسكينة، لو
 اختفيا لضمنت سلام العثر وسلامة الفرخ العاجر، الحائف،
 الوحيد.

هيمن السكون.

فكرت. لا يكمن السبب في المخلوقين. فهما يحتميان
 بالخدع كما تحمي هي بالقمة. بالفروة. بل المصيبة أنها لا تمتلك
 مخالب مثل الصقور. لو كانت صقراً لاحتضنت الصغير بين مخالبها
 وفرت به إلى أبعد نخلة، أو دغل أو واحة. لا. الذنب ليس هنا أيضاً.
 ليس من حقها أن تحلم بامتلاك ما لم تهبه الطبيعة. هل هي أحكم
 وأذكى من الطبيعة حتى تتجاسر وتحمل نفسها ما لم تهبه الطبيعة.
 هل هي أحكم وأذكى من الطبيعة حتى تتجاسر وتحمل نفسها وزر
 هذه الأميات البلهاء؟ الخطأ في مكان آخر. أين الخطأ؟

ثم

- طق.. طق.. طق.

لم تعد تحتمل. وجدت نفسها تخلق عالياً، بعيداً، غائبة،
 ناسية. وما إن عادت إلى نفسها حتى دارت وعادت إلى الفروة.
 إلى العشر. وجدته ينتفض كأنه يحتضر. يزفر بصوته

العاحدة ويبحث عن حضنها الدافئ المفقود. ضمّته إلى صدرها وضمّت أيضاً رجفته إلى رجفتها. هداً حوار النار، راقبت تنقل المحاربين على طول الجبهة الجنوبية. غيروا المواقع واحتموا بالاستحكامات الرملية، ولكن الجار النحيل وضيقة أسدين لم يتحركا. أفلت منها الذرق رغماً عنها. أفلت من الفرع فسقط على ذراع النخيل كما يبدو. سمعته يقول لجاره - هل تعتقد أن يتحمل الحمام الطلقات ويبقى في رأس النخلة؟ عجيب !

ضحك زميله. سمعته يعلق

- ربي فرخ. في القمة يبقى العرش، ولكن الحمام يطير.

ثم ضحك ولا تعرف لضحكته سبباً. إذن، أين الخطأ؟ الخطأ في رجفة أخرى. الرجفة الأولى. خفقة القلب البكر والتعلق بالقرين. لو لم تعشق لما ارتبطت بقرين وارتكبت الحمافة. نعم، في هذه النزوة يكمن سر الشقاء كله. تعلقت، فباضت، فقست بيضة العشق على لثمار. عن الخطيئة. عن الفرخ. الفرخ الذي يمسك قبها ويشدها الآن إلى الشجرة، فتترك راجفة بين الأشواك والليف تحت رحمة الخطر. تحت رحمة الطقطقات والطخطنات والدمدمت. دمدمت وحشية لم تسمع بمثلها قبل اليوم. روت لها جذتها عن هذا الدوي أساطير عقب عودتها من هجرة موسمية شقية إلى لشمال البعيد، ولكنها لم تظن أبداً أن أساطير العحائر يمكن أن تصبح حالاً واقعاً.. و..

- بوووم !

اهتزّت النخلة، تزلزلت الأرض. احترقت السماء
ولشظايا وسحب الغبار والدخان. كادت الواحة لئاسة أن
تحتفي. ومن فرط رعبها انشلت هذه المرة. عجز جاحها عن
الرفرفة. فتكومت، وتكورت حول نفسها حتى كادت أن
تحتفي أيضاً. صوصو الفرخ في أحشائها وتحولا، معاً، إلى كتلة
وحدة، صغيرة، راجفة، من الريش. تحت الريش ساح سائل،
وغمر البدن بالندادة والبلل. من عينها أيضاً فز اللل. بدل حار
واليم. تحوّل قلبها إلى جمرة تتجول في صدرها وتلعن الذكور.
يظلّ انذكر يحوم حول الأنثى حتى يوقعها ثم يتركها مع الفراخ
في العش ويهرب. يهاجر وراء أول أنثى ويدعها وحده مع
الفراخ والخطر. لعن الله الذكر.

في الأسفل، عند الجزع، بصق البدين لعاباً ممزوجاً بذرات
الرمل، وخاطب رفيقه
- أخبرت الزعيم بسلوك هذا الغول !

الحيل لم يجب. انشغل بإزالة الرمل عن البندقية، ثم
شحنها بأصابع الرصاص. أضاف البدين
- فوهته في سعة فم التنور، طلقته تولول طويلاً قبل أن تسقط،
ثم، ثم ترأّر كالسبع عندما تنفجر.

أنصت للمناوشات بعيارات البنادق في الجهة الغربية،
القرية من أحراش السواقي. علّق النحيل فجأة
- مسكين الحمام. يرمي بالفضلات وهو معتصم برأس الحنة.
لن يتمسك بالبقاء في النخلة لولا وجود العش. مسكين الحمام.

ولكن الرفيق مسح العرق عن وجهه بطرف لثمه،
وواصل حديثه عن سلوك «الغول»

- يحرق من هذا الوحش القبيح بدن يكفي لحرق غابة. رأيته
عندما هاجمونا في مدن الشمال، عند بداية الغزو، يحرق مزرعة
كامسة. ألم تر النار كيف اشتعلت هناك في الأحراش، مند قليل؟
هسهس النحيل بكلام مهموس مثل أغنية شحية مكتومة
من النوع الذي يخاطب به المهاجر الملكوت القائم خف الأفق
الخفي عندما يكون وحيداً في الصحراء. أنصت البدين للنشيد
فلمعت عينه بالبلل والوميض. قال بصوت كسول
قلت لسزعيم أنهم لن يدعونا نصل إليهم. سيرموند بحمم
التنور من أبعد مسافة كما فعلوا معنا في الشمال، ولكنه لم يأخذ
بتدويري، لأن المثل يقول ليس من رأى كمن سمع.

هيمن صمت متوتر، كتيب، مخوف بالانتظار، ازداد
الهريق في عيني البدين، أفلتت من مقته اليمنى حبة نقية كقطرة
مطر ثم قال بصوت مخنوق
- إنهم جناء!

في تلك اللحظة انطلق العويل المكتوم، المشبوه، المتوعد،
الغدار، قبل أن تسقط القذيفة عند حضيض السحلة.

قبل أن تقيق تماماً من الدوي سمعت صوتاً طائراً في
الهواء. أدركت، في غمضة، أن هذا الصوت الكتيب، الموحش،
الخفي، كان قد سبق الانفجارين السابقين، فازدادت تضاولاً

والتحاماً بالوليد، حتى أصبحت قطعة واحدة. وبرغم هذا الالتحام، إلا أن قوة الدمدة هذه المرة أجبرتها أن تنفصل. في لحظة مشحونة، خاطفة، عن الطرف الآخر، عن جرنها، عن نفسها. وتطير إلى أعلى بدون إرادة أو وعي. فردت حاحيها تنقانياً، وبرغم أنها لم ترتفع، فوق العش، سوى شبر، أو ربي، عقلة إصبع، إلا أنها لم تجد العش، عندما عادت وأرادت أن تنزل فوق الوليد.

ماذا حدث؟ لم تنتبه، هذه المرة، للدوي، لم يفزعها عنف الانفجار، لم يتدحرج قلبها إلى أحشائها، لأن الشظية سحقت قبها من جسدها وأخذته، مع العش، إلى المجهول. تفقدت الفروة بنظرة واحدة، شاملة، ولكنها كافية لترى الفاجعة. لا أثر لمرخ. ضمت جاحيها إلى صدرها ونزلت على رأسها، نحو لأرض، وسط عاصفة الغبار التي خلفها الانفجار. كان الرجل لبدين ممدداً على الرملة، بجوار الجذع، وقد غطاه الغبار والدم وأشلاء لعش. فوق صدره رقد فرخ صغير، أخضر، مكسو بزغب ذهبي. بمنقار مفتوح كأنه يطرح سؤالاً. في رقبته نز خيط صغير من الدم.

ظلت ترفرف فوق الجثمان الممدد بجنون من فقد عقله أيضاً.

زحف النحيل نحو رفيقه. تفحصه لحظات، ثم تسبل له حفيه وسحب على وجهه اللثام. حام حوله وحامت هي

فوقهما. حرّه من رجليه ويّتمه شطر القبلة. ولكنه لم يقترب من الفرخ.

رفرف فوقهما بيأس وجنون.

ثم...

ثم عاد الصوت الخفيف، الخفيّ، الوحشيّ، الذي سبق الدويّ. وقبل أن يتدبّر الخطر هوى جسم ودوى انفجار. اختفى الجثمان مع الفرخ، وطار إلى أعلى الرجل النحيل. في نفس اللحظة كان الطائر، المرفرف في الجوّ، يهوي إلى أسفل، ليلتقي مع الإنسان الطالع، في برزخ غامض، بين السماء والأرض.

الطريق إلى «واو»

- 1

أحيراً ظهر.

ظهر بعد أن ينس أهل الصحراء من ظهوره.

ويستطيع الحكماء والمعمرون وحدهم، الذين ورثوا الانتظار عن أسلافهم، أن يقدروا مدى الخسارة التي تكبدتها القبيلة بسبب غيابه وعزوفه عن الظهور كل هذا الزمان. فيروى أن الوليد انصحراوي يتلقى الوصية وهو يتقلب في القمطر، ويرث الوعد مع الهدهدات في حصن الأم، فيكبر مجبولاً على الانتظار والأمل. يتدفق الزمان كما تتدفق ألسنة السراب في الخلاء، ويجد الرضيع نفسه يقف على الرابية، يجري في العراء، ويتفقد الجدبان. في المراعي يخلو الصبي إلى نفسه، يتوقف عن التنهي، يشاهد السماء النقية وهي تقرب من يد الصحراء لحضة العروب. تنزل الظلمات فيلتحم العشيقان في عناق محموم لا

تفضحه إلا عباقيد النجوم وهي تتغامز وتومئ بإشارات دات
معنى! يرتجف قلب الصبي ويستيقظ في جوفه نداء الأسلاف.
يعتني الراية ويفقد الأفق علّه يفوز برؤية القادم المنتظر. رسول
الحين الذي سيأخذ القبيلة إلى الوطن السري في «واو». ولكن
لضبة لعحوز يعتلي أيضاً المرداة⁽¹⁾ كأنه يصلي. ولحكماء
وحدهم يعرفون أن الضب لا يخرج من جحره إلا ليسخر من
سلالة الصحراوي الذي يجد في نفسه الحرأة ويطمع في الخلاص
على يدي رسول الحين المجهول.

- 2 -

ولكن الطموح في الخلاص، وانتظار الرسول الموعد لا
ينتهي عند الطفولة، ولا يتوقف مع تراجع الطيش أو الصبينة، بل
يشتد ويستعر مع تدفق الزمان الصحراوي. لأن الوصايا الموروثة
عن الأسلاف خاصة خاصة تجعل الحلم يكر، والشوق يشتعل،
حتى يصبح الانتظار عبادة، وتفقد الرسول المجهول، وتسقط
أخباره، عادة، تقيم الصبايا على شرفه حفلات الاستحضار،
وتدبج شاعرات القبيلة الموهوبات قصائد العشق والاستدعاء،
ويرقص الفتيان في الأمسيات لهفة للقاءه. بل ويقع حتى الرجال
المحتلون بالوقار في الوجد كي يخففوا في قلوبهم شعة الحين إلى
حقيقة أكدت الأساطير أنها ستأتي، ولكنها لم تأت. استمرت

(1) المرداة: الحجر الذي ينصبه الضب علامة على جحره.

ضقوس لشوق والانتظار زماً لا يعرف أحد في قبيلة لصحراء
متى بدأ، ولم يتوقع أحد أن تتحقق المعجزة ويتحقق الانتصار.

- 3 -

حلال هذا العمر الذي قطعه الزمان الصحراوي في تدفقه
تغيرت الصورة، وأضيفت أشياء كثيرة للأسطورة، حتى أن هيئة
القادم، المجهول، عندما جاء أخيراً، أصابت الكثيرين، إن لم يكن
الجميع، بخيبة أمل. لم يصل الأمر إلى الانجهازة بالخيبة، ولكن ليس
صعباً على الخبراء بنفوس أهل الصحراء أن يقرأوا في عيونهم
الدهشة الطفولية التي فاضت بها عيونهم عندما وجدوا أن
رسول الخلاص، الذي انتظروه زمناً سحيقاً بدأ مع الخلق نفسه،
ليس طيباً في الملامح، ولا يتمتع بأية مواهب تميزه عن باقي
المخوقات الصحراوية البائسة. بل إنه في المظهر يشبه الرعاة، وفي
الملامح القبيحة التي تسمح العمامة بالكشف عنها، يبدو صارماً
مثل الفقهاء. (هل قلت الفقهاء؟ الواقع أني تسامحت قليلاً، لأنني
لم أشأ أن أتطرف فأقول إن تبهمه بمائل الوجوم الخالد المطبوع
على وجوه مريدي الطريقة القادرية الذين آلوا على أنفسهم ألا
يكفوا عن لتحديق في الآخرة). الرسول أيضاً بدا وكأنه يحرق
في الآخرة. ولا يرى مخلوقاً واحداً من كل الحشد الذي تجمع
احتمالاً لحلوله. ظل متجهماً، حزيناً، متعلقاً بالأفق البعيد وهو
يحس، بحلال، على ظهر حمارة البيضاء.

كان الصبيان أول من هرع لاستقباله. مالت الشمس
الوحشية إلى المغيب، وتنقست الصحراء فرحاً بالخلاص.

أحاطت به فرق الصبية فرمى لهم بالحلوى، ولكنه لم يتنازل عن كريدته، أو وحومه، أو تعلقه بالأفق. كان يرتدي لباساً ناصعاً مقنع بعمامة بيضاء تكشف عن وجنتين مهيتين، بارزتين، وأنف كبير، معقوف، ملوّح بالشمس والسفر الطويل. فوق النثم تكومت عباءة ناصعة أيضاً. ويبدو أن الشيء الوحيد الذي لم يسه لسفر هو اللباس. وقد لاحظ العقلاء أنهم لم يروا أثراً للذرة عذر عسى ثيابه، وجاهروا بالأعجوبة وقالوا إنها برهان آخر على أنه الرسول الإلهي المنتظر. ولو لم يكن سماوياً لما افلتت من عبث القبلي وغبار الصحراء.

بدأت مسيرة جديدة، شهدت المسيرة أول شجار تنازع صبيان وتشاجروا بسبب قطعة حلوى. قال الأول، وهو فتى رفيع النية، طويل القامة، مشطور الرأس بشريط من الشعر كعرف الديك

- جذي الضب يقول إن وانهيط⁽¹⁾ لن يقودنا إلى الوليمة.

قال الثاني، وهو فتى أكثر بدانة، أقصر قامته، وشعره مصفف في الجهة اليمنى وحدها، وهي طريقة ابتدعها الرعاة وخصّوا بها الجدعان المصابة بالجرب - وجذّي الودان يقول إنه سيعيدنا إلى «واو».

ضحك الأول وعلّق ساخراً

(1) وانهيط : صاحب الحمارة (تماهق).

- هذا شرك. الودان يقع دائماً في الشرك. ولكن لا أحد ينفي أن الصب أحكم المخلوقات الصحراوية. هل تنفي أن الصب حكيم؟
- لا أنفي أنه حكيم، ولكنك ستضطر لأن تعترف أيضاً أن الودان وديع.

ولكن وانتهيط لن نقودنا إلى الوليمة في كل الأحوال.
- بل سيتحقق الوعد وتخلص من الظمأ والأسفار والجوع، سنسافر مرة واحدة إلى «واو» وسبقى هناك إلى الأبد. سنعم بالوليمة.

فهقه الرفيع مرة أخرى، ثم أكد
- لن يكون هناك وليمة. لن نبلغ «واو» أبداً. جذنا الصب يقول إن الطريق إليها مقطوع.
- اخرس!

عندما لاحظ الرفيع انفعال البدين لئن من لهجته وقال بإشفاق
- أنا لم أقل إلا ما قاله العجوز

فاضت من مقلة البدين دمة. مسحها وخاطب رفيقه
- عجوزك الصب يقول هذا لأنه يروج لعقيدة الحقد واليأس. الودان يقول إن كل من اختار العزلة فهو حاقد.
- أختار العزلة أهون من أن تقع في الشرك.
- الصحراء كلها شرك.

- ها أنت تعترف بأن الصحراء شرك. أراهن بقطعة حلوى أن جدك لودان هو الذي قال ذلك. وإذا اتفقنا مع عجورك أن

الصحراء شرك فهذا يتر العزلة ما دام الطريق إلى «واو»
مقطوع.

- اخرس !

لا أمل في الوصول إلى «واو»، ووانتهيط لن يقودنا إلى
الوليمة.

- اخرس !

بكي البدين بصوت عالٍ، وهرع وراء الموكب.

- 4 -

اقرب الموكب من المضارب فخرجت إليه النساء. رفعن
أيديهن إلى أفواههن وولولن بالزغاريد. كافأهن الضيف في
الحل ورمى لهن بالخلي الذهبية. تلالأت قطع المعدن المعوب
وتنثرت على الأرض الحمراء فقاتلت كل امرأة بالأظافر
للاستيلاء على حصتها. في المؤخرة سارت امرأتان فتنتان.
الأولى نبيلة بيضاء والثانية خلاسية ماردة. اشتكت لنبيلة من
مسلك نساء القبيلة واغتابت أخريات بالاسم وهي تنتقد
جشعهن ووحشيتهم في انتزاع نصيبهن من الذهب. ثم ختمت
ثميتها

يتصرفن كساء العبيد. تصرفهن يشكك في كنز الوليمة.

علقت الخلاسية:

الكثيرون يشككون في أمر الوليمة. أنا نفسي أشك.

- هل أنت من سلالة الضب ؟

- لا أدري. ولكن جدتي تلمح إلى أن جدتي من أمي ينتمي إلى عشيرة الصب. ولكن شكّي لا علاقة له بالسلالة. صدقي.

- لا يشكك في المسيرة إلا من انتمى لهذه العشيرة. أنت لا تعرفين ماذا يعني ألا تبلغ واو.

جدتي تؤكد أن الطريق إليها مقطوع.

- ه أنت تقدمين الدليل على الانتماء. ما أقسى لضب !
ألا يستطيع أن يكف عن ملاحقتنا ويدع لنا أملنا حتى لو كان وهماً ؟

راقبت الخلاسية امرأتين تتفانلان بشراسة وتتنازعان سواراً ذهبياً كبيراً. قالت

- سرّه في قساوته. خلوده في العزلة جرّده من أساليب التحاليل وأنساه حاجة أهل الصحراء إلى العزاء. هذا ما يجعله يجهر بعدائه لدرحلة فيقول إنّ وانتهيظ أكذوبة، والوليمة شرك، والطريق الموعود إلى «واو» شرك.

قالت النبيلة بيّاس

- ولكن الصحراوي يحتاج إلى بعض الكذب، إلى قبيح من الوهم. تخيلي الصحراء بدون أمل في الوصول إلى واو ! تخيلي الصحراء بدون انتظار للوليمة والخلاص ! هل تطاق الصحراء بدون أحلام الصحراء ؟

الحق أن الصحراء لا تطاق بدون أحلام الصحراء.

فوق ساط الوليمة سنال كل ما نشاء من مصنوعات الذهب.

الضرب يشكك في هذا أيضاً.

نهرتها النبيلة بغضب

لَمْ نَتَّفَقْ بِأَنْ نَتَّسَى شَكُوكَ هَذَا الشَّيْطَانِ الَّذِي يَسْكُنُ
لَطْلُمَاتٍ ؟

- به يحذرنا من الخدعة، ومن الوقوع في الشرك.
حقاً إن العرق دسّاس. من قال لك أنني أريد أن أبحو من
الخدعة ؟ من قال لك أنني أنوي أن أجنب الشرك ؟
بصقت النبيلة على الأرض غاضبة؛ ثم أسرعت لخطو
والتحقت بالركب.

- 5 -

نضمة الرجال أيضاً إلى الموكب، فألقى لهم بالدمية التي
تناسب مقام الرجال السيوف !
سار في وراء رجلاّن. بحثا عن تسليّة في حوار. قال
الأطول قائمًا:
- لن تكنم رجولة الرجل إلا بالسيف. لن ينتزع لنبيّل البطولة
بدون سيف.

قال الأقصر قائمًا بلغة غامضة
يوجد في الصحراء من وجد في نفسه الكفاءة لأن يسحر من
السيف ومن البطولة نفسها.

واصل الأول مآله عن البطولة والرجولة
لا رجولة بدون نبيل، ولا نبيل بدون بطولة، ولا بطولة بدون
سيف. لا يشكك في هذا الرباط إلا العبيد والجبناء.

فعاد الثاني يقول بنفس الغموض
المخوف لذي وجد في نفسه الرجولة لأن يسخر من السيوف
ومن حملة السيوف قال إن الرجولة الحقيقية هي أن يضبط
الرجل هواه ويسيطر على رغباته.

هبة الأول

- هراء. لن يكون الصحراوي رجلاً إذا لم يعشق الحسان، ولن
يعشق الحسان إذا لم يشارك في الغزوات. ولن يشارك في
لغزوات إذا لم ينل سيقاً.

اعترض الأقصر قامة بنفس البرود

- هذه عناصر لا تنفع في «واو». هذه عناصر لا معنى لها
بالنسبة لمن نوى أن يركن إلى «واو» ويجعل من مقامها نهاية
المطاف.

- لنبل معنى في كل مكان، للفروسية والرجولة والبطولة معاً
حتى في «واو».

- أحشى أن هناك من يتفح غير التسليم.

- التسليم؟!

ثم توقف. التفت إلى رفيقه القصير. تفحصه تحت لثامه
كأنه يكشفه لأول مرة. هتف كأنه اكتشف قارة:

ها.. لقد فهمت. أنت من أنصار الضبّ. لا مكان لمريدي
المسخ في مسيرة الله. اذهب من هنا.
جرّد سيفه وهجم عليه.

- 6 -

جاء دور الشيوخ.

مشوا في آخر الطابور. بعضهم حرص أن يرتدي للباس
الأزرق احتفاءً بالمناسبة، واكتفى الفريق الآخر باللباس الأبيض
ليس زهداً في الشعائر ولكن لأنّ المفاجأة لم تتح لهم الفرصة كي
يياغوا في الطقوس. وحتى الذين مشوا وراء الركب باللباس
الجميل كانوا من فئة المعمرين الذين تحصّنوا بثياب الفرحة تحسباً
لميعاد وانتظاراً لهذا اليوم المهيّب الذي انتظروه، من خلال
الأسلاف، منذ الأزل. في آخر الطابور سار أحد هؤلاء المعمرين
الذين ناهزوا المائة أو تجاوزوها بقليل. لم يكن مقوّس الظهر،
ولكن أنفاسه المتلاحقة، اللاهثة، هي التي فضحته وأومات
لجميع بأنّ لهفته في ملاحقة وانهييط ما هي إلّا يأس من الحياة
ودنو من الهاوية.

اقترب من المعمر اللاهث شيخ آخر. رفيع القامة، قويّ
الثنية، واثق الأنفاس. خاطب المعمر:
- لا أعرف ما الذي يحمل شيخ مثلك ويجعل منه عضواً في
موكب الرعاع.

أجاب المعمر وقد ازدادت أنفاسه تلاحقاً

وهل يطمع الصحراوي بفوز يعادل الوصول إلى «واو» ؟
هل أنت على يقين أيضاً أنّ و انتهيط يسير في الطريق إلى
«واو» ؟

- إني أبن يمكن أن يسير و انتهيط ؟

- ثمة من يشكك في ذلك !

سكت المعمر لحظة. شحن صدره بالهواء. قال
- لا يشكك في هذا الأمر سوى الضبّ وأتباعه. الضبّ يشكك
في كلّ شيء لأنه مخلوق كريبه و حاقده.
- البعض يقول إنه زاهد.

قال المعمر متعجباً

- لا يرى فرقاً بين الزاهد و الحاقده إلاّ البلهاء المخذوعين بفلسفة
الضبّ الداعية لقطع الأمل و الاعتصام برووس الحجارة.

أخفى الشيخ الرفيع ابتسامة خبيثة بطرف الشام قبل أن
يوصل الحوار

- ما يدهشي ليس لهات الحكماء أمثالك وراء شبح مجهول
الهوية و الأصل، ولكن ماذا يمكن أن يجنيه شيخ وقور مثلك في
واحة بعيدة، موعودة، مستحيلة، مثل واو ؟

احتجّ المعمر

و مادام يمكن أن يجنيه أمثالي غير السكينة و الحكمة ؟

ضحك الرفيع. قال بلهجة مازحة

- السكينة والحكمة ؟ فيما يتعلق بالسكينة أظن أنك لن تجدها
في واد. ولا في أي مكان إذا لم تجدها في الصحراء الخالدة. أما
الحكمة فاللهم أجرونا.

سأل المعمر

- وما الاعتراض على الحكمة أيضاً ؟ هل اضطر أن أردد على
تجديف لضب حتى وأنا أسير في الحرم ؟

ضحك الرفيع مرة أخرى. قال

- يقتل الصحراوي نفسه في شبابه جرياً وراء العشق والنساء،
ويقتل نفسه في شيخوخته حرياً وراء الحكمة.

- لا يجد ذريعة للاعتراض على الحكمة إلا الضب، فهل أنت من
أتباعه، أم أنك من سلالة ؟

ونكن الرفيع واصل كأنه لم ينتبه لمعارضة المعمر الجلي

- أنا لا أرى حكمة أعظم من تسليم زمام الأمر لصحراء.
يوقظني النسيم البحري في الفجر البكر أشاهد انفصال جسد
السماء عن جسد معشوقته الصحراء. من الانفصال الخجول
يولد الضوء البتول، فتعني العصفير موال الميلاد والفرح. أغني
معها حتى تكبر المفاجأة وتحول، بأشعة الشمس. إلى نهار
أنزل لوادي وأستشق أعذب عطر في زهرة الرتم. أسكر. يمتلئ
صدري بوجد ينافس وجد دراويش الزاوية القادرية أحذب
وأرقص وأهرع إلى السهل فتكشف لي الصحراء عن صدرها
ونعطيني كنها. كنزها الحقيقي وليس كنز التمر لمريف.

المشؤوم تخرج لي من القلاع ترفاسة مصنوعة من سحر ربّي.
 في الليل أتوسّد يدي فيهددني القمر ويمسح على جيبِي سيم
 المساء الشمالي فتتنظّم أنفاسي وأنسحب من بدني وألتحق بالله.
 أظلّ هك حتى فحر اليوم التالي. فهل يستطيع شيخنا الحليل أن
 يجد في واو أحكم من هذه الشريعة ؟ بل هل يشكّ شيخنا أن
 هذه هي «واو» الحقيقية وليس «واو» الوهم التي يسعى إليها
 البلهاء ؟

وقوف المعمر لاهثاً. جحظت عيناه. لمعت مقبته
 بالغضب
 - هل أنت من أتباع الضبّة ؟ هل أرسلك الكريه لتفسد
 رحلتنا ؟

أشاح عنه بوجهه وتحرك خلف الركب.

- 7

مضى الموكب الجليل يشق الصحراء الأبدية. يقطع
 السهول اللانهائية ويصعد الروابي العارية والجبال المسلّحة
 بحجارة لها مخالب الوحوش. ينزل السفوح المفروشة بالحصى
 والتربة الرمادية، أو يسلك الوديان الجدياء القاسية، الممتدة إلى
 الأبد. تساقطت القرايين والضحايا ولكن السعي المقدّس مستمر.
 ولكن الرحلة لم تتواصل في المكان وحده. ولكنها
 استمرّت في قرينه الزمان. تدفقت الأيام كالسراب الصحراوي

النعوب، وتملّص الزمان المراوغ من قبضة البؤساء. وعندما يفلت
رمم الرمان ويقرّر أن يتولّى قيادة المسيرة فإنّه قادر أن يصع
السعاة في خانة أخرى في واو أخرى. هلكت قبيلة لصحراء،
قبل أن تلغ واو الميعاد، ولكن وانتهى المهيب واصل مسيرته
المدهشة، ومضى يشقّ الأفق.

فوق قمم الجبال الزرق عند مرداة الحجر، راقبه الضبّ
بحزن. فاضت من عينه دمعة شفقة على مصير القبيلة.

ليماسول (قبرص)

1991-3-30

العبور

- 1 -

لا أحد يعرف حدود الضياع. لا أحد يعرف حدود هذا القمر لا في الزمان ولا في المكان. متى تمّ الخروج من «واو» ؟ متى انفصل الصحراوي عن المنبت، عن الأصل ؟ أين بدأت مسيرة الشقاء ؟ أين تبدأ القارة الخرافية المسماة صحراء ؟ أين تنتهي حدود العراء ؟

حلّ النسيان ففقد الطريد الذاكرة. كان بإمكان لعنة النسيان أن تتحوّل إلى رحمة تنقذ الصحراوي من شقاء الحنين وعذاب المنفى، ولكيها أصبحت نقمة إذ أصابت الجسد وأخطأت الرّوح. فقد الصحراوي، بفقدان الذاكرة البدن، طريق العودة إلى «واو»، ولكنه لم ينس كما أراد له الجدّ الأول، فتضاعف الشقاء. الروح تبحث، تفتش، تطلب الأصل، والجسد نائه، طيء، بليد ضيّع السبيل إلى الأصل.

الضياع الأوّل أنجب أكثر من ضياع. ضاع آتني ففقد الصحراوي دليلاً آخر إلى الحياة. كانت «واو» دليلاً إلى السماء،

وآهـي دليـه إى الأرض والحياة والناس. وعندما أضاع الكتاب أصبح الطريق إلى الأرض مقطوعاً أيضاً. أصبح الوجود نفسه صناعاً. وحود الصحراوي في الصحراء وجود ضائع من البداية ورئ الأبد. لـصحراء نفسها قارة معزولة، ضائعة عن الكون. الصحراء تائهة مند الأزل. ويجمع العرافون أنها لن تهتدي إلى الأصل أبداً.

الصياغ قدرُ الصحراء نفسها فكيف لا يكون قدر الصحراوي ؟

- 2 -

جاء دراويش الطريقة القادرية إلى الصحراء، وروّجوا لضياغ. شيدوا الزوايا في الواحات وكتبوا على جدرانها بالخط الكوفي «من لم يفقد لم يجد، ولا يجد إلا من فقد»، أو «الحقيقة في الفقد». أو هذه العبارة الخفية «الفقد سر الوجد». أو عبارة أخرى أقسى «الفقد طريق إلى الحق». أو عبارة أخرى أشد غموضاً «لا خير في امرئ لم يذق طعم الفقد». ولم يفت أهل الصحراء أن يستطوعوا شيوخ الطريقة. تحدّث شيخ الزاوية إلى نزعيم فقال «ليس وجدنا جذباً أو عشقاً للحال ولكنه فرح بالعثور على الكثر الفقيد. الإنسان ينفق العمر طلباً لنفسه المصنعة، فيب وجدها جذب ورقص فرحاً. ولم يكن ليستطيع أن يحدّها ما لم يفقدّها. لا ينوجد شيء أبداً ما لم يضع يوماً. فكيف لا تفرح إذا وجدت نفسك ؟ كيف لا ترقص إذا وجدت الله ؟». ولكن

الحواب لم يمزق الحجاب، ولم يفتح ثغرة في جدار السيار. ظلّ
الزعيم يهيم في الفلوات، يسائل العابرين، ويستطلق الجس.

حاور فقيهاً جوالاً

وجد الفقيه مبرراً للطعن في كفاءة شيوخ الطريقة وحمل
على الدراويش «إذا أردتم، يا أهل الصحراء، أن تعرفوا الطريق
فابتعدوا عن الطريقة. إلى متى تستمرون في الإصغاء لِرِنادقة
يمزقون صدورهم بالسكاكين ويدعون أنهم رأوا الله؟. والله لن
تخرجوا من الظلمات ما دمتم تحاورون البدع وتحاورون أهل
الطرق والرنادقة». ثم طلب أجراً على الفتوى قبل أن يحيب
على سؤال الضياع. تناول حفنة من التراب ورماها في وجه
الزعيم. قل «لقد أردت أن تعرف الأصل. فإليك جوابي». ثم
ضحك بيلاهة وأضاف «لا أصل غير التراب. منه جئنا ولله
نعود. فكفّوا، يا أهل الصحراء، عن البكاء، وتوقفوا عن طلب
الأصل. الاجتهاد إذا زاد عن حده انقلب إلى زندقة!». ركب
ناقته وسافر إلى المجهول.

ولكن الزعيم لم يمل إلى الفقهاء يوماً. وكان لا يخفي
تعاطفه مع الدراويش في صراعهم مع فقهاء الواحات. ويذكر أن
الدراويش انزروا في الزوايا عندما هجم الفقهاء واحتلّوا
الجوامع. تبعهم أهل الباديات الذين استسلموا للسيان. في حين
ظلّ أهل الحنين على علاقتهم السرية برُسل السر. لأنهم رأوا
دائماً أن الحقيقة باقية في الخفاء، والله أبيض إلا أن يكون سراً.

في «كانو» قابل عرافاً مهيباً ما زال على دين الجحوس.
 طلب منه العراف قطعة الطَّرونة⁽¹⁾ قبل أن يجيبه على السؤال.
 قضم من الجوهرة ومضغ التبغ ثم بصق اللعاب. ثم ايل متشياً قبل
 أن يجيب «لن تجد الطريق إلى «واو» دون أن تستعيد الذاكرة
 تماماً. في صحرائكم شجرة واحدة تستطيع أن تخرجك من
 ظلمات النسيان آسايار ! إنها آسايار ! هل تعرف آسايار ؟ هل
 تعرف ماذا يفعل هذا النبات ؟ إنه يميتك ويبعثك من جديد حياً.
 يجعلك توند مرتين. بحث عن آسايار إذا أردت أن تستعيد
 ذاكرتك وتجد طريقك إلى إلهك». وعندما حدث عراف من
 تينبكتو عن النبتة السرية ضحك العراف حتى دمعت عيناه، ثم
 أخبره أن آسايار اندثر منذ آلاف السنين، والأمل في العثور عليه
 استحالة منذ زمن بعيد. ولكنه اقرب وهمس في أذنه بالسر
 «يُروى أن راعياً عثر عليه منذ أعوام فأطعم به غنمه ظناً منه أنه
 حفاء. في الصباح لم يجد القطيع». حدّجه بنظرة خفية فسل
 الزعيم «ولكن أين يمكن أن يختفي القطيع ؟ إذا لم يهاجمه
 ذئب فإن العراء لا يتلع القطعان». قال العراف وهو يحدّجه
 بنفس الغموض «هذا ما أظنه أيضاً. ولكن الرعاة أجمعوا أن
 الماعز تحوّل إلى مخلوقات. والمخلوقات انتقلت إلى الخفاء. كثرت
 أن تسكر مع الجن». سأل الزعيم «ما فائدة العثور على آسايار

(1) لطَّرونة نوع من الأملاح التي تُستعمل كنكهة لتبغ المضغ.

إذا كان سيقلي إلى الخفاء ؟ أنا أريد الحقيقة وليس الخفاء». ابتسم العرّاف ونطق بالمفاجأة «الحقيقة هناك، في الخفاء. القطيع انتقل إلى الخفاء لأنه عرف الحقيقة. كل من عرف الحقيقة يفضّل الانتقال إلى الخفاء». هنا سأل الزعيم «هل يروق للجن أن يقيموا في الخفاء لأنهم عرفوا الحقيقة ؟». ردّ العرّاف سهحة صارمة «وهل شككت في ذلك يوماً ؟».

- 4 -

تنقّى الجواب على يد حكيم من الجن.

خرج من الحمادة مع بداية الصيف في ذلك العام.

فاز بربيع سخي شمال الجبال الزرق، ونزح بجماله إلى تدرارت لقضاء الصيف. ترك القطيع يرتع، في وديان تبعثر في ضفافها أشجار الخلفاء، وصعد إلى المرتفعات. تفقّد الكهوف، وتنقّس بين القمم السماوية. في مساء اليوم الثالث وجد نفسه في ضيافة القبيلة السخية. استيقظ من إغفاءة القبلولة مع لعشية فوجد الوادي يفيض بالقوافل تصايح الرّجال. تباكي الأطفال. تنادى النساء. وتعالى ثغاء الماعز مختلطاً برغي الإبل. رفع رأسه فرأى أكثر من حباء وقد انتصب في حضيض الجبل. على ضفة الوادي، شتعلت البيران، وارتفعت ذيول الدخان. أقل نحوه فريق من الشيوخ فنهض لاستقبالهم. صافحوه بوقار التّلا، وحسوا في مدخل المغارة. أوقد النار وبدأ يعدّ الشاي. أخرج لهم طبقاً من التمر ولكنهم لم يأكلوا. لم يستفهموا عن لكلاً.

وَمَا يَأْتُوا عَلَى سِيرةِ المطر. وجد حرجاً في أن يسألهم عن قبيلتهم
أو وجهتهم.

عندما شربوا الدور الأول بدأ الحوار.

سمع أحدهم يقول

— البدن مشدود إلى الأرض بألف وتدٍ، والروح تريد أن تطير،
وتلحق بالأصل.

قال أكبرهم سنّاً وأشدّهم وقاراً

— الصحراوي وُلد درويشاً من بطن أمّه. يهيم في الخلاء الخالي،
ويضرب صدره بقبضته باكياً «من أنا؟ من أين جئت؟ ولماذا
أدبُ على قدمين بدل أن أطير بحناحين؟ لماذا جئت؟ ما غايتي
في الصحراء؟ ألم يكن أجمل لو كنت ضوئاً أو نسمة أو قطرة
مطر؟ ماذا يمكن أن تفقده الصحراء لو لم أخلق؟ أليس أيسر
لجميع لو لم تر الصحراء وجهي من البداية؟ أليس أفضل لو لم
أوجد؟». ولا يكتفي الصحراوي بالسؤال، ولكنه يهرع لأوّل
عابر كي يستحلفه أن يخبره من هو. ومن أين جاء. ولماذا جاء.
ويستنطقه عن رأيه فيما لو لم ينوجد. أليس هذا المخلوق درويشاً
بالطبعة؟

ساد صمت.

في الخضم استمر الهَرْجُ.

التفت أحدهم نحوه وسأله فجأة

هل تبحث عن «واو»؟ قيل لي إنك تبحث عن الأصل أيضاً.

همَّ بأن يردَّ «وَمَن فِي الصَّحْرَاءِ لَا يَبْحَثُ عَنْ «وَاو» ؟
من في هذا الكوكب الضائع لا يبحث عن الأصل ؟». ولكنه
لاحظ كيف أسكت الشيخ الجليل الرجل بنظرة صارمة. تَهَيَّ
بخلط الشاي فقال الشيخ الجليل
- هَاكْ مِنْ يَحْزَمُ أَنَّ الْجَبْنَ فِي الْعُبُورِ، وَالْمَسَافِرَ هَارِبَ مِنْ مُحَارَبَةِ
الْغُولِ فِي نَفْسِهِ. وَلَكِنِّي أَرَى أَنَّ لَا وَجُودَ لِبَوَابٍ إِلَّا فِي الثَّقَلِ
وَالْهَجْرَةِ. أَنْتَ قَرِينُ نَفْسِكَ مَا ظَلَمْتَ عَابِرًا، فَإِنْ تَوَقَّفتْ
تَجَاوَزَتْكَ وَابْتَعَدَتْ عَنْكَ.

سَكَتَ لَحْظَةً. التَفَتَ نَحْوَهُ كَأَنَّ الْخُطَابَ مَوْجَّهَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ
- لَا يَتَنَعَّ غَوْلُ الضِّيَاعِ إِلَّا الْعُبُورَ. وَلَا يَخْفَفُ مِنْ وَجَعِ السُّؤَالِ
إِلَّا السَّفَرُ. فَسَافِرُ إِيَّاكَ أَنْ تَتَخَلَّى عَنِ السَّفَرِ ! إِذَا لَمْ تَجِدْ
وَاوَكْبَ فِي نَفْسِكَ، فِي سَفَرِكَ، فَلَنْ تَحْدَهَا فِي أَيِّ مَكَانٍ.

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ اسْتِضَافُوهُ فِي مَنَاجِلِهِمْ وَأَطْعَمُوهُ بِصَنُوفِ
أَطْعَمَةٍ لَمْ يَذُقْ لَهَا طَعْمًا أَبَدًا. وَفِي الصَّاحِ، عِنْدَمَا نَهَضَ وَتَفَقَّدَ
الْحَضِيضَ، لَمْ يَعْثُرْ لَهُمْ عَلَى أَيِّ أَثَرٍ. لَمْ يَجِدْ أَثَرًا لِنِيرَانِ الْبَارِحَةِ،
وَلَا لِرُوثِ الْقِطْعَانِ، وَلَا أَثَرِ الْأَقْدَامِ. تَذَكَّرَ أَهْلَ الْخَفَاءِ فَاِبْتَسَمَ
بِغَمُوضٍ.

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْسَ تِلْكَ التَّمِيمَةَ الَّتِي تَلَقَّاهَا مِنْ حَكِيمِ الْجَنِّ.
كَانَتْ تَمِيمَةُ الْحَيَاةِ.

فهرس

7	«أنا الطرقي...» أو منطق العناصر «الكونية»
25	الجبل
35	الحوار. منطق العناصر الكونية
39	إخبار الكائنات
43	نذر البتول
79	خروج
83	الطائر المقدس
97	مولد الترفاس
109	وطن الرؤى السماوية
149	مسلك السراب
163	النخلة تصلي لأجل قاتلها
177	أمغار
191	الفتح
241	المبتدأ في سفر الشقاء
251	جرعة من دم
263	تحولات الضبّ بوحدة القياس الفلكي

271	البرزخ
279	الطريق إلى واد
293	العبور
301	فهرس

من إصدارات سلسلة «عيون المعاصرة»

إميل حبيبي المتشائل تقديم توفيق بكار	حنا مينه الياطر تقديم الرشيد الغزي	محمود السعدي حدث أبو هريرة قال... تقديم توفيق بكار
علياء النابعي زهرة الصبار تقديم هشام الرفي	الطيب صالح موسم الهجرة إلى الشمال تقديم توفيق بكار	محمود السعدي السد تقديم توفيق بكار
صنع الله إبراهيم اللجنة تقديم حسن الصادق الأسوا	عبد الرحمن منيف شرق المتوسط تقديم حسين الواد	البشير خريف الدقلة في هراجينها تقديم الطيب صالح
إميل حبيبي المتشائل تقديم توفيق بكار	حسن نصر دار البيضاء تقديم محمد القاضي	البشير خريف برق الليل تقديم فوزي الزمرلي
أمال النخيلي ترانيم البروي القدو نور الدين العلوي المستلبس	محمود السعدي من أيام عمران تحقيق وتسميه محمود طرغوثي قراءة توفيق بكار	محمد المويلحي حديث عيسى بن هشام تقديم محمود طرغوثي